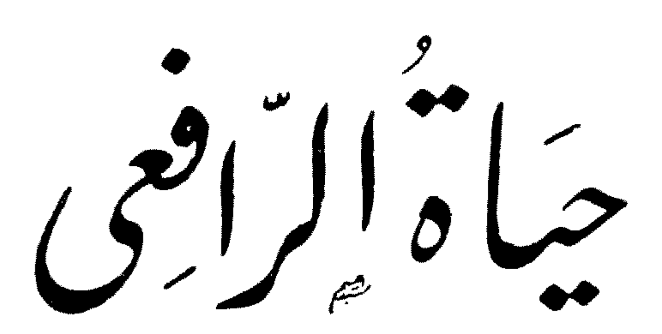
محمد سعيد العريان



حياة الرافعي

الطبعة الثالثة

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شارع محمد على بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه أستعين

فاتحة الكتاب

محمود محمد شاكر

إنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِي ، فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِي
يَرَاكَ قَلْبِي وَإِنْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي
أَلْعَيْنُ تُبْصِرُ مَنْ تَهْوَى وَتَفْقِدُهُ
وَنَاظِرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ

رحمك الله « أبا السامى » (١) ورضى عنك ، وغفر لك ماتقدم من ذنبك ، وجزاك خيراً عن جهادك ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

* * *

كتب « سعيدٌ » ـ لاأخلى الله مكانه وخُطِّىَ عنه السوء ـ هذا الكتابَ الذى

---

(١) كذلك كانت كنيته . واسم ابنه البكر : محمود سامى الرافعى ، وإنما سماه كذلك تشبيها له باسم الشاعر محمود سامى البارودى ، وإليه كان ينظر فى صدر أيامه .

يسعى بين يديه ، يردُّ به إلى الحياة حياةً استدبرت الدنيا وأقبلت على الآخرة بما قدمتْ من عمل ؛ وثَمَّ الميزانُ الذى لا يخطئ ، والناقد الذى لا يجوز عليه الزيف ، والحاكم الذى لا يقدح فى عدله ظلم ولا جور ، والبصيرُ الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ، قد استوت عنده دُجُنَّة السر ونهارُ العلانية . وقد فرغ الرافعى — رحمه الله — من أمر الناس إلى خاصة نفسه ، ولكن الناس لا يفرغون من أمر موتاهم ، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفاناً تُطوَى على الرمم ، لا أثوابا تُلقَى على الميت لتنشره مرة أخرى حديثا يُؤْثر وخبراً يُرْوَى وعملا يتمثل وكأنْ قد كان بعد إذ لم يكن .

وهذا كتابٌ يقدمه « سعيدٌ » إلى العربية وقرائها ، يجعله كالمقدمة التى لا بد منها لمن أراد أن يعرف أمر الرافعى من قريب .

لقد عاش الرافعى دهراً يتصرف فيما يتصرف فيه الناس على عاداتهم ، وتُصَرِّفه أعمالُ الحياة على نهجها الذى اقتسرتْه عليه أو مهدته له أو وطَّأت به لتكوين المزاج الأدبىّ الذى لا يعدمه حىٌّ ولا يخلو من مسِّه بشرٌ .

وأنا — مما عرفت الرافعى رحمه الله ودنوت إليه ووصلت سبباً منى بأسباب منه — أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقصى من أخبار الرافعى كثيراً إلى قليل مما عُرِف عن غيره ممن فرَط من شيوخنا وكتابنا وأدبائنا وشعرائنا ؛ وتلك يدٌ لسعيد على الأدب العربى ، وهى أُخرى على التاريخ ؛ ولو قد يَسَّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقاً وفيًا ينقله إلى الناس أحاديثَ وأخباراً وأعمالا كما يسَّر الله للرافعى ، لما أضلَّت العربية مجدَ أدبائها وعلمائها ، ولما تفلَّت من أدبها علمُ أسرارِ الأساليب وعلمُ وجوه المعانى التى تعتلجُ فى النفوس وترتكض فى القلوب

حتى يؤذَن لها أن تكون أدبا يصطفى وعلما يتوارث وفنًا يتبلّجُ على سواد الحياة فتسفر عن مكنونها متكشّفة بارزة تتأنق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب الفرح ودواعى السرور وما قبلُ وما بعدُ .

والتاريخ ضربان يترادفان على معناه ، ولكل فضل : فأوله رواية الخبر والقصةِ والعمل ، وما كان كيف كان وإلى أين انتهى ؛ وهذا هو الذى انتهى إلينا من علم التاريخ العربى فى جملته ؛ وعمود هذا الباب صدقُ الحديث ، وطولُ التحرّى والاستقصاء والتتبع ، وتسقّط الأخبار من مواقعها ، وتَوَخّى الحقيقة فى الطلب حتى لايختلط باطلٌ بحق . وأما التاريخ الثانى فإيجاد حياة قد خرجت من الحياة ، وردُّ ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح ، وضمٌّ متفرق يتبعثر فى الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للمتأمّل ، وهذا الثانى هو الذى عليه العمل فى الإدراك البيانى لحقائق الشعراء والكتاب ومَن إليهم ؛ ومع ذلك فهو لايكاد يكون شيئا إلا بالأول ، وإلا بقى اجتهادا محضا تموت الحقائق فيه أو تحيا على قدر حظ المؤرخ والناقد من حسن النظر ونفاذ البصيرة ، ومساغِه فى أسرار البيان متوجها مع الدلالة مقبلا مدْبرا ، متوقيا عثرةً تكبُّه على وجهه ، متابعاً مَدْرجة الطبائع الإنسانية ـ على تباينها واختلافها ـ حتى يُشرف على حيث يملك البصر والتميز ورؤية الخافى وتوهم البعيد ، ويكون عمل المؤرخ يومئذ نكسة يعود بها إلى توهم أخبار كانت وأحداث يخالها وقعتْ ، ويجهد فى ذلك جهدا لقد غنى عنه لو قد تساوقت إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمعت لديه وأُلقيت إليه كما كانت أو كما شاهدها من صَحِبه واتصل به ونفذ إلى بعض ماينفذ إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان .

وبعدُ ، فإن أكثر مانعرفه من أدبٍ وشعر فى عصور الانحدار التى مُنيت بها العربية يكاد يكون تلفيقاً ظاهراً على البيان والتاريخ معاً ، حتى ليضل الناقدُ ضلال السالك فى نفق ممتد قد ذهب شعابا متعانقة متنافرة فى جوف الأرض ؛ ثم جاء العصر الذى نحن فيه فأبطلت عاميتُه البيانَ فى الأدب والشعر من ناحية ، ودلسهما ما أُغرى به الكثرةُ من استعارة العاطفة واقتراض الإحساس من ناحية أخرى ؛ فإنى لأقرأُ للكاتب أو الشاعر وأتدبر وأترفق وأترقى ... وإذا هو عَيبة ممتلئة قد أُشْرِجَتْ على المعانى والعواطف فلو قُطع الخيط الذى يشدّها لانقطعت كلُّ شاردةٍ نافرةً إلى وطنها هاربة تشتدّ ؛ وبمثل هذا يخوض المؤرخ فى رَدَغة مستوحِلة يتزلّق فيها ههنا وثَمّ ، ويتقطع فى الرأى وتتهالك الحقائق بين يديه حتى يصير الشاعر وشعرُه والأديب وأدبه أسمالا متخرِّقة بالية يمسح بها المؤرخ عن نفسه آثار ماوحِل فيه !

وقد ابتُلى الأدبُ العربى فى هذا العصر بهؤلاء الذين أوجفتْ بهم مطايا الغرور فى طلب الشهرة والصيت والسماع ، فخبطوا وتورطوا ظلماءَ سالكُها مغترّ ، وقد كان احتباسهم وإمساكهم عما نصبوا وجوههم له ، واصطبارُهم على ذل الطلب ، وممارستُهم معضِلَ ما أرادوه ، وتأنّيهم فى النية والبصر والعزم عسى أن يحملهم على استثارة ماركبه الإهمال من العواطف التى تعمل وحدها إذا تنسمت روح الحياة ، واستنباط النبع القديم الذى ورثته الإنسانية من حياتها الطبيعية الأولى ثم طمتْ عليه أدرانُ المدنيات المتعاقبة .

والشعر والأدب كلاهما عاطفة وإحساس ينبعان من أصل القلب الإنسانى ؛ هذا القلب الذى أُثبت من داخل بين الحنايا والضلوع ليكون أصفى شىء وأطهرَ

شيء وأخفى شيء ، وليس كل عمل من قريب ليصفيه ويطهره ويسدل عليه من روحه شفًّا رقيقاً لا يستر بل يصف ما وراءه صفة باقية بقاء الروح ، ويبرئها من دنس الوحشية التى تطويها فى كفن من بضائع الموتى ؛ فأيما شاعر أو أديب قال فإنما بقلبه وجب أن يقول ومن داخله كُتِبَ عليه أن يتكلم ، وإنما اللسان آلة تنقل مافى داخل إلى خارج حَسْب ؛ فإن كلفها أحد أن تنقل على غير طبيعتها فى الأداء - وهى الصلة التى انعقدت بينها وبين القلب على هذا القانون - فقد أوقع الخللَ فيها ووقع الفسادُ والتخالف والإحالة والبطلان فيما تؤدّيه أو تنقله .

وقد نشأ الرافعى من أوّليته أديباً يريد أن يشعر ويكتب ويتأدّب ، وسلخ شبابه يعمل حتى أمكنته اللغةُ من قيادها وألقت إليه بأسرارها فكان عالماً فى العربية يقول الشعر ، ولو وقف الرافعى عند ذلك لدرج فيمن درج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصروه ، ولو أنه استنام إلى بعض الصيت الذى أدركه وحازه واحتمله فى أمره الغرور لخف من بعدُ فى ميزان الأدب حتى يرجح به مِن بعدُ مَنْ عسى أن يكون أخفَّ منه ؛ ولكن الرافعى خرج من هذه الفتن - التى لفت كثرةَ الشعراء والأدباء والتقمتهم فمضغتهم فطحنتهم ثم لفظتهم - وقد وَجد نفسَه واهتدى إليها ، وعرف حقيقة أدبه وما ينبغى له وما يجب عليه ، فأمَرَّ ما أفاد من علم وأدب على قلبه ليؤدّى عنه ، وبرئ أن يكون كبعض مشاهير الكتاب والشعراء ممن يُطيح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل القرطاس وللقارئ من قنابله بعد ذلك ما يتشظّى فى وجهه وما يتطاير ؛ لهذا كان الرافعىُّ من الكتاب والأدباء والشعراء الذين تُتخذ حياتُهم ميزاناً لأعمالهم وآثارهم ؛ ولذلك كان كتاب « سعيد » عن حياته من الجلالة بالموضع الذى يسمو إليه كل مبصر ، ومن الضرورة بالمكان الذى يلجأ إليه كل طالب

عرفت الرافعى معرفة الرأى أول ما عرفته ، ثم عرفتُـه معرفةَ الصحبة فيما بعد ، وعرضْت هـذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد إلا خيراً مما كنت أرى ، وتبدَّت لى إنسانيةُ هـذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها فى ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبنى واحبه ، لأن القلب هو الذى كان يعمل بينى وبينه وكان فى أدبه مسُّ هذا القلب ؛ فمن هنا كنت أتلقى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثلُ منى بالأدب وأقوم على العلم وأبصَر بمواضع الرأى .

وامتياز الرافعى بقلبه هو سر البيان فيما تداوله من معانى الشعر والأدب ؛ وهو سرُّ حفاوته بالخواطر ومذاهب الآراء ، وسر إحسانه فى مهنتها وتدبيرها وسياستها كما يحسن أحدهم مهنة المـال ورَبَّه والقيامَ عليه ؛ وهو سر علوِّه على من ينخشُّ فى الأدب كالعظمة الجاسية تنشبُ فى حلق متعاطيه ، لا يُبقى عليه من هوادة ولا رفق ، وبخاصة حين يكون هـذا الناشب ممن تسامى على حين غفلة يوم مَرِج أمرُ الناس واختلط ، أو كان مرهّقاً فى إيمـانه مُتهماً فى دينه ؛ إذ كان الإيمان فى قلب الرافعى دماً يجرى فى دمه ، ونوراً يضىء له فى مجاهل الفكر والعاطفة ويسنِّى له ما أعسر إذا تعاندت الآراء واختلفت وتعارضت وأكذبَ بعضُها بعضاً .

هذا ، وقد أرخيت للقول حتى بلغ ، وكنتُ حقيقاً أن أغور إلى سرّ البيان واعتلاقه من العاطفة والهوى فى قول الشاعر والكاتب والأديب لأسدِّد الرأى إلى مرماه ، وقد يطولُ ذلك حتى لا تكفى له فاتحة كتاب أو كتابٌ مفرد ؛ فإن البيان هو سرُّ النفس الشاعرة مكفوفا وراءَ لفظٍ ، وما كان ذلك سبيله لا يتأتى إلا بالتفصيل والتمييز والشرح ، ولا تُغنى فيه جملة القول شيئاً من غناء . وحقيقٌ بمن يقرأُ هذا الكتاب أن يعود إلى كتب الرافعى بالمراجعة

فيستنبئها التفصيل والشرح ، وبذلك يقع على مادة تمده فى دراسة فنون الأسلوب ، وكيف يتوجهُ بفنّ الكاتب ، وكيف يتصرف فيه الكاتب بحسٍّ من قلبه لا يخطئ أن يجعل المعنى واللفظ سابقين إلى غرض متواطئين على معنى لا يجوران فيجاوزانه أو يقعان دونه .

رحمة الله عليه ، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكره ، ونزع إليهم بحنينه ، وفلج أهلَ عصره بالبيان حين استعجمتْ قلوبهم وارتضخت عربيتُهم لُكنةً غير عربية ، ثم صار إلى أن أصبح ميراثاً نتوارثه ، وأدباً نتدارسه ، وحناناً نأوى إليه .

رحمة الله عليه !

محمود محمد شاكر



تمهيد

سمعت اسم الرافعى لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً لا يكاد يفهم ما يلقى إليه : فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه فى جوانب نفسى ؛ فحُبِّبَ إلىَّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

ورأيته لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلا كبعض من أعرف من الناس ، وكان جالساً وقتئذ فى قهوة على الطريق وبين يديه صحف يقرؤها : فوقفت هنيهة أنظر إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الماثل أمامى هو الشخص الذى أعرفه فى نفسى ...

وقرأت له أول ماقرأت ، نشيده المشهور « اسلمى يامصر .... » ، ثم دفع إلىَّ صديقٌ من أصدقائى كتاب « رسائل الأحزان » .

كنت يومئذ فى بكرة الشباب ، فى تلك السن التى تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدحم بالأمانى وقلب مملوء بالثقة ، ثم لايكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست فى دنيا الناس ، ويجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطويا على آلامه !

واستهوانى عنوان الكتاب الذى دفعه إلىَّ صاحبى ، فتناولته أقلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » [1] ؛ فإذا شِعرٌ عذب يخالط النفس وينفذ فى رفق إلى القلب ؛ فأخذت أُعيدها مرة

---

(١) رسائل الأحزان .

ومرة : فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة . وحَبَّب إلىَّ هذا الشعرُ الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية ؛ لعلنى أستدرك مافاتنى من معانيه وأدّخر لنفسى قوة من سحر بيانه وصدق عاطفته . وعدت إليه أقرؤه قراءة الشعر : أفهمه بفكرى ووجدانى ، وأنظر فيه بعينىّ وقلبى : فإذا الكتاب يكشف لى عن معناه . . .

وأحببت الرافعى من يومئذ ؛ فرُحت أتتبع آثاره فى الصحف وفى الكتب ؛ لا يكاد يفوتنى منها شىء ، وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ؛ ولكنى لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين . . .

كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٢ وقد قصدت إليه فى داره مع وفدٍ ثلاثةٍ نسأله الرأى والمعُونة فى شأن من شئون الأدب ؛ فلقيَنا مرحِّباً مبتسما وقادنا إلى مكتبه ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفى تلك الغرفة التى تتنزل فيها عليه الحكمة ويُلَقَّى الوحى جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث لا نكاد نشعر أنّ الزمن يمرّ . . .

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب فوقه تحجبه عن عينى محدّثه ، وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب فى غير ترتيب ولا نظام ، تطل من بين صفحاتها قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعدُ أو أن له عند بعض موضوعاتها وقفات سيعود إليها ، وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراصة لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة . وطال بنا المجلس حتى خشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف ، فإذا

هو يطلب إلينا البقاء ، ويرجونا ألا نغبّ مجلسه ؛ وعرفت الرافعى عرفاناً تاما من يومئذ فلزمته ، وعرفنى هو أيضاً فأصفانى عطفه ومودّته .

وجلست إليه فى الزورة الثانية وبين يديه صحف ، فدفع إلىّ صحيفة منها كان منشورا فيها يومئذ قصيدة للشاعر خليل مطران بك ، فطلب إلىّ رأيى فى القصيدة ؛ ولم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركنى فى لذة عقلية وجدها فى هذا الشعر ، فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ، وتناول الصحيفة منى ليرى اختيارى ورأيى فما عرفتُ إلا وقتئذ أنه كان يختبرنى ، ولكنى ـ والحمد لله ـ نجحت فى الامتحان قدراً من النجاح !

وتكرر هذا الاختبار وهو لا يحسبنى أدرك ما يَعنى ؛ على أن إدراكى هذا قد جعلنى من بعدُ أكثرَ تدقيقاً فى اختيار الحَسَن مما أقرأ . وأولانى ثقته على الأيام ، فكان علىّ أن أقرأ أكثر ما يُهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يعنيه أن يقرأ منها ، وأدع مالا جدوى عليه من قراءته ضنًّا بوقته وكنت أنا أكثر ربحاً بذاك !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى ، وكأنّ روحاً حبيبة تُطيف بى وترفُّ حولى بجناحين من نور ، وكأنّ صوتاً نديا رفيع النبرات يتحدّث إلىّ من وراء الغيب حديثا أعرف جرْسه ونغمته ؛ ولكننى لا أرى ، ولكننى لا أسمع ، ولكننى هنا وحدى ، تتغشانى الذكرى فتخيِّل إلىّ ماليس فى دنيـاى . . .

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية ، لقد كان هنا إنسان يملأ فراغا من الزمان ، لقد كان هنا قلم يصر صريراً فيه رنات المثانى وفيه أنات

الوجع ، وفيه همسات الأمانى وفيه صرخات الفزع ، فيه نشيج البكاء وفيه موسيقى الفرح ... خفتَ الصوت ، ومات الإنسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر مازال حيا ينبض ؛ لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء !

* * *

وجاءنى نعى الرافعى فى جريدة « البلاغ » بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ فغشيتنى غشية من الهم والألم سلبتنى الفكر والإرادة وضبط النفس فلم أكد أصدّق فيما بينى وبين نفسى أن « صادق الرافعى » الذى ينعاه الناعى الساعة ، هو الرجل الذى أعرف ويعرف الناس ، ودار رأسى دورة جمعتْ لى الماضى كله بزمانه ومكانه فى لحظة فكر ، وتتابعت الصور أمام عينى تنقل إلىّ خيال هذا الماضى بألوانه وأشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه ، من أول يوم لقيت فيه الرافعى إلى آخر يوم جلست فيه إليه ...

وعدت إلى النعى أقرؤه وفى النفس حسرة والتياع ، فما زادتنى قراءته شيئاً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعى قد مات !

حينئذ أحسست كأنّ شيئاً ينصبُّ انصباباً فى نفسى ، وأن صوتاً من الغيب يتناولنى من جهاتى الأربع يهتف بى ، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفنى ساعتئذ لتملى علىّ شيئا أو تتحدث إلىّ بشىء ، وكأنّ عينين تطلان علىّ من وراء هذا العالم المنظور لتأمرانى أمراً وتلهمانى الفكر والبيان ، هما عينا الرجل الذى أحببته حبًّا فوق الحب ، وأخلصت له وأخلص لى إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس ، ثم نزغ الشيطان بينى وبينه ففارقته وفى نفسى إليه نزوع وفى نفسه إلىّ ، فلم ألقه

٥

من بعدُ إلا رسماً فى ورقة مجللة بالسواد . . . ! [١]

وعرفت منذ الساعة أىّ واجب علىّ لهذا الراحل العزيز .

* * *

لقد عاش الرافعى فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له فى حياته واجباً ولا اعترفتْ له بحق ، ولا أقامت معه على رأى ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ماعاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هى فى ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضى هو مقامه منها غريباً معتزلا عن الناس ، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر فى الصحف ، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون ؛ وهو ماض على سنته سائر على نهجه ، لايبالى أن يكون منزله بين الناس فى موضع الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذى جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربى فى هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وماكان ـ رحمه الله ـ يرى فى ذلك إلا أن الله قد وضعه فى هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ، ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف فى وجهه ؛ كأن ذلك « فرضُ عينٍ » عليه وهو على على المسلمين « فرضُ كفاية » ؛ وأحسبه قال لى مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آيةمن

(١) كان بيننا مغاضبة باعدت بينى وبينه بضعة أشهر ، بعد فراغى من إخراج الطبعة الأولى لكتاب « وحى القلم » آخر كتبه ، وقد أنكر منى ـ رحمه الله ـ أن أجفوه ، وشكانى إلى الصديقين الكريمين : أحمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، ثم لم يقدّر لنا أن نلتقى بعد الخصام حتى بغتة الموت .

القرآن بسوء التأويل ؛ « من تراه يابنى يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعى ؟ »[١]
وماكان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأنّ القدرة التى هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضتْ عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً فى بطون الكتب حيناً وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجدّ على الإسلام معانىَ لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل « تطور الفكرة الإسلامية » فى هذا العصر . فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعى ، فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ، ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدّة فى هذا العصر . ولقد يكون فى العربية اليوم كتّاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لماكان يقوم له الرافعى : لا يترخص فى دينه ، ولا يتهاون فى لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يردّه من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت ؟ ...

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدّثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر ، وقالوا كاتب ، وقالوا أديب ، وقالوا عالم ، وقالوا مؤرّخ . ولكنهم

---

(١) كان الذى كتب إليه فى ذلك صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر ، وكان كاتب المقال الذى يعنيه بالرد ، هو السيد حسن القاياتى ، وكان يحرر وقتئذ فى جريدة « كوكب الشرق » ، وسنتناول موضوع هذا المقال بعد ، وانظر فيما يلى : الفصل الذى جعلنا عنوانه « فترة جمام » .

لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن تقال . لقد كان شاعراً ، وكاتباً وأديباً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛ ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها إلى حقائق وجودها ، وليردّها إلى مقوماتها ، وليشخّص لها شخصيتها التى تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ولا تعمل لها .

يرحمه الله ! لقد عاش فى خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ، وصل بها حاضرها الماثل بماضيها البعيد ؛ فهى على حساب الزمن سبع وثلاثون ولكنها على الحقيقة عصر بتمامه من عصور الأدب ، وفصل بعنوانه فى مجد الإسلام !

لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلا من التاريخ بعث فى غير زمانه ليكون تاريخاً حيا ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال ، يُذكّر الأمة العربية الإسلامية بماضيها المجيد ؛ ثم عاد إلى التاريخ بعد مابلّغ رسالته .

لقد خفت الصوت ، ولكنه خلف صداه فى أذن كلّ عربى وفى قلب كل مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام !

* * *

وبعد ، فماذا يعرف الناس عن الرافعى وماذا أعرف ؟ هل يعرف الناس إلا ديوان الرافعى ، وكتب الرافعى ، ومقالات الرافعى ؟ ولكن الرافعى الذى يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك ، فماذا يكتب عنه الكاتبون غداً إن أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذى تم تأليفه فى تاريخ العربية ؟

لقد عشت مع الرافعى عمراً من عمرى فى كتبه ومقالاته فما عرفته العرفان الحق ، وعشت معه بعد ذلك فى مجلسه وفى خاصته ، وخلطته بنفسى وخلطنى

بنفسه : فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له فى نفسى من قبلُ ومن بعد أ فَتُرانى بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعى شيئا أؤدى به بعض ما علىّ من الدَّين للعربية وللفقيد العزيز ؟

إنى لأحس عبئاً ثقيلا على عاتق لا طاقة لى بأن أحمله وليس على أحد غيرى أن يقوم به . ولقد كتبت منذ عامين ــ قبل منعاه ــ شيئاً عن الرافعى يعرّفه إلى قرّاء مجلة « الرسالة » ، فما أحسبنى لقيت فى ذلك من الجهد إلا بمقدار ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛ على أن الرافعى كان يومئذ حيا ، وكنت أحذر أن يغضب أو ينالنى منه عتب ؛ فكيف بى اليوم والرافعى بعيد فى العالم الثانى ، والكلمة للتاريخ ، ووسائل العلم منى قريبة ؛ ورسائل الأدباء تترى تستنجزنى الوعد وتقتضينى الحق الذى علىّ للأدب والعربية ، وصوت الفقيد العزيز يهتف بى حيثما توجهت . « إن لى عليك حقا وإن للأدب عليك . . .! » .

ولكنى ما أكاد أُمسك القلم حتى يكتنفنى الشعور بالعجز ، فأكاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعى إلا الرافعى نفسه ، ولكن الرافعى قدمات

أيها الحبيب العزيز الذى ما أزال من كثرة ذكراه كأنى منه على ميعاد . . . معذرة إليك !

وها أنذا أحاول أن أكتب عن الرافعى ؛ فلا ينتظر أحد منى ــ فى هذا الكتاب ــ أن أتكلم عن الرافعى الشاعر ، أو الرافعى الكاتب ، أو الرافعى الأديب ، أو الرافعى الفيلسوف ؛ فما يتسع له يومى ، وما يرضينى عن نفسى ولا ينفعنى بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التى اجتمعت فى حياة إنسان : ولكنى سأكتب ــ هنا ــ عن الرافعى الرجل الذى عاشرته زمناً ، ونعمتُ

بصحبته ، وخلطته بنفسي ، وتحدث قلبه إلى قلبي ، وتكاشفتْ روحه وروحي : سأكتب عن الرافعي الذي عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت : محاولا أن أجمع شتات حياة تفرّقت أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه ، أو غابت سرًا في صدور أهله وخاصته : أما الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف : فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب ، وسيجد الباحثون مما أقول عنه مادّة لما يقولون فيه ، ولعلى أن أوفق في البلوغ إلى ما قصدت . وإني لأتهم نفسي من كثرة ما أحب الرافعي أن أتحيف الأدب لو بدا لي في هذا التاريخ أن أقول : هذا رأيي . ولكني سأقول : هذا مارأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ماوراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات ، فسيبلغ جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعي منذ قريب إنساناً حيا بعواطفه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا عليّ اليوم إن قلتُ كل ما أعرف عنه خيرا وشرا ؛ فإنما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لايحابي ولا يحتسب ، وستمرّ بي في تاريخ الرافعي حوادث وأسماء سأصفها وأعرّف عنها بقدرٍ ما ، كما سمعتُها أو عرفت عنها ؛ فأيما كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذي شأن أحس فيما أكتب شيئا ناله بما يوجب المدح أو المذمة ، فلا يشكر ولا يتعتب ؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه . . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ماهو آت ؛ وما أحب أن يقول لي أحد صدقتَ أو كذبت ؛ فما هذا الذي أكتب رأيٌ أراه ، ولكنه رؤية رأيتها أو رواية رويتها فأثبتُّها مسندة إلى راويها وعليه تبعتها .

إن التاريخ الأدبي للرافعي يبدأ من سنة ١٩٠٠ ، وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة ؛ وأنا مابدأت صلتي بالرافعي إلا سنة ١٩٣٢ : فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدري أو مذكراتي وعليَّ تبعته ، وما كان من قبلُ فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدنين وخلطائه منذ صباه ، أو كان مما قصه عليَّ أو عرفتُ عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه . فهذه مصادر علمي أُقدمها بين يدي هذا الحديث ، ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزلته من الحق : على أنَّ الذاكرة خئون ، وما يمر على فكر الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط في معلوماته شيئاً بشيء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أني تصرفت فيه بنقص أو تغيير أو تبديل ، فليجعلني عنده بمنزلة من حسن الظنّ ؛ والله أسأل أن يجنبني الخطأ ، وأن يوفقني فيما أنا بسبيله ؟

القاهرة في { ربيع الأول سنة ١٣٥٧
مايو سنة ١٩٣٨ }

محمد سعيد العريان

صورة

كان الرافعي رجلا كبعض من ترى من الناس ؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليلمح له امتيازاً فى الخَلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقريته .

بل لقد يشك الناظر إلى وجهه فى أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملامح نبوغ أو عبقرية أو فكر سامٍ !

وجه ممسوح مستطيل ، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمرة أهل مصر ، فى وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله فى شفتيه ؛ وله عينان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس ، فما ترى لهما بريقا فى عينيك ولا تسمع لهما همساً فى نفسك : وجبهة عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعا ما ، ثم تبرز مقوسة قليلا إذا اقتربت من فروة الرأس ؛ وأذنان فيهما كبرٌ ما ولكنهما لا تؤديان عملا ولا تنقلان إليه معنى ، ومن ذلك كان قليل التلفت فى مجلسه ؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله . وكأنما صنعت له شفتاه ابتسامته الدائمة ، فلا ترى فمه مغلقاً أبداً إلا رأيته كأنما يحاول أن يحبس ابتسامة هاربة ، وتحمل شفته شاربا كثيفاً أشمط ، تحيفته الأيام من أطرافه فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ...

وصوت عالٍ رفيع النبرات ليس له لون ولا معنى ، تسمعه على أى أحواله كما تسمع صراخ الطفل : له عذوبته وتطريبه ، ونغمةُ الحزن ونغمة الفرح عنده سواء !

وقامة رياضية متناسبة بريئة من الفضول ، لا يشينها طول ولا قصر ، ولا سمن ولا نحافة .

وكان أشمط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين عريض المنكبين غليظ العنق قوى الكف والساعد ؛ مما كان يعالج من تمرينات الرياضة .

تلقاه فى الطريق فى يده عصاً لايعتمد عليها ولكنه يهزها فى يمينه إلى أمام ووراء ، ويتأبط بيسراه عديداً من الصحف والمجلات والكتب ، ماشيا على خيد الطريق لايميل ، واسع الخطو لايتمهل ، ناظراً إلى الأمام لايتلفت إلا حين يهم باجتياز الطريق .

تلك صفاته الجسمية التى واراها التراب كما لاتزال فى ذاكرتى ، أما صورته العقلية ، أما حياته ، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال ؛ فذلك ما سأجلوه فى الفصول التالية إن شاء الله .

نسبه ومولده

الرافعي سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامى الوطن : فأسرته من «طرابلس الشام» يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ؛ وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجدّه والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن وهو فى وطنيته «مسلم» : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : وطنى ؛ فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : «الوطنية المصرية ...» أو «الوطنية السورية ...» أو «الوطنية العراقية ...» إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتى من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتا من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم : هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر ، ينتظمها جميعا كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد .

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعي وبعض الأدباء فى مصر[1]، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ؛ ثم يقول : أفتُراهم يتهمونني فى مصريتى لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمى وجدّى ، أم كل عيبي عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ . . . وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟ ومن أين مَقدَمُه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

---

(١) هو الكاتب سلامه موسى .

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان العثماني في الأستانة : وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الإمام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يُعْقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة[1] ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلّمون مذهب أبي حنيفة ، حتى آل الأمر من بعدُ أنْ اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية .

وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبدالقادر الرافعي أكثرُ علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق .

---

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر أحد من ولده ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد فما منهم إلا من له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ، وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحداً وسبعين ولداً وبنتا ، وقد مات المترجم وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد عشر ولداً وفتاة ، افترط منهم واحدة في سنتها الأولى وخلف عشرة !

ولما توفى المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية فى مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعى ، فدعاه الخديو عباس إلى تولى وظيفة الإفتاء ، وكان رجلا زاهداً ورعاً فيه تحرُّج وخشية ، فلم يجد فى نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى فى شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل فى الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفى نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضنًّا بدينه ومروءته . . . وتمت مراسيم التولية وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتى الدولة) ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذى ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فإذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضى فى شئون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

وأبو الأستاذ الرافعى هو المرحوم الشيخ عبد الرازق الرافعى ، كان رئيسا للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعى . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرازق رئيسا لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفى طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه ، وفيها مات ودفن ، وفيها أقام المترجم وإخوته من بعدُ فى بيت أبيهم ، فاتخذوا طنطا وطنا ومقاما ، لا يعرفون لهم وطنا غيرها ولا يبغون عنها حِولا . ولقد حاولت وزارة العدل (الحقانية) أكثر من مرة أن تنقله إلى غير طنطا ، فكان يسعى سعيه لإلغاء هذا النقل ، حتى لا يفارق البلد الذى فيه رفات أبيه وأمه ، وفيه مسجد السيد البدوى[١] .

(١) كان للرافعى صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة ، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية كثيرة ، وكان الرافعى إذا أمّ مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ =

وكان الشيخ عبد الرازق رجلا ورعاً له صلابة فى الدين وشدة فى الحق ، ما برح يذكرهما معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثنى نسيب قال : «كنت غلاما حدثا ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعى من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً فى متجر جاره وصديقه المرحوم حسن بدوى القطاطرى ، فى شارع درب الأثر ، ودربُ الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ ففى عصر يوم من رمضان كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمرّ به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطى أن يسوقه إلى «القسم» لينال الحد على إفطاره فى رمضان فى شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء : فسيق الرجل إلى القسم فى (زفة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حدَّه بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضى المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام»

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الإسلامى منذ قرون ، وأحسب أن هناك صلةً ما بين أسرة الرافعى فى طرابلس الشام وبين الإمام الرافعى المشهور صاحب

= مجلسه تحت (القبة) فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وعيناه مسبلتان ؛ فإذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضى وما تزال شفتاه تتحركان بكلام . . . وكان بيت آل الرافعى القديم فى طنطا قريبا من مسجد السيد البدوى ، فى حارة سيدى سالم ، وهى حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ بضع مئات من السنين ، وكانت إلى عهد قريب هى مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوى واللائذين به .

الشافعى ؛ وقد سألت الرافعى مرة عن هذه الصلة ، فقال : لاأدرى ، ولكنى سمعت من بعض أهلى أن أول ماعرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائى كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر فى مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعى تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعى صاحب الرأى المشهور عند الشافعية ، والله أعلم » :

والأستاذ الرافعى حنفى المذهب كسائر أسرته ؛ ولكنه درس مذهب الشافعى وكان يعتدّ به ويأخذ برأيه فى كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعى كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخى ماتزال معروفة هناك ، على أنه كان قد اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعى ، وكانت إقامته فى بهتيم من قرى مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠م[١] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى دار أبيها .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائما يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا .

---

(١) لانعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد التى بملف خدمته فى وزارة العدل (الحقانية) هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، ثم وقعت لى بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يذكر فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنه ١٨٨٠ فبها أخذت هنا

علمه وثقافته

للأسرة الرافعية ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفاً للسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه. والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١).

وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيرا من أخبار السلف ، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ماجاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل .

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتش بوزارة المعارف (٢) ، وكان يدرس له العربية ، وكان الرافعى ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة ، فكان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلا : « يامصطفى ، لا أحسب أحداً غيرى وغير الله يقرأ خطك » وقد ظل خط الرافعى رديئا إلى آخر أيامه .

---

(١) كان الرافعى يتخذ فى بيته امرأة قارئة حافظة ، تقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهم من المدرسة وتقيم ألسنتهم فى تلاوته

(٢) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء الرافعي وتكشف عن شيء من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم - وما أكثر ما كان يصحبنى إليه إذا هبط القاهرة - وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقى نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للرافعي حديث محدثه كتابة فى ورقة ، وإنا لكذلك والحديث يتشعب شُعَبه ويضرب فى مساربه ، واجتمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليـل ، يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة . . . وإذا الرافعي يطأطئ له وينحنى يهم أن يقبل يده : ثم عاد إلى مجلسه فمال علىّ يقول فى همس : « هذا أستاذى مهدى خليل . . . » وكان فى صوته رنة هى أقرب إلى صوت الطفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه . . . ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت ؛ بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء ، وأحسبه لم يُعْنَ بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له ، أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم .

* * *

وفى السنة التى نال فيها الرافعي الشهادة الابتدائية - وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية - أصابه مرض مُشفٍ أثبته فى فراشه أشهراً - وأحسبه كان التيفويد فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثراً كان حبسةً فى صوته ووقراً فى أذنيه من بعد .

وأحس الرافعي آثار هذا الداء تُوقِر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيرا ، ومضى

يلتمس العلاج لنفسه فى كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولكن العلة كانت فى أعصابه فما أجدى العلاج عليه شيئا ، وأخذت الأصوات تتضاءل فى مسمعيه عاماً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثا يتحدث وهو منطلق يعدو ... فإن صوته ليتضاءل شيئاً بعد شىء ، حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعتها الأخرى ، فما أتم الثلاثين حتى صار أصمّ لا يسمع شيئاً مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الكلام ، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام فى وقت معا ، فوقف الداء عند ذلك . ولكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنيناً أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة ...

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه وكان هو فيها المعلمَ والتلميذ .

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية مثل حظ أبيه ، فإن الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف علمى بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ، فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لغير غرض تسعى إليه إلا أن يستكمل براهينه فى جدال بعض العلماء .

وكان لأب الرافعى مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين

والعربية ؛ فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . . . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى مُجالسة أحد . . . وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه . . . وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية . . . وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدّث . . . وكان مشتاقا إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس ، فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس . . . وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدّث حين يتحدّث . . . وقال لنفسه : إذا كان الناس يَعجزهم أن يُسمعونى فليَسمعوا منى . . .

وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجزُ بوسائله ليكون أديباً من أدباء العربية فى غد . . . !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه هى دنياه التى يعيش فيها : ناسُها ناسه ، وجوُّها جوُّه ، وأهلُها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمَّاره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فماً لفم ؛ فنشأ بذلك نشأة السلف : يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدّث بلغتهم ، وتستخفّه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومُناهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدّث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فإن حظه من العامية المصرية

كان قليلا ، وكان عليه أن يسألنى أحياناً أو يسأل غيرى من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مَثَل مما يقع له من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك ، وكان يمزح معى أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لى قاموس العامية . . . » .

وإذ كان أبوه وأمه قريبي عهد بمنبتهما فى سورية ، وكان لم يسمع أكثر ماسمع فى طفولته إلا منهما ـ فإن لهجته فى الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سورى ، ولكنه كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تجدِ على الرافعى معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقل من القليل[1] ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد فى نفسه إليها نزوعاً قويا ، فلزمها سنوات يقرأ فيها بعض مايتفق له من الكتب القليلة المقدار فى العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ؛ على أنه كان يأسف أحياناً على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها فى وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد مِثلُ الرافعى فراغاً من وقته !

هذه ثقافة الرافعى وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل على هذا الدأب فى القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لايمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه ، كأنه من التعليم فى أوله لايرى أنه وصل منه إلى غاية .

---

(١) كانت اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هى الفرنسية ، ولم تدخلها الإنجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم .

وكان إذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلا يحييه ويستمع لما يقوله ، ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدّثه : « تعال نقرأ ... » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمع الضيف ، فلا يكفّ عن القراءة حتى يرى فى عينى محدّثه معنى ليس منه أن يستمرّ فى القراءة ...

وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى الديوان ، لاتجد الرافعى وحده إلا وفى يده كتاب . وكان فى أوّل عهده بالوظيفة كاتبا بمحكمة طلخا ، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه فى الذهاب وفى الإياب (ملازم) من كتاب أىّ كتاب ليقرأها فى الطريق . وفى القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الإمام علىّ ، وكان لم يبلغ العشرين بعد . . .

فى الوظيفة

فى أبريل سنة ١٨٩٩ عُين الرافعى كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، بمرتب شهرى أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه فى المحاكم الشرعية : وما كان الرافعى ليجهل جاه أبيه وأسرته فى هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أنّ لهم يداً على كل قاض فى القضاء الشرعى ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال فى وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤدّيها إليه عَمِلَ أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى ، ولمكانته هو أيضا ... ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ . . . هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم . . .

وكانت إقامته بطنطا فى هذه الحقبة : فمنها مَغْداه وإليها مَراحه فى كل يوم ، يتأبط حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء فى الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يُعينه على العيش ، ليفرغ لنفسه ويُعِدَّها لما تهيأت له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوما واحدا ، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافعى فى طلخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاى البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال فى المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعملَ فيها أيسرَ جهداً

وأكثر أجراً : وظل فى محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعى فى طلخا وإيتاى البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ، وتاريخه فى الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التى كان لها أثرها من بعدُ فى حياته الأدبية : ففى طلخا عرف الكاظمى شاعرَ العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الودّ على ما سيأتى تفصيله : وفى إيتاى البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى « جسر كفر الزيات » فيما بين إيتاى البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون « شاعر الحسن » من بعد ؛ وفى طنطا كان نضجه وتمامه وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعى فى تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ؛ ولكنى أعرف أن روحا رفافة كانت تُطيف به فى تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذى يعيش فيه لتحلق به فى أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها ، فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفَّساً ينفّس به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أولَ أمره فى الأدب ، وإليه كان آخر مايمتد أمله ، فما كانت له أُمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

* * *

وعرف حبيبته الأولى « عصفورة » فتعلم الحب ، ولكنه لم يتعلمه مما يسمع فى مجالس الشبان كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنى التى يتداولونها فى مجالسهم فيتعلمون الحب منها فنًّا له قواعد مرسومة وغاية محتومة ... لكنه استمع إلى وحى الحب أول ما ستمع فى همسات روحه ، وخلجات وجدانه ،

وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب فى نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العُذريين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه فراح يفتقده ، وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه فى خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذى ... فهام بالحسن يُنشده شعره ويَنشد فيه مثالَه الذى يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الحائمة تقول لكل زهرة : أأنت التى ...؟ فلا يستمع إلى جواب ، والصوتُ البعيد دائب يهتف فى أذنيه : إنى هنا ، إنى هنا يا حبيبى فاقصد إلىّ ...

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ، وفى كل طلعة مشرقة بريقاً من فتنتها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى الحبيبة النائمة فى قلبه وفى أمانيه ... فمضى يتنقل من زهرة إلى زهرة ، عفيف النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر ...

لم ينس الرافعى إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رفَّت به سانحة من سوانح الماضى تُذكّره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدى الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعى ، فإن للحب فى تاريخه فصلا ضافى الذيول كثير الألوان متعدّد الصور له مكانه المفرد فى غير هذا الباب ؛ ولكنى أتحدّث عن الرافعى فى بكرة الشباب ، فما لى مندوحة عن الإلمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعى فى بكرة الشباب .

* * *

عاش الرافعى لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يُكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلال النظام الحكومى ـ كان إلى ذلك دقيقا فى عمله الرسمى دقة تبلغ الغاية ؛ وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شىء مما يُسند إليه ، حتى آل أمره إلى أن يكون المرجع فى هذا العمل لكتّاب المحكمة جميعا يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر فى تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتّاب المحاكم فى مختلف البلاد ، ثم لوزارة العدل نفسها وهى المرجع الأخير ، تكتب إليه فى زاوية مكتبه من محكمة طنطا تسأله الرأى فى حسبة أو إشكال أو شىء مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه فى منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه كل العبء من هذه الناحية فى محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن (يحال إلى المعاش) ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضى فى طلبه إلا رجاء موظفى المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان فى صلته بموظفى المحكمة الذين يشركونه فى عمله نبيلا كريم الخلق إلى حدّ بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان الخطأ ونتيجته : وقد رأيته مرة فى صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى وزارة العدل ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ فى تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص فى الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها ؛ والرافعى يردّ المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به

أخلاق الرافعى : على حين لم يكن على الرافعى فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على الخلاص منه .

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أىّ نيل : وكان يُسرف فى ذلك إسرافا يدعو إلى الشك أحياناً فى تواضع الرافعى وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدى عمله فى المحكمة ـ وعمله أن يحقق أخطاء الرافعى ـ كان الرافعى يُلزم المفتش أحيانا أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه فى حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش واقف أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثانى من المكتب . وكنت فى إحدى هذه المرات جالسا إلى جانب الرافعى ـ وكان يستدنينى إليه ويشركنى فى عمله حين أذهب لزيارته فى الديوان ـ فلما جاء المفتش هممت بالانصراف ، فشدّ الرافعى ذراعى بعنف وهو يقول : « اجلس يا أخى . . . » ووجه إليه المفتش سؤالا ، فالتفت الرافعى إلىّ قائلا : « من فضلك ، تولَّ عنى جوابه فإنه فى حاجة إلى معلم مثلك ! » .

لم يكن اعتداد الرافعى بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ فى كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأسباب يأتى تفصيلها .

وكان من تقاليد المحكمة كلما نُقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ ولكن الرافعى كان يتخلف عن وفد الموظفين ويظل وحده فى مكتبه ، فإذا فرغ القاضى أو النائب من استقبالهم مضى إلى مكتب الرافعى فى حجرته ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا

الاتفاق الذى هيأ لهما هذا التعارف ... ثم يذهب إليه الرافعى بعد ذلك فى مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية - ومحكمة طنطا هى جزء من ديوان المديرية - لم تكن صلته بالرافعى صلة المدير الحاكم بموظف صغير ، فكانت بين الرافعى وكثير من المديرين صلات من الود والصداقة فوق ما يُعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلا واحدا كان أقربَ قرابة إلى الرافعى من أهله ومن خاصته ومن تلامذته ... ، هو المرحوم (محمد محب باشا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعى ومحب باشا أثر كبير فى أدبه سنتحدث عنه فيما بعد .

لم يكن للرافعى ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحياناً كان يذهب فى التاسعة أو فى العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يُتم ما أمامه من عمل على الوجه الذى يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس فى هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل فى غيبته ، وقد لا يعود ...

وكان هذا منه يغضب زملاءه فى العمل ، فكانوا ينفسون عليه ويأكلون لحمه : ويبلغه مايتحدثون به فيهز كتفه ويسكت ، ثم لايمنعه ذلك من بعدُ أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح فى المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة ... !

وحدث ذات مرة والرافعى فى صدر شبابه ، أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافعى ، فلما

سأل عنه تحدّث الموظفون فى شأنه ماتحدّثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوه إليه ، فلم يجده الرسول فى مكتبه ، فغضب الرئيس وثارت ثائرته ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمى ؛ وجاء الرافعى فبلغه ما كان ، فهز منكبه وجاس إلى مكتبه يمزح ويتحدّث على عادته كأن لم يحدث شىء ؛ ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة العدل يبلغها أنّ فى محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لايحسن التفاهم مع أصحاب المصالح ، على شدّة اتصال عمله بالجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأى . . . وطلب الرئيس فى آخر كتابه إقالة الرافعى من الخدمة !

وأرسلت وزارة العدل مفتشها لتحقيق هـذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفنى ناصف بك . ولم تكن بين الرافعى وحفنى ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذى يجمع بينهما فى أسرة أبولون ... وإلا . . . وإلا كلمة قاسية كان الرافعى كتبها بأسلوبه اللاذع عن « شعراء العصر » فى سنة ١٩٠٥ ، ونشرها فى مجلة الثريا وجعل فيها حفنى ناصف ذيل الشعراء . . .

وجاء حفنى ناصف إلى الرافعى فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق . . . وقال الرافعى : « قل لهم فى الوزارة : إن كانت وظيفتى هنا للعمل ، فليؤاخذونى بالتقصير والخطأ فيما يسند إلىّ من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال فى الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسى كأنك مشدود إليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف ؛ فلا علىّ إن تمردتُ على هذا التعبُّد . . . قل لهم فى الوزارة : إنكم لاتملكون من الرافعى إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهار . . . ! » .

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا

صاحبه ومضى ؛ فلما كان فى خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة العدل يقول :

إن الرافعى ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود . . . إن للرافعى حقا على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية . إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه ، دَعوه يعيش كما يشتهى أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتنّ ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخىّ فى غير هذا المكان .. !

وبلغ التقرير وزارة العدل ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعدُ أن يغدو الرافعى ويروح لا سلطان لأحد عليه وله الخيرة فى أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل فى واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه فى موضعه ذلك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعى لم تكن بينه وبين حفنى ناصف صلة ما . ولكن حفنى تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين فى محكمة طنطا ، فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الودّ ؛ وكانت طنطا فى ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛ فلا يمضى أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفنى والرافعى ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعى وحفنى من التقارب فى الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الودّ ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفنى أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافعى أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس . ولعل روح الفكاهة فى الرافعى كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم من صلة الود والإخاء .

حدثنى المرحوم جورج إبراهيم ـ صديق الرافعى وصفيه منذ حداثته ـ قال:
لقد كانت الصلة بين الرافعى وحفنى أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان فى قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحيانا . فكنت أرى حفنى يتواضع للرافعى ويتصاغر فى مجلسه ، على مقدار ما يتشامخ الرافعى ويتكبر ويدعى الأستاذية ، حتى ليرى له الرأى فى القضايا التى لم يدرسها حفنى بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعى !

ظل الرافعى فى وظيفته تلك ، موزّع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية ، وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على المورد المحدود والبساط الممدود .. وما زاد مرتب الرافعى الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت فى الشرق والغرب ، الموظف الصغير فى محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنيهاً فى الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة فى وظائف الحكومة ...

على أن الرافعى كان له مرتب آخر من عمله فى المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه فى مكتبه لعمل رسمى ؛ وكانت ضريبة فرضها الرافعى من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس ، أو فرضها أصحاب الحاجات على أنفسهم التماساً لرضاه !

ليت شعرى ! أكان على الرافعى ملام أو معتبة أن يفعل ذلك ... ؟

شاعر الحس

كَلِفَ الرافعي بالشعر من أول نشأته، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... وكان واسع الأمل، كبير الثقة، عظيم الطموح، كثير الاعتداد بالنفس: فمن ثم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به - بكل أولئك تهيأ لأن يكون كما أراد، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية.

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد، فما كانت له خيرة في المذهب الذي آل إليه من بعد، ولكنها نوازع الوراثة، وعوامل البيئة، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها.

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية، وأن الحياة ستردّه من الهدف الذي يسعى إليه في إمارة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء. وما كان أحدٌ من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعته الصبابة، وفتنته الحياة، وتقاسمته لذاتُ الصبا، وتعنّاه الهوى، وتصبّاه الحبُّ والشعرُ والشبابُ - سيكون مكانه في غده هذا المكانَ في الدفاع عن الدين والذود عن العربية والصيال في سبيل الله؛ وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تصير إليه في إمارة الشعر منزلة تُخمل ذِكرَ فلان وفلان من شعراء عصره.

ومضى الرافعى يسعى إلى غايته فى الشعر وقد تزوّد زاده من الأدب القديم، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتدّ إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودى وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفى يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان فى الشباب والحداثة ، وكان جديدا فى السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنْ به مَن حوله ؛ فأخذ الرافعى ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقرّ فى نفسه أنه هو وهو ... وأنهما فى منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى فى ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعى : أنا وأنت ... وما فاته أن حافظا يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانته من الأستاذ الإمام وبمنزلته عند البارودى زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ، فراح الرافعى يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودى ، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدّث فى المجالس ، وينشر فى الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس ، وانتهز نهزة فذهب يستطيل بأنه « شاعر الحسن » وبأن حافظا لا يقول فى الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدّبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما من صفو المودّات ، ولم تجنِ على صداقتهما القوية ، فظل الرافعى وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا فى سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله فى سنة ١٩٣٢ .

ليس من همى أن أتحدّث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فنّ وفنّ ،

وشاعرية وشاعرية : فقد يبدو لى هنا ُبعدُ ما بين المنزلتين فى الموازنة بين الرافعى وحافظ فى الشعر : وما يهمنى فى هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ، فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

فى إبان هـذه المعركة الصامتة بين الرافعى وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعى يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئا من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمى ، ونشرت له الصحف غداةَ مقْدَمِه قصيدةً عينية من بحر الطويل ، قرأها الرافعى فاستجادها ورأى فيها فنا ليس من فنّ الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فملكت نفسه وبلغت منه مبلغا ، وقرّر لساعته أن يسعى إلى التعرّف به ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعى يومئذ كاتبا بمحكمة طلخا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمى فى القاهرة وهو ُيمنّى نفسه بأن يكون بينهما من الودّ ما يرفع من شأن الرافعى و ُيجدى على أدبه . وكان فى الكاظمى ـ رحمه الله ـ أنفة وكبرياء ، فأبى على الرافعى أن يلقاه وردّه ردًّا غير جميل ، إذ كان الرافعى يومئذ نكرةً فى الأدباء ، وكان الكاظمى ما كان فى علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خَلتّه وفقره : واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعى وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمى ما استطاع أن ينال بذمّه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعى مؤمنا بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة .

وفعلت هـذه الكلمة فعلها فى التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعى

بالكاظمى وصفا ما بينهما وأخلصا فى الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافعى أصفى أصفياء الكاظمى ، وصار الكاظمى أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعى ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء ، حتى إنه لما هم الكاظمى أن يسافر إلى الأندلس فى سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعى يقول فيه : « . . . ثق أنى أسافر مطمئنا وأنت بقيّتى فى مصر » .

هؤلاء الثلاثة : البارودى ، وحافظ ، والكاظمى ، هم كل من أعرف ممن تأثر بهم الرافعى من شعراء عصره . أما شوقى ، وصبرى ، ومطران ، وغيرهم ممن نشئوا مع الرافعى فى جيل واحد ، فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى ، وما سمعت منه — رحمه الله — حديثا يُشعر بصلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم فى حداثته ، فلعل عند غيرى من أهل الأدب علما من العلم يُكمّل هذا النقص ويسدّ هذه الخَلة .

* * *

بدأ الرافعى يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره فى الصحف وفى مجلات السوريين التى تصدر فى مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت فى أيديهم ، فمجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهراء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلال ، وغيرها — كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبستانى ، واليازجى ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس ، وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية فى اللغة والأدب الوصفى والتاريخ . أما أدب الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب المرحوم جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن

الرافعي في أول عهده بالشعر : قال :

« بدأت صلتي بالمرحوم الرافعي قريبا من سنة ١٩٠٠ : كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمي معروفا لقرّاء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعي أو أسمع به ؛ وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافعي متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت يوما أشتري شيئا من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة : فلما صرت إليه ، لقيتُ هناك فتى نحيلا في العشرين من عمره ، يلبس جلبابا ، جالسا إلى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رآني الفتى حتى ناداني فدعاني إلى الجلوس ، ثم قال لي : أتعرف أني شاعر ؟ قلت : لا ، لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعي ، وهذه الكراسات كلها من شعري . وعرض عليَّ بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلا : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجودَه وأمزّق الباقي ، وسأطبع ديواني بعد قليل فتعرفني . . . ! »

قال : « وعرفت الرافعي من يومئذ ، وقويتْ بيننا الصلة حتى صرتُ أدنى أصدقائه إليه : يقرأ عليَّ شعره ، ويستمع إلى رأيي فيه ، ويستشيرني في أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثتُ حتى أعجبت به وأحللته من نفسي أرفع محل من الحب والتقدير » .

* * *

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه في المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذ صفوة من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب جورج إبراهيم ، والصيدليان : نسيم يارد ، وإلياس عجان ،

والطبيب تودرى ؛ وكانوا يتخذون مجلسهم عادة فى وقت الفراغ فى صيدلية «كوكب الشرق» بطنطا .

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعى يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ إبراهيم ديوانه ، وقدّم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء فى حينها ، وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحى . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعا ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والرافعى غيور شموس ، فما هو إلا أن رأى مارأى حتى عقد العزم على إصدار ديوانه ، ومادام حافظ قد صدّر ديوانه بهذه المقدمة التى أحدثت كل هذا الدوىّ ، فإن على الرافعى أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه مابلغ حافظ ، وإنّ عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ !

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعى فى الموعد الذى أراد بُعَيْد ديوان حافظ بقليل ، وقدّم له بمقدمة بارعة فصّل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ؛ وهى ، وإن كانت أوّل مانعرف مما كتب الرافعى ، تدل بمعناها ومبناها على أنّ ذلك الشاب النحيل الضاوى الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . وإذا كانت مقدّمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ماحمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحى ، فقد حملت هذه المقدمة الأديبَ الناقدَ الكبير الشيخ إبراهيم اليازجى على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعى على كتابتها .

قال الأستاذ جورج إبراهيم :

« لما همّ الرافعى أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلىّ فى جلبابه والحرّ شديد ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألنى أن أهيئ له مكانا رطبا يجلس فيه ليكتب المقدّمة ،

فجلس فى غرفة من الدار ، ثم تخفّف من لباسه ... واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة ؛ فحذّرته أن تنال منه رطوبة البلاط فى مجلسه الطويل . فقال : لاعليك ياجورج ؛ إنى لأحب أن أحس الرطوبة من تحتى ... فينشط رأسى ... ثم استمرّ فى مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة فى ساعات ...

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخةً منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، والشيخ اليازجى يومئذ أديب العصر وأبلغ منشئ فى العالم العربى ، وكان الرافعى حريصا على أن يسمع رأى اليازجى فى شعره وأدبه . ومضى زمان ولم يكتب اليازجى ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعى ومقدمته بالنقد أو التقريظ ، واحتفل به «المؤيد» احتفالا كبيرا فنشر مقدمته فى صدره ، والمؤيدُ يومئذ جريدةُ العالم العربى كله .

قال : « واستعجبتُ أن يهمل أستاذنا اليازجى هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعى لذلك غما شديدا ؛ إذ كان كل مايكتب الأدباء فى النقد لا يُغنى عن كلمة يقولها اليازجى ؛ فذهبت أسأله ، فقال لى : أنت على ثقة أنّ هذه المقدمة من إنشاء الرافعى ؟ قلت : هو كتبها بعينى فما أشك فى ذلك . قال اليازجى : وأنا ما أبطأتُ فى الكتابة عن الديوان إلا من الشك فى قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها فى مظانّها من كتب العربية . . . قلت : ياسيدى ، إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . . . » .

وكتب اليازجى بعد ذلك فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى مايأتى :

« ... وقد صدّره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهبا عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، فى كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرتَه وجدتَه هو الشعر بعينه ... » .

ثم انتقد اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« ... على أنّ هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ، لأنّ المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر فى جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضنا بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها فى المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سِنيه ، ولا ريب أنّ من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السنّ ، سيكون من الأفراد المجلّين فى هذا العصر ، وممن سيُحلّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر » (١) .

* * *

بلغ الرافعى بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره . ثم استمرّ على دأبه ، فأصدر فى سنة ١٩٠٤ الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفى سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ، متصرفا فى فنونه ، ذاهبا فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفا إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعى الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره

---

(١) لا يعنينى أن أنقل هنا ما كتب أهل الأدب فى الرافعى ، وإنما أثبت هذه القطعة بخصوصها لما كان لها فى نفسه من تأثير بليغ .

براقا تتجمع أضواؤه وترمى أشعتها إلى بعيد ، ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل » .

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

« . . . وسيأتى يوم إذا ذُكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان » .

وكتب حافظ ، وقال البارودى ، ونظم الكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعى الشاعر . وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذى كان يرمى إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب سنتحدث عنها بعد .

ليس كل شعر الرافعى فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه وشاعريته : فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعى أكثر مما نشر ؛ وقد كان فى نية الرافعى لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما فى دواوينه ، ثم يُخرج منها ومما لم ينشر ديوانا واحدا مهذبا مصقولا ، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين ؛ ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقى عمله تراثا باقيا لمن يشاء أن يسدى يدا إلى العربية يُتم بها صنيع الرافعى .

لم ينقطع الرافعى عن الشعر بعد تلك الفترة ، ولكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعى الذى لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة .

شعراء عصره

قدمت الحديث عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم أو جرى معهم على سَنن ، وأثبتُّ ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة ، بعقد الأواصر وإنشاء المودات والدعاية لنفسه ؛ ثم بينتُ ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟ على أن الباحث لا يُقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن وأوله حافل بثلة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ؛ فما مبلغ تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

[illegible] نفسه أن يتحدث عن شعراء عصره ، وما حديثُه هذا إلا [illegible] يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل [illegible] عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه [illegible] وعنفوانه وشدّته في النقد ، إذ كان هذا الحديث [illegible]

[illegible] من الخصومات الأدبية أشهرَ شهرةً من [illegible] : الخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعي

والعقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ، وبينه وبين غير هؤلاء - هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة في موضعها في تاريخ النقد في العربية .

وإنّ قراء العربية عامّة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدةً حبّبته إلى الكثير ، وألبَتْ عليه الكثير : على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي « شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ » .

* * *

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه من الدعاية لنفسه فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كلّ من يعرف الرافعي من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب: الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

والطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي [1] ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ، ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ، ثم ... حفني ناصف !

وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف ، والمنفلوطي ، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبي ، ونسيم .

---

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخرته .

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ، ومحمد النجفى .

وقد افتتح الرافعى مقاله بما يأتى :

« قرأت فى بعض أعداد « الثريا » كلمة عن « الأدب قديما وحديثا » فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما شُدِخَ بين حجرين ؛ فقلت : إنى أنظم الشعر فأسر ، وأقرأ عنه فأسر ، فما لى لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون فى أسماء الشعراء كما يتنافسون فى ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا فى الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير !

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لى كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرءوا فاتحته ، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت فى أحرف الأسماء ؛ فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع ؛ على أن اسمى قد لا يكون فى غير بطاقتى وكتبى إلى أصحابى القايلين ، وفى سجل بعض الجرائد والمجلات ، فليظنى القارئ ما ضرب على رأسه الظن ... ...

« وسأذكر فى هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بى اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأيى ، فإما وسعه فكمل به ، وإما أظهره كما هو فى نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت فى تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة » .

ثم كتب رأيه بعد ذلك فى كل شاعر ممن ذكرت مقتبسا من شعره مستشهدا به على ترتيبه فى موضعه من طبقته .

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ .

« ... وأكثر شعره فى هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه فى ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا فى اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون « شوقى » عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر ـ يعنى نفسه ـ كما أسمع عنه ، فإنى أكون قد ظلمته إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أُخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره (١) ، ولذلك فإنى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتى أو كهلا : وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر فى مقدّمة شرحه أنه نظمه فى عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر فى بعض أعداد مجلة « الجامعة » تقريظا مسهبا جدا للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر : فأكبرت ذلك ، ولاشك أنه ينظم اليوم فى الجزء الثالث قياسا على ماتقدّم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى مايبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تُطرق ، وكثيرون يعدّونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

---

(١) مقتضى حساب السنين على هذا القول ، أن يكون مولده سنة ١٨٨١ ، وقد ذكرنا من قبل ـ نقلا عن بعض ما كتب بخطه ـ أنه ولد فى سنة ١٨٨٠

وقال عن شوقى :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقى بك ثانى الطبقة الثانية وهو هو، شوقى بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية، ولكنا نعجب أكثر منه إذا رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكيات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعانى المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قَضَى أَرْيَحِيُّ القوم » وغيرها . ولا أدرى لهذا الانقلاب سببا إلا إذا صح مايقال من أن « صبرى وسلمان » كانا يهذبان شعر الرجل من قبل، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديما يوم كان الكاظمى فى العراق، والبارودى فى سيلان، وصبرى من مهذِّبِى شعره على مايقال، وحافظ فى السودان، والرافعى لم يقل الشعر بعد ـ على ما قيل لى ! ـ وأثبتَ له الشهرةَ إضافتُه إلى الحضرة الخديوية، على نحو ما يذكر النحاة فى باب (الجرّ) بالمجاورة ... »

وختم المقال بقوله :

« وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال، ولكنى أطلب إليهم أن يُخَفِّضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير، ولا من حاشية السفير، وليس ما كتبت إلا رأيى، فليبق كلٌّ فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »

وذيلته مجلة « الثريا » بما يأتى :

ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوما ملفا ضخما واردا من مصر، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالة بكراً لم يُنسج على منوالها بعدُ فى العربية، حَرِيَّةً بأن تُصدِّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنك شدةُ لهجتها، فكلها حقائق ثابتة ؛ وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها، وأنا كفء

للجميع ؛ وما إخال أحدا يستطيع أن ينقض حرفا مما كتبته ، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقرارا بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جلا وطَلاع الثنايا : فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتى فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط . وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فإن الموضوع طلى شهى ، وفى إطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار ،

قالت الثريا : وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب ، وبتنا نقدم رجلا ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ؛ إن لم يكن لشىء فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعتها ؛ وللكتاب الأدباء الحريةُ فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم .

« ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهدّم ، ومن لا يظلم الناس يظلم[1]»

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر : وقد تحدث عنه المرحوم الرافعى مرة فى بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما حدث من ضجة بين الشعراء فليرجع إليه من شاء «وانظر الجزء الثالث من وحى القلم » .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفا لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعى لا يخفى على أحد من قرائه .

وقد كتب الرافعى فى كلماته عن حافظ أن هذا المقال نشرته الثريا سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

* * *

أحسب أن لهـذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسع ، قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح .

أولا : إنه أول ما أنشأ الرافعى فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى نشبت بين الرافعى ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بدّ لمن يريد أن يتحدّث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا .

ثانيـا : إنه ثَبْت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدّث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء .

ثالثـا : إن فى هذا المقال لونا من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعى لنفسه ليبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد ؛ فإنّ فيه شيئا من أخلاق الرافعى المزهوّ بنفسه ، المعتـدّ بعلمه ، القوى بإيمـانه ، المتقحم على مواطن الهلاك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العمالقة على القمة : انزلوا إلىّ أو أصعدْ إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ، ولا يُسْمَع لـكم صريخ ... !

لقد كان الرافعى طويل اللسان من أوّل يوم ... !

بين أهله

« إذا رأيت رجلا موفقا فيما يحاوله ، مسدد الخطا إلى الهدف الذى يرمى إليه ؛ فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه ! »

إنى لا أعرف - فيمن أعرف - أحدا تنطبق عليه هذه الحكمة انطباقها على حياة الرافعى : فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى وعرف طرفا من حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها فى بيته ؛ فإلى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ،هذا الهدوء الذى هيأه لدراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى فى الرابعة والعشرين من عمره : ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفكر والنظر : ومادمت قد أخذت على نفسى أن أكتب عن الرافعى فى كل أطواره ، فلا علىَّ أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعى ؛ ولا أحسبنى بذلك أتجاوز ما لى من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء .

وزوج الرافعى مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقى المعروفة فى (منية جناح - دسوق) وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب « البيان »[1] : وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى هى أول السبب فى هذا الزواج .

---

(١) توفى سنة ١٩٤٥ .

حدثنى المرحوم الرافعى قال : « . . . كنت فى الرابعة والعشرين ، وكنت أعرف عبدالرحمن البرقوقى نوعا من المعرفة التى تربط بين شابين ترافقا فى الطبع ، واتفقا فى الغاية : وكان عبدالرحمن طالباً أزهريا ولوعا بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الإمام ، إذ كان من تلاميذه الأدنين » وكنا نلتقى أحيانا ؛ فسرنى منه ماسره منى : وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين ؛ إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عزٌ وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له ـ وكان لى ـ أصفى مايكون الصديق للصديق ...

لم أكن أعرف له أخا أو أختا ، ولم يجرِ فى بالى قط أنّ الصلة بيننا ستتجاوز مابيننا ، حتى كان يومٌ جلستُ فيه أتحدث إلى نفسى ، فكأنى سمعت صوتا من الغيب يهتف بى أنّ صديقى عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجى ... وانتبهت وأنا أسأل نفسى : أله أخت ؟ ياليت ... ! لوكان إننى إذاً من السعداء ...

« وكانت نفسى فى الزواج ، فما هى إلا أن تحرّك فى نفسى هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقى عبد الرحمن ، وقلت له وقال لى ، وجرّنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبى : من لى يا أخى بالزوجة التى أريد ؟ ووصفتُ له الفتاة التى تعيش فى أحلامى ؛ فلما فرغتُ من حديثى قال صاحبى : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هى هدية أقدمها إليك . قلت : من ؟ قال : أختى ! » .

قال الرافعى : « وغشيتنى غشية من الفرح ، فما تلبثتُ حتى مددت إليه يدى فقرأنا الفاتحة ، وما وقع فى نفسى وقتئذ أنى أمد يدى لأخطب عروسى لنفسى ، ولكنى أمدها لأتعرّف إلى العروس التى خطبتها علىَّ الملائكةُ وأثبتتْ نبأ الخطبة فى لوح الغيب » .

وبنى بأهله ، وعاشا أهنأ مايكون زوج وزوج ، ثلاثا وثلاثين سنة ـ ثلث قرن ـ

لم يدخل الشيطان بينهما ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة . . .

قال الأستاذ جورج إبراهيم : لقد حضرت عرس الرافعي ، وصحبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدتُ اضطرابه وخَجْلته . واستمعت إليه من بعدُ يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه ، فما شكا إليّ مرة واحدة همًا ناله ، ومضى عام . . . وجاءني ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافعي كان ينمّ على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : ياجورج ، لقد عزمتُ على أمر ... سأطلّق زوجي ! وراعني هذا النبأ ونال مني ؛ قلت : تطلّقها ! لماذا ؟ قال : إنّ إخوتها يجحدون حقها في تركة أبيها لا يريدون أن تستمتع منها بشيء ... قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ! قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ ... مصطفى ، إنك جبار ، أوْ لا فاذكر أنّ الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعي : أو لا هذا ولا ذاك ، فاذكر أنّ أهل « طرابلس الشام » لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة مَعيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد ... فكن بعضَ أهلك يا صاحبي . . .

قال : وأطرق الرافعي هنيهة ثم قال : أحسِبْتَني أفعلُها ... ! ؟

قال : ولم يدخل الشيطان من بعدُ بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه . . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضي شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

* * *

كان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب ؛ وما كان منكورا لأحد من أهله أن

الرافعي ليس موظفاً كسائر الموظفين : عمله فى الخارج وحسب : بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان فى بيته كالملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش فى جو من الاحترام والرعاية والطاعة فوق الأحزاب وفوق المنازعات : فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أى شغل أو تشغب على هدوئه وتعكر صفوه : فكان خالصاً لنفسه ، منقطعاً لفنه وعمله الأدبى ، فدارُ كتبه له هو وحده ، وطعامه مهيأ فى موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممهد فى موضعه لساعته ، ونظامه الذى يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعيٌّ مضبوط .

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجه وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء . وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعى : إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب ، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالى أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ناصحاً برفق حين يحسن الرفق ، مؤدباً بعنف حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان .

* * *

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فإنّ واجباً علىّ أن أتحدث هنا عن شيء من « حب الرافعى » أراه يتصل بهذا الموضوع :

فى فترة ما من حياة الرافعى ـ سيأتى الحديث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد ـ كان للرافعى هوى وغرام ، ووقع له فى هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا همّا على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه .

وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدَث الذى يعترض طريق ويغلبنى على إرادتى ؟ إن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى ـ والحب عند الرافعى لا يأبى الشركة ـ وإن لها علىّ حقا ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرةٌ أو ابتسامة إلا أن تأذن لى ! ماذا يكون من أمرى وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كلُّ ذى حق حقه ؟ أأقول لها : نعم قد ضيعتُ حقك وأعطيتُ من قلبى الذى لا أملك لمن لا تملك ؟ ويلى ! إنها الخيانة والإثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحيّتها وحدثته ، وأفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ثم قال : وأنت يازوجتى ، هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولكن ...

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة ... ثم أذِنَتْ له ... وكتب الرافعى رسالته الأولى إلى صاحبته التى غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجتُه كما قرأت رسالتَه . وصار هذا دأبهما من بعد ... لا ترى زوجته لها حقا عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه فى ذلك ملامة ما دامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف فى الأدب العربى تم بها نقص العربية فى فلسفة الحب والجمال ، هى «رسائل الأحزان» و «السحاب الأحمر» و «أوراق الورد» ؛ ولكن أحدا لم يقرأ القصة الأخرى ... قصة هذا الوفاء وهذه التضحية لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الكتب فى فلسفة الجمال والحب ... !

من الشعر إلى الكتابة

ملكة الإنشاء . إنشاء الجامعة المصرية . تاريخ آداب
العرب . إعجاز القرآن . حديث القمر . شيوخه في الأدب

بلغ الرافعي الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ، وجرت ريحه رُخاءً إلى الهدف المؤمّل ، فامتدّ نظره إلى جديد ...

وأخذ يَرُوض قلمه على الإنشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فتنتْه وملكتْ إعجابه ، فتهيأ لأن يُصدر كتابا مدرسيا في الإنشاء سماه « ملكة الإنشاء » يكونُ نموذجا للمتأدبين وطلاب المدارس ، يحتذون فنَّه وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه . وأحسبه كان جادًّا فيما وعد لولا أمور نشأت من بعدُ وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائما بينه وبين قرائه حتى نسيه ونسُوه .

ولا أحسب أن شيئا ذا بال قد فات قراء الرافعي بعدم نشر هذا الكتاب ؛ وحسْبُ الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذى لم يُنشر ، مقالاتٍ ثلاثا نشرها الرافعي في الجزأين الثاني والثالث من ديوانه ، وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلانا ونموذجا لكتابه؛ فإن في هذه المقالات الثلاث كل الغَناء للباحث ، تدله على أول مذهب الرافعي في الأدب الإنشائي ، وطريقته ونهجه (١) .

---

(١) تقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » وفي الجزء الثالث ص ٨٠ « رسالة فكاهية » وفي ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع » .

إنشاء الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعي كان جادًا فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » لولا أمور نشأت من بعدُ وصرفته عن وجهه . فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٧

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين فى مدرسته التى أنشأها لنفسه وكان فيها المعلمَ والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلم لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالما فى الأدب ، أو راويا فى التاريخ ، أو أستاذا فى فرع من فروع المعرفة ؛ وإنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زادَه ، وليبلغ من العلم مبلغا يعينه على أن يقول وينشئ . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلّع إلى ما يقال هناك فى دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديدَ الذى يتشوف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟

مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئا فى الأدب يفتقر إليه الرافعي ، وما تحدث أساتذتها حديثا فى الأدب لا يعرفه الرافعي . ماذا ؟ أهذا كل ما هناك ؟ . . . وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص . . .

وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروسا للأدب ، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن فى الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ؛ فكتب مقالا فى الجريدة يحمل على الجامعة وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب فى الجامعة . ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب فى (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة للفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعةَ أشهر .

وقرأ الرافعي دعوة الجامعة ، فما رضى ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذاك ؛ إن مائة جنيه شيء مُغْر لمثل الرافعي الأديب الناشئ ، والموظف

الصغير ، والزوج العائل : أبى وهيبة وسامى ومحمد ؛ ولكنه كان يطمع فى أكثر من مائة جنيه ، ويطمع فى أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة .

« إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم ، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فإذا طُبع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرةُ على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذَ الأكبر . . . ؟

« لِمَ تنفض إدارة الجامعة يدها من قومهم رؤساء الصناعة ، وظهورُ مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجماعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكفّ يهون على الرقاب ؟ » (1)

وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ؟ إنه فنٌّ لم يتناوله أحد من قبل . وإن مراجع البحث لكثيرة ، وإن من وراء ذلك جهدا لا يطيقه إنسان !

وكتب الرافعى مقاله الثانى فى « الجريدة » ينعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبّى على الدعوة التى دعتْ ، ويقرّر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر ، إنما مَسَّتْ بهم الحاجةُ إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه ، فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة . . . ومضى الرافعى يتجنى ويتدلل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر .

وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدةَ إلى سنتين ، والجائزةَ

(1) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه .

إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .

ووجد الرافعي بذلك ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه ...

تاريخ آداب العرب

إن كثيرا من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعي بيدٍ على العربية أو يروا له صنيعا فى الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه «تاريخ آداب العرب» وإنه لكتاب حقيق بأن يُذكر فيذيع فضل الرافعي على الأدب والأدباء .

انقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ أتم طابع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذى عينته الجامعة .

لم يكن الرافعي طامعا فى جائزة الجامعة : ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه ، ترفعا عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .

وكان أسبقَ المؤلفات ظهورا إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعي ، « سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقا مطبعيا » (١) .

وكانت مقالات الرافعي فى « الجريدة » ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك فى وضع ما وُضع من الكتب فى هذا العلم .

وأعان الرافعيَّ على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكتباتٌ ثلاث

---

(١) حكاه الرافعي .

بطنطا ، كانت حافلة بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هى : مكتبة الرافعى ، ومكتبة الجامع الأحمدى ، ومكتبة القصبى (١) .

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغربية الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية . . .

ليس من همى هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعى « تاريخ آداب العرب » : فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، ومامنهم أحد إلا له فيه رأى محمود وثناء مستطاب : ومانال أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية يومئذاك ، إذ قال فى مقال نشرته له « الجريدة » سنه ١٩١٢ : « . . . هذا الكتاب الذى نشهد الله على أننا لم نفهمه . . . » لكنه عاد فصحح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد من ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى « فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيِّمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب (٢) .

نال الرافعى بكتابه هذا مكانا ساميا بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتا غير قليل : وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

---

(١) هى المكتبة التى انشأها وجمعها المرحوم الشيخ إمام القصبى وولده الشيخ محمد القصبى شيخا الجامع الاحمدى قبل المرحوم الشيخ الظواهرى الكبير .

وقد حدثنى عنها أبى ، كما حدثنى عنها المرحوم الرافعى ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادر المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ، وهى الآن محبوسة فى حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء ، من حجرات زواية القصبى بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد ، لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم قدرها ، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها ، فإن هناك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها ، وحسب العربية ما لقيت من أهلها فى عصور الجهل والانحطاط .

(٢) ص ٩٠ و ٩١ فى الشعر الجاهلى وص ١٩٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين

أسبوعا يخطب عنه فى مجالس العاصمة (١) وقد كتب عنه مقالا ضافيا فى الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوُه فعليه طابع الباكورة فى بابه ، يدل على أنّ المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا : وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل . . . وأما أسلوب الرافعى فى كتابه فإنه سليمٌ من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى ألفاظا سابغة مفصلة عليها ، لاطويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها . . . » .

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان ـ وهو أشهر كتّاب العربية فى ذلك الوقت ـ (٢) مقالة فى صدر المؤيد جاء فيها : « لوكان هذا الكتاب خطا محجوبا فى بيت حرام إخراجه للناس منه ، لاستحق أن يُحَجَّ إليه ؛ ولو عُكِف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار ، لكان جديرا بأن يُعكف عليه ... » .

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السّنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبلُ ومن بعد لغير هذا الكتاب .

وأسلوب الرافعى فى هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع ، وكان الرافعى يومئذ قد أتم الثلاثين ... !

وفى السنة التالية ، أصدر الرافعى الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب ،

---

(١) عبارة الأستاذ لطفى السيد إلى الرافعى .

(٢) توفى فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

وموضوعه إعجازُ القرآن والبلاغةُ النبوية؛ وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم « إعجاز القرآن » ، وباسمه الثانى يعرفه قرّاء العربية ، وقد طبعه على نفقته المغفور له الملك فؤاد رحمه الله . ومات الرافعى وفى مكتبته أصولُ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ، ومعها تعليقات كان ينوى إضافتها إلى الجزء الأول فى طبعته الثانية فعاجلته المنية [1] .

* * *

هل كان للرافعى خيَرَة فى المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ماشرع يكتب « تاريخ آداب العرب » ؟ .

وهل كان يعنى ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر ، إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء !

هل كان عن قصد ونيةٍ أن يتخلى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها ، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم ؟ ...

الحق أن الرافعى لم يكن له خِيرة فى شىء من ذلك ، ولا كان يعنيه ، ولا توجهتْ إليه نيته : ولكنه ألّف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأنّ إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب : فلما أخرج كتابيه إلى الناس ، لم يلبث أن ارتد إليه الصَّدى مما يقول الناس : فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، وإذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتّاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذى يكتب

(١) نشرته المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٤٠

عن إعجاز القرآن فيعجِز ، ويتحدّث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ، حديثَ قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكلٌ ما ينطق يُبين . . . ووجد الرافعى كأنما اكتشف نفسه !

وهنا بدأ الرافعى الكاتب الذى يعرفه اليوم قرّاء العربية ، على حين أخذ الرافعى الشاعر يتصاغر ويختفى رويدا رويدا حتى نسيه الناس أو كادوا ، لا يتحدّثون عنه إلا كما يتحدّثون عن شاعر استمعوا حينا إلى أغاريده العِذاب ، ثم ترك دنياهم إلى العالم الثانى ليتحدّث إليهم من صفحات التاريخ .

لقد عرف الرافعى من يومئذ أن عليه رسالة يؤدّيها بين أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذى يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وأن ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه يردُّها إلى مكانها ويردّ عنها ، فلا يجترئ عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندّر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدّد أوهامه ويكشف عن دخيلته .

ونظر فيما يكتب الكُتاب فى الجرائد ، وما يتحدّث به الناس فى المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هى عامّية متفاصحة ، أو عُجمة مستعرِبة ، تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدّبين وألسنتهم ، فقرّ فى نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب الكتّاب وينشئ الأدباء ؛ وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذاك إلا أن يتزوّد له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعى يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون فى مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المنتقاة ، واللفظ

الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافى ، لتكون له عونا على ماينشئ من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية .

* * *

هذا سبب مما عدل بالرافعى عن مذهبه فى الشعر إلى مذهبه الجديد فى الأدب والإنشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعى يصرِّح به كثيرا لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى فى الشعر العربى قيودا لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرة فى نفسه . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التى يعرفها قرّاء العربية فيما قرءوا للرافعى . والحق أن الرافعى بطبعه شاعر فى الصف الأول من الشعراء لا أعنى الشعر المنظوم ، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذى هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان ـ رحمه الله ـ بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنىّ المصنوع ، فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معانى السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لايلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلا : « أسمعت هذا الشعر ؟ أرأيت شاعرا فى العربية يملك من قوة البيان مايجمع به كل هذه المعانى فى قصيدة منظومة . . . ؟ »

هذه العبارة التى كان يسمعها جلساء الرافعى كثيرا ، تفسر لنا قول الرافعى : إن فى الشعر العربى قيودا لاتتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن

نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية فى قصيدة من المنظوم ، ولا يُعجزه البيان فى المنثور . نعم ، كان شعر الرافعى أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره . . .

أفترى فى العربية شاعرا يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من «أوراق الورد» فى قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويخل بالميزان ؟ .

لا أحسب أن الرافعى كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود فى الشعر العربى من أسباب الضعف فى الشعر : فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأى ، بل أحسبه فى بعض نقداته الأدبية أنكر مثل هذا القول على أديب من الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغض من قدر الشعر فى العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيرا عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرّح به .

* * *

ذلك هو السبب الثانى الذى عدل بالرافعى عن الاستمرار فى قرض الشعر معنيًّا به مقصورا عليه .

لم يهجر الرافعى الشعر هجرا باتا بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كلّ همه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دواعى النفس أو من دواعى الاجتماع . وسنرى فيما سيأتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما مس الحب قلبه واتقدت جذوته فى أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعتْه نفسه ؛ وعند ما اتصل ببلاط الملك فؤاد ـ رحمه الله ـ سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

حديث القمر

قلت إن الرافعي بطبعه كان شاعرا ، ولكن شعره كان أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره ، فنزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد « الجملة القرآنية » إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء ، لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجا فى هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت فى أول هذا الفصل أن الرافعى كان على نية إصدار كتاب مدرسى سماه «ملكة الإنشاء» يكون عونا للمتأدبين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء . فذلك بعض ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد .

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان فى سنة ١٩١٢ ، عرف فيها شاعرة من شواعر لبنان ، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل فى الحب [١] ؛ فلما عاد من رحلته ، وجد فى نفسه حاجة إلى أن يقول فقال ، فكان حديث القمر !

وهو أول ما نشر الرافعى من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بى أن أصفه لقراء العربية ، فهو مشهور متداول وهو أسلوب رمزىّ فى الحب ، على ضرب من النثر الشعرى ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما فى أسلوب فنىّ مصنوع لا أحسبه مما يُطرب الناشئين من قراء العربية فى هذه الأيام ، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام فى لفظ جزل وأسلوب بليغ .

---

(١) نتحدث عنها فيما بعد ، عند الحديث عن الرافعى العاشق .

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرارٍ فى الأدب لايعرفه ناشئة المتأدبين اليوم .

شيوخه فى الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعي فإنى أسأل نفسى : عمن أخذ الرافعي هذا المذهب فى الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامى والمحدثين ؟

هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثنى به الرافعي أو أحدٌ من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئا فى هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظنى أن الرافعي نفسه كان لايعرف أستاذه فى الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همّه أن يكون كاتبا أو منشئا ، ولكن تطورات الزمن هى ردّته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيرا وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق ، اختلطت فيه مذاهب بمذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكنى أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر مايقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغانى ، وكان يُعجب بأدبهما ويَعْجب لإحاطتهما عجبا لا ينقضى وإعجابا لا ينتهى ، وكان لابد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه فى فكره أو فى مذكرته — أن يفتح جزءا من الأغانى ، أو كتابا من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئا مما يتفق ، ليعيش فترةً ماقبل الكتابة فى جو عربى فصيح .

وأحسبه إلى ذلك قد تأثر كثيرا فى صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ إبراهيم اليازجى صاحب مجلتى « الضياء والبيان » .

ومما لا يفوتنى إثباته فى هذا المجال أنّ مجلة « الهلال » قد استفتت أدباء العربية يوما منذ سنوات ، فى أىّ الكتب العربية تُعين الأديب الناشئ على مادته ؟ وكان للرافعى فى هذا الاستفتاء جواب لاأذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعى .

وسمعته مرة يقول : إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر فى الأسلوب الأدبى الذى اصطنعته لنفسى ؛ قال لى الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيرا جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل » .

قال الرافعى : « وأعجبتنى بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حَذْوِى من بعد فى الإنشاء » .

أفيحق لنا بهذا أن نزعم أنا عرفنا واحدا من شيوخ الرافعى فى الأدب والإنشاء ... !

فى سنوات الحرب

كان الرافعى - رحمه الله - شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرّك خاطره ويتفطر قلبه؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . وقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرّائه كثيرا من المآسى الفاجعة يسأله أصحابه الرأى أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاما مكتوبا، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها، فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل .

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نارٌ ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فلم يكن ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقلَّ عديدا من ضحاياها هناك فى الميدان . . . كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام؟ رباه! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى - وأنا غلام بعد - أستدعى النجار لعمل عندنا، فوجدته جالسا فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلّقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء، تتسابق أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية . . . !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن فى دار المؤن وقتا ما ثم تقذفها من بَعدُ قنابلُ المحاربين وتذروها رمادا فى الهواء . . . !

ونظر الرافعى حواليه فارتدَّ إليه البصر حسيرا مما يرى ويسمع، فاحتبس

الدمع فى عينيه ، ولكن قلبه ظلّ يتحدث بمعانيه .

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحتشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل ما يحمل من همّ الشعب فى قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوما ففاض .

* * *

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شىء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت فى طريقى . . . ؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربّ ، لِمَ كتبت علىّ هذا . . . ؟ لماذا حكمت بذلك . . . ؟ لماذا قدّرت وقضيت . . . ؟ ما حكمتك فيما كان ... ؟ ألم يكن خيرا لو كان ما لم يكن ... ؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفىء إلى الرضا ، فيعود معتذرا يقول . رب ، لقد ظهر حُكمك ودقّت حكمتك فمغفرة وعفوا . . . !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبّدتهم شهواتُ أنفسهم فهم أبدا فى حيرة وضلال .

فى لحظة من تلك اللحظات ، أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربّ ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك . . . ! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء .

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضا ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ، ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يارب ! ليتهم وليتنى ... ليتهم يعلمون شيئا من حكمة الله

فى شىء من أغلاط الناس !... كل شىء فى هذا الكون العظيم يجرى على قدَر منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه « المساكين » .

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف فى المنثور ، وثانى ما ألف فى أدب الإنشاء ، ويعرِّف به الرافعى فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاط الناس ... »

وقدّم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة . . . فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقا متهدِّلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلْفقُها بخيوط من الدمع ، ويمسكها برُقَع من الأكباد ، ويشدّها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخيبة إلى همّ ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسيا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان متعدّدة الظلال ، تلتق عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا

صورة « الشيخ على » الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش فى نعمة الرضا ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه . . . من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع .

وأول أمر الرافعى فى تأليف « كتاب المساكين » أنه كان فى زيارة أصهاره فى « منية جناح » فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا رجل يعيش وحده ، ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوبا ، ولا دار تؤويه ، ولا حقل يغل عليه : يجوع فيهبط على أوّل دار تلقاه يتناول مايمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق . رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس وآمالِ الحياة . ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره ، فعرف من فلسفته فلسفةَ الحياة ، ووجد عنده الحل لكل مافى نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحى الشيخ على الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة .

ويصف الرافعى الشيخ على فيقول :

« . . . هو حليم لنفسه . غضوب لنفسه ؛ وكذلك هو فى الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفى كل ضدّين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لايحيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه : فالناس كما هم وهو كما هو ، يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ؛ ويتحاشونه رأفة ورحمة

ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سليط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأنّ ألمه مرض طبيعى ، ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يُمْغص بطنُه بالداء أو يُمغص ظهره بالعصا . . . ! وهو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة ، غير أن أمرهما مختلف جدا ، فلم تقهره الدنيا ؛ لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو ؛ لأنها لم تظفر به .

« . . . وهو رجل سُدّت فى وجهه منافذُ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه فى الأرض بطل خيالى يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يُخرج الدنيا تلك الحقيقة الإلهية التى لا تَغْذُوها مادة الأرض ولا مادّة الجسم ، فهى تزدرى كلَّ ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف ، وكلَّ ما ردَّت عليك الغبطة من بسطة فى الجسم أو سعة فى المال أو فضل فى المنزلة ، وكلَّ ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف .

« . . . فهو أجهل الناس فى الدنيا وأجهل الناس بالدنيا . . . وأنت إذا سطعتَ له بالجوهرة الكريمة النادرة ، فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هوّلت عليه بألوان الخز والديباج ، حَسِبك مائقا لم تر قطُّ نضارةَ البرسيم وألوان الربيع . . . »

هذا هو الشيخ علىّ الذى أوحى إلى الرافعى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردَّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح .

وقد فرغ الرافعى من كتاب المساكين فى سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ على من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافعى وتملى عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أنّ الرافعى

كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به ، إيمانا كان مادةَ حياته ونظام عمله . وإيمانُه ذاك هو الذى كان يُفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسما أبدا أو ضاحكا ضحكة السخرية والاستسلام .

* * *

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته » .

. . . هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التى حطّت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ على الجناجى .

اغانى الشعب

اسلمى يا مصر . نشيد الاستقلال . البحر المنفجر

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعى فى تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطنى أو طائفى من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعى : فهو بذلك خليق أن نسميه « شاعر الأناشيد »

وقد ولع منذ نشأته فى الشعر بالأناشيد الوطنية والأغانى الشعبية ، يفتن فى نظمها ، ويبدع فى أوزانها وأساليبها : ففى سنة ١٩٠٣ أخرج فى الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته « الوطن » التى يقول فى مطلعها :

بلادى هواها فى لسانى وفى دمى ... يمجّدها قلبى ويدعو لها فمى

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها فى دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء فى هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات : « قد تمت القطع التى نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرق ، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذى لم يسلكه قبله أحد ؛ فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده فى هذا المشروع ، حتى لا يغيض ما بقى فى ذلك الينبوع ... » (١)

---

(١) شرح الرافعى الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وهو باب من الدعاية التى كانت يدعوها لنفسه فى أول عهده بالشعر ؛ ومن هذا يرى القارئ حديث الرافعى عن نفسه فى هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه .

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغانى ، ينشر منها طرفة رائعة فى كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامى ، وغيرهما ، وأذاع فى الصحف كثيرا مما نظم من « أغانى الشعب » .

وعرف الرافعى فى نفسه هذه الميزة التى فاق بها شعراء العربية فى باب هو من الشعر فى ذلك العصر من صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغانى الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ؛ وقد جرى الرافعى فى هذا الميدان شوطا بعيدا ، وأنجز طائفة كبيرة من أغانى الشعب نشر بعضها ومايزال سائرها فى طى الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التى لم تنشر بعد .

وإنك لترى الرافعى فى هذه الأغانى والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له فى سائر شعره ، فتؤمن غير مضلَّل أن الرافعى هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هذا الفن الشعرى البديع الذى تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم فى الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ . . . » ثم لم يقل أحد من بعده شعرا يترنم به فى الحرب ؛ أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعى .

ويقينى أن اسم الرافعى إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء فى العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعى ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية فى المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد .

وأشهر أناشيده : « اسلمى يامصر » و « إلى العلا إلى العلا بنى الوطن »

و «حماة الحمى ...» ولكل نشيد تاريخ .

* * *

نهضت الأمة نهضتها الرائعة فى سنة ١٩١٩، ودوّى صوت الشعب هاتفا : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها ، فإذا الأمّة صوت واحد ، على رأى واحد ، إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود فى وجوده يتمثل فى كل مصرى ، ويستعلن على كل لسان فى مصر .

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصرى ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معانى نفسه .

وتلفّت الناس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذى يؤمّلون أن تتحدّث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وسمّتْ لجنةُ النشيد جائزةً وضربت أجلا ...

وتبارى الشعراء فى الافتنان والإجادة ، وتقدّم كل شاعر ببضاعته ، وتقدّم الرافعى فيمن تقدّم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء العصر لم يتقدّما بشىء إلى لجنة النشيد : هما «شوقى» أمير الشعراء ، و «حافظ» شاعر النيل أما حافظ فلأنه من المحكمين فى اختيار النشيد ، وأما شوقى ... فمن يدرى ؟

وكان على رأس «لجنة النشيد» الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر والى[1] . فكأنما عز عليه أن ينتهى الأجل المضروب فيتقدّم الرافعى ، ويتقدّم الهراوى ؛

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ويتقدّم عبد الرحمن صدقى ، ويتقدّم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، و ممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقى وحافظ .

و نَسَأت اللجنةُ الأجلَ المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك فى المباراة ؛ فأما حافظ فأصرّ وأبى ، وأما شوقى ... رحمه الله ـ لقد كان حريصا على أن يقول الناس فى كل مناسبة ؛ لقد قال شوقى ... ولكن ماذا يقول فى ذلك اليوم ؟

وكان لشوقى نشيد أنشأه منذ عهد لتفتتح به «فرقة عكاشة» موسمها التمثيلى ، فماذا عليه لو تقدّم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟

وتقدم شوقى إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بنى مصرٍ مكانكمو تهيَّا فهيا مهِّدوا للمجد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ، فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصا على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقى ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرّد الأدباء على اللجنة وحُكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل فى القضية؟

وكان الرافعى على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات فى « الأخبار » ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسى ، وكاتبها الأول هو المرحوم أمين الرافعى ؛ فسحب الرافعى نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقى وأنصار شوقى وقال فى نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازنى والعقاد فى «الديوان»

وكتب غير المازنى والعقاد ، وشوقى رحمه الله رجل كان - على فضله ومكانته وعلى منزلته فى الشعر - ضيقَ الصدر بالنقد والناقدين : فمن هذا كان بينه وبين الرافعى شىء من يومئذ ، إن لم يكن من قبلُ يومَ نشر الرافعى مقاله فى « الثريا » عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ : فما التقيا من بَعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحدا من أدباء العربية لم ينصف شوقى بعد موته أو يكتب عنه مثلَ ما كتب الرافعى عن شوقى فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفى أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين .

* * *

ومضت لجنة المباراة فى طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعى فى ثورته : ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ؛ لتنظرَ فى نشيد الرافعى وحده .

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقى ، وفاز من بعده الهراوى وعبد الرحمن صدقى ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعى هو النشيد القومى المصرى . . . وسبَّقت بين المغنين جائزةً ، ليصنعوا لحنا لنشيد الرافعى :

إلى العلا ، إلى العلا ، بنى الوطنْ إلى العـــلا ، كلُّ فتاةٍ وفتًى

وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !

ليس من همى هنا أن أوازن بين نشيدى شوقى والرافعى ؛ فقد مات نشيد الرافعى (إلى العلا . . .) بعد أن سبقه نشيد شوقى إلى الموت بعشر سنوات ، ولم تُجْدِ كل المحاولات فى بعثه ونشره . . . وإذا كان لى أن أقول شيئا هنا فى الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعى

واحتفائهم به فى كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقى .

لقد سمعت نشيد الرافعى أول ما سمعته فى حفل رسمىٍّ أقيم لإذاعته بطنطا فى سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أنى رأيت من بعدُ نشيدا احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعى يومئذ ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذياله ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش فى شعب أكبر فضائله أن ينسى . . .

اسلمى يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا فى سعد زغلول ؛ فهو المصرى الذى لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنسانا تراه العين لما وجدوا إلا صورتَه ، ولو سألوا : مَن الرجلُ الذى يقول أنا الأمةُ صادقا لما وجدوا غيره . . .

وتطوّرت فكرة النشيد القومى عند الرافعى ، فرأى رؤياه فى منامه . . . فلما أصبح ألّف نشيده « اسلمى يا مصر » وما كان همُّ الرافعى عند ما ألفه أن يجعله نشيدا قوميا ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بيانا رمزيا على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعى فى خطابه إلى سعد فى جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر فى كل فرد من الأمة على قدر استعداده ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدرا من مصادر إمداده »

« ويقولون إنه نشيد يقرّبك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقرّبون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيلَ يديك ، ويجدون فى كل زمن من شرْح هذا الاسم الكبير أنه الرجل الذى خطّ قلمُ الأزل بيده كتابَ نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبيٌّ الفكر والعزيمة . . . »

قلت : إن الرافعى لم يكن يعنى بإنشاء نشيده « اسلمى يا مصر » أن يجعله نشيدا قوميا ، فإنه لمطمئنٌ إلى أن نشيده « إلى العلا . . . » ماض فى طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعنى أن يضع فى هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقتُه فى نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيدا قوميا ليجعلوا صوتَ سعد فى هذا النشيد صوتَ البلاد ، وليتخذوا ما فيه من معانى المجد شعارا لكل مصرى ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوتَ كل مصرى .

وتألفت اللجان فى مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ، فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر على ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثانى أذْيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد أن صار نشيدها الرسمى .

نشيد الاستقلال

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد « اسلمى يا مصر » هو نشيد مصر القومى من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومى يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة .

فى هذه الفترة كان الرافعى على نية إنشاء نشيد وطنى جديد ، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد : فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماةَ الحمى ، يا حماةَ الحمى   هلمُّوا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرختْ فى العروق الدِّما   نموت ، نموت ، ويحيا الوطن

كما تقدم بنشيده الآخر: «اسلمى يا مصر»: ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثانى ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأى اللجنة وحكمها فى هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبى ليس من قصدى التعرض له فى هذا المقال ؛ فإنّ للتاريخ الأدبى حكمه فى هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتَمَّحِى العداوات .

* * *

ليس ماذكرت هو كل جهد الرافعى فى الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذى لا أرى غيره من شعراء العربية جديرا به ، فما أستطيع أن أُحصى كل ما أنشأ الرافعى فى هذا الباب ، وحسبى أن أُذكّر بنشيده الخالد الذى أنشأه فى سنة ١٩٢٧ ليكون شعار « الشبان المسلمين » ، فهنا ،

فى هذا النشيد يُعرف الرافعى الشاعر المسلم المجاهد الذى وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب .

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » و « نشيد الطلبة » الذى أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا ـ فذلك فنّ من البيان له فصل بعنوانه فى تاريخ الأدب العربى .

البحر المنفجر

فى أناشيد الرافعى عامة ، تعرف له طابعا وروحا ونغمة هى سر نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل فى أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة فى سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو فى خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هـذه الأناشيد لسمعت لحنا له رنين يشترك فيـه صوت الرافعى ، ونقر أصابعه على المكتب ، وخفْقُ نعله على أرض المكان : وعلى أنّ الرافعى كان أصم لايسمع قصف المدافع ، فإنه كان لايستوى له النظم إلا فى مثل هذه الحال . واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش مفتش التحقيقات بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعى من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف فى القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعى يوم جلس إليها وهى تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ، ويوم جلستْ إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمى يامصر » وهو يسمعها بعينيه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه

وينفخ شدقيه ؛ وفى أذنيه وقر ثقيل . . . !

هذه النغمة التى كانت تتمثل للرافعى فى سمعه الباطن وهو يعالج نشيدًا من الأناشيد ، كان لها أثرها الفنى فى عمله ، وهى هى التى كانت تُشعره أحيانا بالعجز عن أن يجد فى موازين الشعر العربى النغمة التى كان يريدها فى أناشيده كطبل الحرب ؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْداً مَجْداً مَدْرَسَتى مدرستى مَجْداً مَجْداً

عن علمى عن تربيتى مدرستى حَمْداً حمداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر ، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارئه ، وسماه : « طبل الحرب » ولكن صاحب « المقطم » أشار عليه أن يسميه « البحر المنفجر » . وتفعيلاته « فَعْلُنْ ، فَعْلُنْ ، فُو » مكررة فى كل شطر ، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته .

* * *

هذا هو الرافعى شاعر الأناشيد ، وهذا جهده وما بلغ ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان : « أغانى الشعب » لولا أن عاجلته المنية . فلو أن أدباء العربية ذكروا يوما أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية ، لأخرجوا لقرّاء العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !

الرافعى العاشق

الحب عند الرافعى . هو وهى . شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء . هى وهو . تعقيب . رسائل الأحزان . السحاب الأحمر . أوراق الورد .

---

١ ـ « إن المرأة للشاعر كحواء لآدم : هى وحدها تعطيه بحبها جديدا لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به السماوات نازلا ... »

٢ ـ « إن النابغة فى الأدب لايتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »

٣ ـ « ... إن ملكة الفلسفة فى الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها ... » (الرافعى)

أتراني أستطيع الحديث عن الرافعى العاشق، فأُوفِّىَ القول وأبلغ الغاية ...

وهل يكون لى أن أدعى أنى أكتب فى هذه الصفحات تاريخ الرافعى إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعى العاشق ... ؟

وهل خلتْ فترة فى حياة الرافعى من الحب ؟

ذلك الرجل الذى لايتخيله أكثر من لم يره إلا شيخا معتجر العمامة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرءوا له من بحوث فى الدين وآراء فى التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة فى فهم القرآن مما لايدركه إلا الشيوخ ، بل مما لايدركه الشيوخ .

هذا الذى يكتب عن إعجاز القرآن ، وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ، ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش فى زمانهم وينقل من حديثهم ...

هذا الذى كانت تتصل روحه فيما يكتب ـ من وراء القرون ـ بروح الغزالى ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيَّب ؛ فما تشك فى أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ...

هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلا من التاريخ قد فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقرى ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد . . .

... هذا الرجل ـ كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه .!

إن الحديث عن حب الرافعى لحديث طويل : فما هى حادثة أرويها وأفرغ منها ، وحبيبة ٌ واحدة أصفها وأتحدّث عنها ؛ ولكنها حوادث وحبيبات ، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يُشرق فيه صباح ولم يجن مساء إلا وللرافعى جديدٌ فى الحب : بين غضب ورضا ، ووصل وهجر ، وسلام وخصام ، وعتب ودلال ، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشابَ الرافعى وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شابٌّ فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء . . . !

* * *

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب «الرسالة» وبين الرافعى وأجله عام : هل لك فى موضوع طريف عن الرافعى أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعى فى الحب لحديثا يلذ ويفيد . . .

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك .

قال : ولكنه حديث يُغضبْ الرافعى !

قلت : وعلىّ أنا أن يرضى . . .

وذهبت إلى الرافعى فأفضيت إليه بعزمى . قال : أوتفعلها ؟ أفكان لهذا

مجلسُك منى كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن . . . ؟

قلت : لو أنه كان سرًّا لم يعلمه غيرى ماعقدت العزم على شىء ، ولكنه « سرٌّ » على لسانك إلى كل من تتحدّث إليه ! ...

وما كان للرافعى سرٌّ يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوما وبعض يوم ، فكأنما أذكرتُه - بما قلتُ - بعضَ ما كان ناسيا ؛ فعاد يقول : وماذا تريد أن تقول فى حديثك عن حبى ؟

قلت : حديثا لو همّ غيرى أن يجعل منه مقالا لقرائه لما كان الرافعى هو الرافعى عند من يقرؤه ، ولكن أحسبنى أنا وحدى الذى يستطيع أن يقول إن الرافعى كان يحب فما يغير شيئا من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو عند من يعرفه : إننى أنا وحدى الذى يعرف الحادثة وجوّها وملابساتها وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلى يوم عرفت كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعى يحب ... ثم تكون الفضيحة التى تخشاها وأنت منها طاهر الإزار . . .

واستمع الرافعى إلى حديثى ثم أطرق هنيّة وعاد يسألنى : وهل أقرأ ما تُعِدُّه قبل أن تنشره .

قلت : لك ماتريد .

قال : أنت وشأنك !

* * *

وأجمعت أمرى ، وأعددت فكرى ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية

بطبع « وحى القلم » وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت . . . ومات الرافعى !

فإن يكن فى الحديث عن « الرافعى العاشق » حرجٌ فلا علىّ ؛ فقد استأذنته فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمدًّا من روحه ، راويا من بيانه ؛ ولدىّ شهودى من كتبه ورسائله وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعى قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى لمؤمن شديد الإيمان بأنى ماأزال فى رضاه ومنزلتى عنده ، وإن كان بيننا هـذا البرزخ الذى لاأعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثى !

الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث .

أما الحب الذى أعنيه ـ وكان يعنيه الرافعى ـ فشىء غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل . . .

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، ولـكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السمو والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ، هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالهـا فى الإنسانية السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنور فيه الأفقَ المنيرَ فى جانب من النفس الإنسانية ، هو نُبوّة على قدر أنبيائها : فيها الوحى والإلهام ، وفيها الإسراء إلى الملإ الأعلى على جناحى مَلَـك جميل . . . هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الرافعى ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ماسعى على رجليه ، منطلقا بإرادته ليبحث فى الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أُغلق البابُ من دونه فظل يرسف فى أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب .

وكانت « عصفورة » أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ، وهى فتاة من « كفر الزيات » لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة ؛ فهفا إليها قلبه ، وتحرّك لها خاطره ـ وكان للرافعى فى صدر شبابه على « جسر كفر الزيات » مَغْدًى ومراح ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، وجاشت نفسه بمعانى الشعر .

ومن وَحْى هذا الحب كان أكثر قصائد الرافعى الغزلية فى الجزء الأول من الديوان ؛ ومنه كان ولوعه فى صدر أيامه بلقب شاعر الحُسْن !

وبلغ الرافعى بعصفورة إلى غايته ، واشتهر « شاعرُ الحسن » وترنم العشّاقُ بشعره وما بلغتْ عصفورةُ إلى غايتها ـ ثم مضى كل منهما إلى طريق ، وأتمّ الرافعى طبع ديوانه .. وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ، إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد ـ كذلك انتهى حب الرافعى وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد . . .

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبن من ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلىّ أن الرافعى كان كلما أحسّ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى نتحابّ لأن فى نفسى شعرا أريد أن أنظمه ، أو رسالةً فى الحب أريد أن أكتبها . . . ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن . . . وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

على أن الرافعى كان له إحساس عجيب فى مجالس النساء ! وكان لهن عليه سلطان وله عليهنّ سحر وفتنة . وهو فى هذه المجالس فِكه مداعب رائق النكتة لاتملك السيدة الرَّزَانُ فى مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته فى استمالتهنّ حين يلتمس الوحى أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعرا فى عينٍ ساحرة ، فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشئ وينظم وتنتهى قصة حب .

وكان يسمى كل جميلة « شاعرة » لأنها تمنحه الشعر ، و « الشواعر » عنده طبقات ، على مقدار ما يبعثن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبي وهذه كالبحترى ، وتلك بنت الرومى ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبد الله عفيفى أو شاعر الرعاع ...

وحين يجلس فى الشرفة من قهوة «لمنوس» بطنطا وتمر به الجميلات فى رياضتهن أو فى حاجتهن ، تسمع ثبتا حافلا بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤمّل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أنى وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعى الذى أنشأت هذا الفصل للحديث عنه .

إنها حادثة وقعت فى تاريخ الرافعى وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خالقا جديدا : كانت دعابة من مثل ماقدَّمتُ فأوشكت أن تكون عِلة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف فى قلبه جرحا يَدمَى ، ولكنها كانت بركة فى الأدب وثروة فى العربية .

من تكون هذه الشاعرة التى غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها وما خبرها ؟ ... ...

هو وهى . . . ؟ !

— « لقد وضعك حسنك فى طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس ، ولكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المتثر الوعر إلا لتدق بقلوب المصعدين فيه . . . كونى من شئت أو ماشئت ، خلقا مما يكبر فى صدرك أو مما يكبر فى صدرى ، كونى ثلاثا من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكونى ثلاثة آلام . انفحى نفح العطر الذى يلمس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذى يلمس بالعين ، ولكن دعينى فى جوك وفى نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين . كونى ماأرادت نفسك . ولكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان . . . ! »

(هو)

— « إن أمى ولدت نفسى ونفسى هى ولدتنى ، فلا ترج أن تصيب فى طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب . . . »

(هى)

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرّتين متجاورتين فى طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معا : هى بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوّته وفلسفته . . .

« كانا فى الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه مانشر وطوى منه ماطواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحى للأنبياء ، ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى ؛ فكل ما فى رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه » (١) .

* * *

لم تكن « هى » (٢) أولى حبائبه ولكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلّف وراءه أربعين سنة ونيفاً حافلة بأيام الهناءة ، مشرقةً بذكريات

---

(١) رسائل الأحزان .

(٢) كذلك كان يرسم اسمها ولا يصرح به ، فإذا أبدل القارئ حرفاً بحرف فقد عرف من « هى » ، وقد ماتت « هى » عذراء فى سنة ١٩٤١ - بعد موته بأربع سنين وبضعة أشهر - وكانت خاتمتها مأساة !

الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما فى السن عُمرُ غلام يخطو إلى الشباب (١) .

سعى إلى مجلسها يوم « الثلاثاء » سعى الخلى إلى اللهو والغزل ، يلتمس فى مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها فى كل « ثلاثاء » هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدّث إليها ، وتحدّثت إليه ، وكان كل شىء منها ومما حولها يتحدث فى نفسه . ولمسه الحبُّ لمسة ساحر جعلتْ فى لسانه حديثا ولعينيه حديثا . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه . . . ثم قامت تودّعه إلى الباب وهى تقول : « متى تكون الزيارة الثانية » ؟ . فنهى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... ... !

ووقع من نفسها كما وقعتْ من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛ ومحتْ صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل مَن عَرف ، لتملأ هى نفسَه بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير مُصَيِّفٍ (٢) مشغلةً فى الليل والنهار .

وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه شىء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبتْ إليه ، على أن يكون له عِوضٌ مما فاته يومٌ وحده . . .

كان يحبها حبًّا عنيفا جارفا لا يقف فى سبيله شىء ، ولكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية .

---

(١) أحسب سنها فى ذلك الوقت كانت بضعا وعشرون سنة .

(٢) يزعم الرافعى أن (مصيف) هى تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم وصوابه صفى (بضم ففتح فتضعيف) والرافعى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصا على استعماله لأنها هى رضيته وكانت تتحبب به إليه ... فلا كان سيبويه وأبو على وأبو حيان إن رضيت هى .

لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح، وقد وجدهما، ولكنْ فى نفسه لا فى لسانه وقلمه، وأحسَّ وشَعَر وتنوَّرت نفسُه الآفاق البعيدة، ولكن ليثور بكل ذلك دمُه وتصطرع عواطفُه ولا يجد البيان الذى يصف نفسَه ويبين عن خواطره ...

بلى، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعرُه وبيانه، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعرا وكتابة، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتا، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان.

و «هى» أديبة فيلسوفة شاعرة؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه «من خصائصها أنها لا تُعجب بشىء إعجابها بدقة التعبير الشعرى ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خدَّيها وخلابتها وسحرها، صفاءَ اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة؛ وهذا هو الحب عندها ...»

«... ولا يستخرج عجَبَها شىء كما يعجبها الكلام المفنَّن المشرق المضىء بروح الشعر؛ فهو حلاها وجواهرها؛ ومالسوق حبها من دنانير غيرُ المعانى الذهبية؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد، ولكن خفقةَ قلب على قلب» (١)

☆ ☆ ☆

وكذلك تحابّا؛ وتراءيا قلبا لقلب، وتكاشفا نفسا لنفس، ومضى الحب على سنته، ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون

---

(١) رسائل الأحزان.

أسعد ما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... [1] ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه كلاما وقال لنفسه كلاما آخر ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق ، فلم تكد القصة تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، حتى جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة ...

وراح الرافعي يوما إلى ميعاده . وكان في مجلسها شاعر [2] جلست إليه تحدثه ويحدثها : ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثا بدأته ، وجلس الرافعي مستريبا ينظر : وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوجَ ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه : «ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ...؟» ، فاحمرّ وجهه وغلى دمه ؛ ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ... واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسي حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك في سنة ١٩٢٣ .

وثابت إليه نفسه رويدا رويدا ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان !

---

(١) انظر الفصل الذي عقدناه بعد بعنوان « من شئونه الاجتماعية » فقد أشرنا هنالك إلى بعض وسائله ليستدرجها إلى الرضا به زوجا ، على أنها وقد كانت مسيحية لبنانية الأصل ، وهو المسلم السلفي المتحرج ـ كانت أبعد عنه في عرف الحياة مما يأمل !

(٢) هو المرحوم اسماعيل صبري .

ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، لم يلتقيا وجها لوجه ، إلا مرة ، فى حفل أدبى فى طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فرّ أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر [١] ...

على أنّ الرافعى لم ينس صاحبته قط ، وعاش ماعاش بعد ذلك وما تبرح خاطره لحظة ؛ وما يأنس إلى صديق حتى يتحدّث إليه فيما كان بينه وبين « فلانة » [٢] ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضى ؟ إنها حماقتى وكبريائى ، ليتنى لم أفعل ، ليت . . . ! » . ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لاينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام فى سنة ١٩٣٦ تستشفى فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها فى لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة فى « دمشق » لتزورها فى مستشفاها [٣] وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه [٤] :

« . . . . . . بالصدق يا صديقى أننى كلما استعدت بذاكرتى وصية « فلانة » المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، اعترتنى حالة انقباض شديد وحزن لاحدّ له . . . إنّ الموت فى مثل هذه الحالات ُيعدّ كنزا ثمينا لايحصل عليه إلا السعيد . وإنى

---

(١) كانت مدعوة لتخطب فى المهرجان السنوى لجمعية الإحسان السورية فى طنطا فالتقيا على المسرح ولكن لم يتحدث أحدمنهما إلى صاحبه حديثا إلا أن يكون لحظ الأعين ، على أن الرافعى لم يطق البقاء طويلا بعد ، وخذلته أعصابه ، فآثر الفرار قبل انتهاء الحفل . بل أحسبه آثر الفرار قبل الابتداء ! .

(٢) كذلك نسميها « فلانة » منذ الآن ، ضنا بسرها الذى لم تأذن فى نشره .

(٣) مستشفى العصفورية .

(٤) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوما ، وأحسبه آخر ما جاء من أنباء صاحبته .

أتهمك قانونا . . . بأنك كنت سبب جنونها ، فماذا كان عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنتَ قاسيا وفى منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إنّ المرأة على حق حين تظن ، لا ، بل حين تعتقد أنّ الرجل . . . لا ، السكوت أولى الآن . . . » .

أما هذه « الوصية » التى تشير إليها الكاتبة فى رسالتها ، فلست أعرف ماهى ؛ فلم تقع لى كل رسائل الكاتبة ، ولست أعرف أين كان يخبؤها الرافعى من مكتبه ، ولعل ولده «الدكتور محمد» يدرى ، فإن كان ، فإن عليه حقا للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتى يوم تكون فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته فى البحث الأدبى .

* * *

قلت : إنّ الرافعى قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا فيها إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائلَ لا يحملها ساعى البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها فى ثنايا ماتنشر لهما الصحف من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاما من الكلام فى موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ماتعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول فى حديث أو مقالة أو قصة . هى رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعا وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفى أكثر من مرة والرافعى يملى علىّ مقالاته — كان يستمهلنى برهة ليُعيِّث فى درج مكتبه قليلا فيخرج ورقة أو قصاصة يملى علىّ منها كلاما ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف مايعنيه فأبتسم ويبتسم ، ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتُنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الردّ فى رسالة تكتبها « فلانة » فيتلقاها الرافعى فى صحيفتها كما يفض العاشق

رسالة جاءته فى غلافها مع ساعى البريد من حبيب ناء . . .

هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها ، وأحسب ذلك نوعا من الكبرياء التى ربطتهما قلبا إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجـــد والحنين !

⁂

وكنت أسير مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فلما انتهينا إلى القرب من مبنى جريدة « الأهرام » قال لى : « مِلْ بنا إلى هذا الشارع » ! ، ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ، ولكنى أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف الرافعى معتمدا على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدرى ؟ لعلها الآن خلف هذه النافذة . . . ! »

قلت . « مَنْ » ؟ قال : « هى » ! .

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعا ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »

قال : « لعلها الآن فى السيما . إذا كان الصباح فاغْدُ علىّ مبكرا لنزورها معا ، إن بى حنينا إلى الماضى . . . ليتنى . . . ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيرا بلقياك . . . ! »

قال : « إذن فى الصباح ، وستكون معى ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك على قلبك . . . أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك . . . إنها فاتنة ! »

قلت : « لا إنها عجوز ، فما حاجتى بها . . . ؟ » وضحكتُ مازحا .

فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وَىْ ! عجوز ! إنها أوفر شبابا منك ! »

قلت : « قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ اثنتى عشرة سنة . . . ! »

قال : « صدقت . . . ! اثنتى عشرة سنة . . . ! »

وسكتَ وسكتّ حتى أوصلته إلى دار أخيه على شاطئ النيل عند فم الخليج ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته موعده ! فابتسم ابتسامةهادئة وهو يقول : « يابنىّ ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أمّا (هذه) فأظننى لا أعرفها . . . إنى أحذر على الماضى الجميل أن تتغير صورته فى نفسى . . . بحسبى أنها فى نفسى . . . !

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه النبأ أنها سافرت إلى الشام لعلة فى أعصابها ... !

شعر وفلسفة، وحب وكبرياء

١ ـ « إن فى الرجل شيئا ينقذ المرأة منه وإن ملك حبها ، وإن هدمت عيناها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهما ، وفيه الضمير إذا كان شريفا ، وفيه الدم إذا كان كريما ؛ فوالذى نفسى بيده ، لا تعوذ المرأة بشىء من ذلك ساعة تجن عواطفه وينفر طائر حلمه من صدره ، إلا عاذت ـ والله ـ بمعاذ يحميها ويعصمها ويعد على طهارتها جناح ملك من الملائكة » .

٢ ـ « ... ويسرف على بغضها أحيانا فأتلهف عليها فى زفرات كمعمعة الحريق حين ينطبق مثل الفلك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحيانا فينحط قلبى فى مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نقمة تفجأ وبين عافية تتحول ، وكأنه لا عمل لى إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... ! »

٣ ـ « لقيتها وما أريد الهوى ولا أتعمده قلبى ، ولا أحسب أن فيها أمورا ستئول مآلها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا نفضى إليه ، وما يمكن وقوعه فتمهله فلا ينضى إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومتى استطردك القدر الذى لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر »

٤ ـ « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سلبلى أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفا ، ولو كان دمى من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفا ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التى أشهد لها ... ! »

٥ ـ « ... دعنى أقول لك : إنى أبغض من أحبها ... وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم »

٦ ـ « ... وكما ينشأ الكفر أحيانا من عمل العقل الإنسانى إذا هو تحكم فى الدين ، يأتى البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم فى الحب ! »

(الرافعى)

أترى صوتى يبلغ إليها حيث تقيم بالشام شاردة الخيال مستطارة القلب (١)؟ أم ترى صوتى يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا هذا القدْر من عمر الزمان كأنه من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟

إنه ليخيَّل إلىّ أن هذا الحديث الذى أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب

---

(١) كتب هذا الفصل فى سنة ١٩٣٧ حين كانت فلانة فى الشام تستشفى ، وقد نشرته مجلة « الرسالة » وقتئذ ، ثم نشر فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكانت لم تزل فى الشام تستشفى !

إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذى أحبها أعنف الحب وأرقّه وما تراءى لها مع ذلك فى عمره الطويل إلا الرجلَ القاسىَ الذى حطم قلبها بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة ، فنفذت روحُه من أقطار السماوات تمليها علىّ وفيها المعذرة والاستغفار . . .

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! . . . فهل كنت . . . ؟ ولكن . . . ولكن لا سبيل إلى ما فات . . . !

* * *

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حبا أضلّ نفسَه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح فى مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد فى غمراته خلقا بلا إرادة فليس له من دنياه إلا « هى » ، وليس له من نفسه إلا ماتهب له من نفسه !

والرافعى رجل - كان - له ذات وكبرياء ، فأين يجد من هذا الحب ذاتَه وكبرياءه ؟ هكذا سألته نفسه !

* * *

وأحبها أديبةً فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق فى واديه ، وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق فى آفاق الشعر والحكمة والخيال ، فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنونا من الشعر وشذراتٍ من الفلسفة وقليلا من لغة العشاق فى همس من لغة العيون . . . وقال لها مرة : « إن الحب ياعزيزتى . . . »

قالت : « إن فلسفة الحب . . . »

قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه . . . »

قالت : « دع عنك ياحبيبى . إن أحلام الحب هى شىء غير الحب ، أفأنت تريد . . . ؟ »

فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : «ما الحب ؟ وما فلسفة الحب ؟ ياضيعة المنى إن كان الحب شيئا غير الذى فى نفسى ! »

وتحدث ضميره فى ضميرها فابتسمت وهى تقول : « أنا ما أحببتك رجلا بل فكرا وروحا ونفسا شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسى وملء قلبى ؛ فلا تلتمس فىَّ طباع أنثى وإلا ضلَّ ضلالك أيها الحبيب . . . ! »

قال : « فهل رأيتنى يا حبيبتى إلا فكرة تُطيف أبدا بك ، وروحا ترفرف حواليك ، ونفسا تغترف الشعر والحكمة من وحى عينيك ... ؟ »

قالت : « دع عنك ذكر عينىَّ ياحبيبى ؛ إن الحب ليس هناك ، إن الحب .. »

قال : « لاتحدثينى عن الحب ، يخيل إلىّ أنى أعرفه لأنى أجد مسّه على قلبى كلذع الجمر ، ولكن آه ، ولكنك أنتِ . . . »

وقالت له نفسه : « إنك ياصاحبى تضرب فى بيداء : إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب ؛ فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ فلن تجد بذلك منها الحب ؛ إن الحب من لغة القلب ، أما هذه . . . »

وكان يحبها أديبةً فيلسوفة شاعرة ، فعاديباعدبينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة !

* * *

وهى امرأة كانت ـ إلى أدبها وفلسفتها ـ « فتنة خلفت امرأة ، فإذا نظرتْ إليك نظرتَها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأتِ إلىَّ فأنا آتية إليك ... وهى أبدا تشعر أن فى دمها شيئا لايوصف ولا يسمَّى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ...

«رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ، فإذا تنفستَ أمامها فقد عشقتها ...

« أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة : فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان فى عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع ، فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب وتنظر نظرة الغزال المذعور أُلهِم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزا يتوجس فى كل حركة صائدا يطلبه ... [1] »

والرافعى رجل كان – على دينه وخلقه ومروءته – ضعيفَ السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة ؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة فى النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه ؛ وما كان – رحمه الله – يرى فى شدة الإحساس بالرجولة وفى سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طَرَفى النبوغ ؛ أو أحد طرفى النبوة كما كان يقول ؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها فى نفسه إلا أن يسرع فى الفرار . وكثيرا ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... ! »

وقالت له نفسه : «ما أنت وهذا الحب الذى سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ...!»

فكان لصوت النفس فى أعماقه صدى بعيد ...

☆ ☆ ☆

وكان يحبها ليجد فى حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد فى كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضىء بها فكره ، وكان آخر حبه

---

(١) رسائل الأحزان .

الألم ، وكانت آلامه أول قدْحة من شرار الشعر والحكمة ...

وقالت له نفسه : « ها أنت ذا قد بلغتَ من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لـعَفٌ كريم ... ! » .

☆ ☆ ☆

وهى فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شىء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال فى ساعة فى يوم من كل أسبوع ، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتاتا لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر الشعر وعطر المرأة الجميلة ؛ أفـتراهم يجتمعون فى دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث ؟

والرافعى غيور شموس كثير الأثرة ، لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة وقالت له نفسه : « أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيبا ... ؟ » .

☆ ☆ ☆

وكانت القطيعة بين الرافعى وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أنّ له ذاتا وكبرياء ، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه فى آمرأة ؛ ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب فى قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم فى حبها فوجد ينبوع الشعر الذى كان يفتقد ؛ ومن أجل أنه الرافعى الغيور الظنين الـكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وخُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة فى يناير سنة ١٩٢٤ أنه يبغضها ، وأنّ هذا الحب الذى قطعه عن دنيا الناس عاما بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه

القدر فى مَدْرَجة الفناء ، وأنّ نفسا كانت فى الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...

وأحس فى نفسه حديثا طويلا يريد أن يُفضى به ، وشَعَر كأن فى قلبه ناراً تَلَظّى ، واصطرعت فى نفسه ذكريات وذكريات ، وخُيِّل إليه أنه يكاد يختنق ؛ فصاح من كل ذلك مغيظا محنقا يقول : « أيتها المحبوبة ، إنى أبغضك ... إنى أبغضك أيتها المحبوبة ! » .

ليت شعرى ، أكان الرافعى يعنى مايقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظا متكبّرا من كبريائه العاتية فسماه البغضَ وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شىء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعى صاحبته يوما منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وماهذه الثورة التى ألهمته كتابيه « رسائل الأحزان » ، و « السحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ فى العنوان ؛ فلما ثابت إليه نفسه نزا به الحنين إلى الماضى ولكن كبرياءه وقفت فى سبيله ، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل ينزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوّة إلى حفلةٍ خيرية لتخطب ، وكان الرافعى مدعوًّا لمثل مادعيت له . وعلى غفلة ٱلتقت العيون : فدار رأس الرافعى وذُهب به ؛ وعاد الزمان القهقرى لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالا شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدّث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقا إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودّع صاحبته بعين تختلج ، ومضى . . .

وانتهى الاحتفال ، ووقفت « هى » تدير عينيها فى المكان فما استقرّتا على شىء ؛ ووجدت فى نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعى ؟ » فما وجدت جوابا . . . وكان الرافعى وقتئذ جالسا إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب . . . وكان آخرَ لقاء . . . !

* * *

ولقيتُ الرافعى فى خريف سنة ١٩٣٢ ، فتسرحنا فى الحديث عن الحب ، فكشف لى عن صدره فى عبارات محمومة وكلمات ترتعش ، ثم قال : « . . . وإن صوتا ليهتف بى من الغيب أن الماضى سيعود ، وأننى سألقاها ، وسيكون ذلك فى تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : فى يناير سنة ١٩٣٤ . . . » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهرا سيكون هذا اللقاء . . . إن قلبى يحس ، بل إننى لموقن . . . بعد أربعة عشر شهرا ، فى تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضبا ، سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر . . . ! » وظل على هذا اليقين أشهرا وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد . . . !

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهرا بعدها ، وما تحقق أمله فى اللقاء حتى لقى الله . . . !

* * *

هذا هو الرافعى العاشق ، جلوتُ صورته كما عرفته ؛ أما هى ، أما صاحبته التى كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ؟ وماذا كانت غايته ؟

هى وهو ... ؟!

« أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة لجلسنا مع الجالسين لم تقل شيئا فى أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاق بعد فراق طويل ، كأن فى كلينا قلبا ينتظر قلبا من زمن بعيد ؟

« ... ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ... ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها ؟

« وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ؛ فاذا هو إعجاب ؛ فاذا هو إكبار ؛ فاذا هو حب ؟

« وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفا كأن فيه زيادة لم تزد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... (مى)

* * *

« ... بماذا أصف مكانا للحب كأنما مر به سر الخلود فاذا الوقت فيه لايشبه نقصانا من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت ياحبيبتى كل دقيقة وثانيتها فى مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لابعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بإزاء سر وضعنى فى ساعة من غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك ...

« وهاجتنى من يقظتى واقتحمت على من حذرى ...

« وخليتنى وعينيك ، وخليتنى وما كتب على ...

« واتسعت روحى لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولاتخطرين فى غرفتك ولكن فى داخل نفسى ...

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضا من حيث لايراها إلا عيناى وعيناك .

« وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر .

« وقلت لى بجملتك : أنا ... وقلت لك بجملتى : وأنا ... » (هو)

إنى لأعرفه عرفانى بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطنى بنفسه زمنا فإنى لأسمع نجواه وأقرأ سره وأعرف ذات صدره ، فما أصف من حبه إلا مستيقنا كأنما أنقل عن لوح مسطور فى فؤادى ، أو أُثبت من حادثة فى تاريخ أيامى ماثلة فى نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها شىء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القرّاء فى بيان سافر كإشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هى ...

أما هى فما فى يدى شىء من خبرها إلا ماحدّثنى به الرافعى أو حدّثتنى رسائله ، فما أتحدّث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققا يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس فى يده من حقيقته شىء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأى وملابسات الحادثة .

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قرّاء العربية وأعرفها عرفانهم ، وحسبى هذا مقدمات إلى النتيجة ؛ وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره .

* * *

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلبا إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرّهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه ، فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدّثت عن أحلامها وتحدّث عن أحلامه . فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هى فى

المستشفى تتمرض من وهن فى أعصابها !

* * *

لم تكن « هى » تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذى تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبته (عقلاً جميلاً) كما تسميه فى بعض رسائلها . . .

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعرُ والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعرا وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيدهى به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ماعجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان ، هكذا تقول فى بعض رسائلها . . .

* * *

وهى فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت غرضا لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تُضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍّ همين ، وإن حواليها لكثيرا من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذى يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه أكثر مما تريد الصديق الذى لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبّب واصطناع الهوى والغرام . . . وتحدث إليها الرافعى وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها ، فاخضلّتْ عيناه وأطرق ، فوضعت يدها على يده وهى تقول :

« سأدعوك أبى وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك

قومى وعشيرتى ؛ أنا التى أعلم أنّ هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ؛ وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لاأخ لى ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة أنا التى تتخيّل فىّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت لاتدرى . . . ! » [١].

وأحبته (صديقا) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبتها الهموم . . .

٭ ٭ ٭

وهى الفتاة التى لم تعرف فى حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجدّ الصارم ؛ ولم يكن لها من عمل غير الاستغراق فى الفكر ، أو الاستغراق فى الفنّ ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة . . .

والرافعى رجل ـ كان ـ لايحمل من هم ، فما يدع المزاح والدعابة وإن الدنيا لتصطرع حواليه وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل فى أجدّ الجدّ وأحرج الساعات هَزْلَه فى أصفى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه . . .

وتحدّث إليها وتحدّثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذى تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه . . .

٭ ٭ ٭

واستمعت إلى صوته يتحدّث ، فكان له فى نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته

---

(١) ما بين القوسين « » من عبارتها فى بعض رسائلها ، وقد ضمنتها بعض ما يتداوله القراء من كتبها ، ونشرها الرافعى فى بعض فصول كتابه « أوراق الورد »

العبكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ، ولحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاه الرجال : ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت : وتركها وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها : وأحست في نفسها إحساساً ليس لها به عهد : فتناولت قلمها لتكتب له [١] :

« سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكايةَ البشر المتجمعة في فرد واحد : وسأتسمع إلى جميع الأصوات التي أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك . . . وسأبتسم في المرآة ابتساماتك .

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك . . .

« سأتخيل ألفَ ألفِ مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل . . .

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخورا ، لأنك أوحيت إليّ ما عجز دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم ! أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم . . . ! » .

* * *

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذي فجر لها ينبوع

---

(١) من الرسالة التي أشرنا إليها في الصفحة السابقة .

الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذى وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافا إلى الرفيق الأنيس الذى كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حبا يستأثر بنفسها ويسيطر عليها فى غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلّها الهوى وأضله ؛ وخُيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع محلا لو أنها منعته بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع ؛ وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفتْ إلا من بعدُ أنه يحبها حبا لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعدُ أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجرأ مما كان ...

وعرف وعرفتْ ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر ؛ وظلّ وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء ...

تعقيب (1)

... هذه قصة الرافعى وفلانة ، كما رواها لى ، وكما يعرفها كثير من خاصته .

وإنى لأعلم أن كثيرا ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ، وسيقول قائل ، وسيدعى مدّع ، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل ؛ ولا علىَّ من كل أولئك ما دمت أروى القصة التى أعرفها ، والتى كان لها فى حياة الرافعى الأدبية تأثير أىُّ تأثير يُرَدُّ إليه أكثر أدبه من بعد . وحسبه أنه كان الوحى الذى استمدّ منه الرافعى فلسفة الحب والجمال فى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد : وحسبي أنى قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد !

على أنى مسئول أن أبرئ نفسى أمام قدس الحق ؛ فأعترف هنا بأن ما رويت من هذه القصة كان مصدره الرافعى نفسه ؛ مما حدّثنى به وحدّث أصحابه ، أو مما جاء فى رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته ؛ وما بى شك فيما روى من هذا الحديث ، فما جربت عليه الكذب ، ولا كان هناك ما يدعوه إلى الاختراع والتزيد كما يزعم من يزعم ؛ ولكنها حقيقة أُثبتها للتاريخ ، لعل باحثا مدققا يوفَّق فى غد إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له .

على أن الرافعى قد أقرأنى رسالة أو رسالتين بخط «فلانة» إليه ؛ وهما وإن

---

(1) نشرنا هذه الفصول فى مجلة « الرسالة » قبل أن نذيعها على القراء فى كتاب ، وقد تناولها بعض القراء بكثير من الشك وغير قليل من الدهشة ، وكتب أدباء فى مصر والشام وبغداد يحاولون التشكيك فى بعض ما أذعت من الحقائق أو يحاولون التعليل لها وتحدث إلى آخرون معقبين أو مستفسرين ، فلهؤلاء وأولئك جميعا كتبت هذا التعقيب

لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ، لا تنفيانها كذلك ، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفى ؛ والحذر طبيعة المرأة !

ثم إن الرافعى لم يخصَّنى وحدى برواية هذه الحادثة ؛ فإن عشرات من الأدباء فى مصر قد سمعوها منه ، ومنهم من يعرف «فلانة» معرفة الرأى والنظر ، ومنهم من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة ؛ ومنهم من كان الرافعى يقصد بالحديث إليه أن يكون بريدا بينهما ينقل إليها حديثه شفةً إلى شفة . وفى الناس بُرُدٌ إن لم تزد على ما سمعتْ من حديث الحب لم تنقص منه شيئا ! فلو أن الرافعى كان يتزيّد فيما روى لى ولأصحابى من حديث هذا الحب لخشى مغبّة أمره ؛ وإن « فلانة » يومئذ ذات جاه وسلطان !

وثمة برهان آخر لا يتناوله الشك : هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعى من كتاب من كتبها المعروفة لا أسميه ، إلى كتابه أوراق الورد [1] ؛ يزعم أنها رسالة منها إليه فى كتاب ، جوابا على رسالة بعث بها إليها ـ وكانت هذه بعضَ وسائلهما فى المراسلة كما رويتُ من قبل [2] ـ وأوراق الورد معروف مشهور ؛ وكتابها معروف مشهور كذلك ؛ ومما لا يحتمل الشك أن تكون « فلانة » لم تقرأ هذه الرسالة فى كتاب الرافعى ولم ينبهها أحد إليها ، وأبعد منه فى الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك فى كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعى ؛ ولا شىء وراء ذلك إلا أن تكون قرأتْ ، وفهمتْ ، وسكتتْ ؛ ولا شىء بعدُ إلا أن يكون بينهما شىء يؤيد ما رواه الرافعى من قصة هذا الحب ... !

---

(١) أوراق الورد ص ١٤٣ - ١٥٠ ؛ وتقرأ فقرات منها فى هذا الكتاب قد أشرنا فيه إلى موضعها ص ١١٦ - ١١٨

(٢) ص ١٠٤ - ١٠٥ من هذا الكتاب

* * *

على أن اعتراضات ثلاثة توجهتْ إلى ما رويتُ من هذه القصة ، لابد من التنبيه إليها : أما أحدها فمن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ؛ فهو ينكر عليّ أن أستند إلى هذه الرواية ، ويروى لى أنه صحب الرافعى فى أولى زياراته لفلانة ، وشهد ما كان من تأثر الرافعى وانفعاله وجذْبته ؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعى وفلانة صلة بعد هذه الزّورة ، ويصحح ما رويته عن الرافعى ـ وكان من سامعيه ـ بأنه حبٌّ من طرَف واحد ، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشُبّه للرافعى ما شبّه : فما يحكيه هو صورة مافى نفسه لاصورة ما كان فى الحقيقة ... !

فالرافعى عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر ؛ وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعى وفلانة بعد الزّورة الأولى لاينفى أن الصلة كانت حقيقة ولم يعلم بها ؛ فحديثه من ثَمَّ لاينفى شيئا ولا يثبته ، ويبقى بعد ذلك ما يُستنبط من الرأى على هامش القصة .

وقريب مما يرويه الأستاذ جورج ، ما تستنبطه جريدة المكشوف فى بيروت فى حديث تناولت به بعض مانشرنا من قصة حب الرافعى .

* * *

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف ـ محرر المقتطف ـ على ما رويناه ، قال :

« لقد سمعت هذه القصة من الرافعى كما رويتَها ؛ فما أشك فى صحة ما تكتب ، ولكنى أسأل : هل كانت « فلانة » تبادل الرافعى الحب ... ؟

« هاك خبرا يدعوك معى إلى هذا السؤال :

« فى يناير من سنة ١٩٣٤ -أو ١٩٣٥- دعتنى « فلانة » إلى مقابلتها ؛ فلما شخصت إليها رأيت فى وجهها لونا من الغضب ، فدفعتْ إلىّ رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعى إليها لأرى رأيى فيهما ؛ ثم قالت : ماذا ترانى أفعل لأذود عن نفسى ؟ أترانى أتقدم فى ذلك إلى القضاء ؟

قال الأستاذ صروف : «فاعتصمت بالصمت من لا ونعم ، وتركتُ لها أن تستشير غيرى ؛ ولست أدرى ما كان بعد ذلك ! » .

قلت : وهذه رواية جديرة بأن تُذكر - ومعذرة من ذِكرها إلى الأستاذ صروف - على أنها لا تدل على شىء فى هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها فى سنة ١٩٣٤ أن يتحبّب إليها الرافعى ؛ فماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين ؟

أيكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدّث عنهما الأستاذ صروف - صلة بما كان فى نفس الرافعى من يقين بأنه سوف يلقى فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة (١) .

أعنى : هل حاول الرافعى - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلبا يستجيب لدعائه ؟

على أن هذا الخبر - أيضا - لا ينفى شيئا ولا يثبته ؛ ولكنه يفتح بابا إلى الاستنباط والرأى .

ولكن مما لا شك فيه أن الرافعى لم يكن يعلم شيئا عن وقع هاتين الرسالتين

---

(١) اقرأ ص ١١٣ من هذا الكتاب .

فى نفس صاحبته : ولا أحسبها صنعتْ شيئا يدل على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين . وإلا لما ظل يتعلق بالأمل فى لقائها إلى شتاء ١٩٣٥ ، وكنتُ معه لما همّ بزيارتها[١] .

* *

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكى مبارك . وما كان لى أن أثبته هنا لولا أن أثبته هو فى كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب[٢] ، ولولا أن أشار إليه فى مقالات نشرها فى مصر وفى العراق وفى بيروت !

والدكتور زكى مبارك أديب مشهور ، ولكن آفته — ولكل أديب آفة — أنه يدس أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه : وهو قد شاء أن يحشر نفسه فى هذه القصة التى لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس — والإعلان عن نفسه بعض خصائصه الأدبية — أنه كان يجلس إلى « فلانة » جنبا لجنب فى الجامعة المصرية بضع سنين !

وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زكى مبارك جنبا لجنب إلى فلانة أو إلى نساء الأرض جميعا — كما يريد أن يتعالم عنه الناس فى أكثر ما يكتب — ولكنه يزعم أن ما كتبناه عما كان بين الرافعى وفلانة ليس من الحقيقة فى شىء ، لأنه كان يجلس مع فلانة جنبا إلى جنب فى الجامعة بضع سنين فلم تحدّثه يوما أن حبًا كان بينها وبين الرافعى . . . . . !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة فى أدب الدكتور زكى مبارك ، فليقرأ هذه الحجة ؛ على شرط أن يكون مؤمنا بأن الدكتور زكى مبارك لايجلس

---

(١) انظر ص ١٠٥ — ١٠٦ من هذا الكتاب .

(٢) كتاب « وحى بغداد » للدكتور زكى مبارك .

إلى (فلاناتٍ) ولا يجلس إليه (فلاناتٌ) إلا ليحدثنه عما كان لهن من جولات في ميادين الحب يسألنه الرأى والمعونة !

وليدع القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن العُرى والعراة ، وعن «الأديب العريان ...» الذى روى هذه القصة .

وعفا الله عن أهل الأدب !

٭ ٭ ٭

هذا كل ماتلقيت من اعتراض المعترضين من أهل الأدب أو من أهل الدعوى ؛ وعلى أيّ الوجوه انتهى رأى الأدباء فى تحقيق هذه القصة ، فإن مما لاشك فيه أن الرافعى كان يحب « فلانة » ؛ وهذا حسبى ؛ فما يعنينى من هذا التاريخ إلا إثبات المؤثرات التى كانت تعمل فى نفس الرافعى فتلهمه الشعر والبيان ؛ أما هى وما كان منها وحقيقة عواطفها ، فشىء يتصل بتاريخها هى بعد عمر مديد !

ونعود إلى تتمة القصة بالحديث عن كتب الرافعى فى فلسفة الجمال والحب ؛

رسائل الأحزان

« هي رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة مضيا إلى قبر ... ! »

الرافعى

خرج الرافعى من مجلس صاحبته مغضباً على ما روينا : فى نفسه ثورة تَأَجّ، وفى أعراقه دم يفور . وفى رأسه مرجل يتلهب : وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعى البريد . ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوءا لفكره ، ولا راحة فى أعصابه : وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه فى حاجة إلى من يتحدث إليه : وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحدا يبثه أحزانه ويفضى إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاما بحاله لا يلقاهم، ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون : فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه ، بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه ؛ وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه ، ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من «رسائل الأحزان » إلى صديقه الذى خصه بسره ... إلى نفسه ...

وترادفت رسائله من بعدُ مسهبةً ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، فى أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و ... وذلة المحب المفتون يستجدى فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان .

بدأ الرافعى كتابة « رسائل الأحزان » فى يناير سنة ١٩٢٤ ، وانتهى منه فى مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤ .

* * *

يخاطب الرافعى نفسه فى « رسائل الأحزان » على أسلوب « التجريد » فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجِّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفا من الرسائل يدير عليها أسلوبا من الحديث فى رسائله هو ، وماهناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعى ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أو قل : إن الرافعى فى هذه الرسائل جعل شيئا مكان شيء ، فأنشأ هـذه الرسائل إلى صاحبته ثم نشرها كتابا تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهى رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

وفى بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين مايريد إعلانه ، وتقف النفس وقفتها الأليمة بين نداء القلب وكبرياء الخلُق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته : «إنه يحبك» يعنى : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذا الأسلوب تحدث الرافعى عن نفسه بضمير الغائب فى رسائل الأحزان .

« أنا ... » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ فى نبره معنى شموخ الأنف ، وصَعَر الخد ، وكبرياء الخلُق ؛ لا يؤدى فى لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم .. ! »

يا عجبا للحب ! كل شىء فيه يحول عن حقيقته حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعى يقول فى رسائل الأحزان : « هو » ويعنى : « أنا ... » لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه فى لغة الحب ... ... !

* * *

إننى أحسب الرافعى لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتابا يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأه هى ، وهى كل حسْبه من القرّاء ؛ فمن ذلك لم يجرِ فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقرّاء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ؛ وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر .

ولم يكتبها ـ كما يزعم ـ رسائلَ أدبية عامة تتم بها العربية تمامها فى فنٍ من فنون الرسائل لم يُؤثَر مثلُه فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شىء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قرّاء العربية شيئا من البيان

المصنوع تكلّفه كاتبُه يحاول به أن يستحدث فنًّا فى العربية لم يوفق إلى تجويده على أنه كتاب فريد فى العربية فى أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقيةٌ قصةٍ لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتابا من عيون الكتب فما تُبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وصُلْب الكتاب رمادٌ فى بقايا النار . . .

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعى قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئا كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعى أنشأ فى العربية أدبا يستحق الخلود .

* * *

قلت : إن الرافعى أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هى ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التى قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردَّت صاحبته ردَّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثتْ بها إليه مع بائع الصحف والمجلات . . . ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب . . . !

وسيأتى يوم يُدرس فيه أدب فلانة صاحبة الرافعى ، وسيجد الباحثون يومئذ لونا لذيذا من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه فى بعض كتبها ومقالاتها ؛ وليس بعيدا أن يقرأ الأدباء يومئذ كتابا جديدا بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسةً مما نَشر ونشرتْ فى الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنتى ١٩٢٤ و ١٩٣٦ .

أيها الباحث الذى سيأتى أوانه ، ابحث عن حَشْو القول وفضول الكلام

فى مقالاتها ومقالاته ، واقرِن تاريخا إلى تاريخ وسببا بسبب ، لتنشر لنا رسائلها ورسائله فى كتاب . . .

* * *

أرانى لم أتحدث عن « رسائل الأحزان » كما يتحدث كاتب من الكتّاب عن كتاب من الكتب ، فليس هذا إلىّ ، وإنما قدمتُ وسائل القول لمن يريد أن يقول ؛ وأحسب أن كلاما سيقال عن رسائل الأحزان من بعدُ غيرَ ما كان يقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين لن يكرّر مقالته التى قالها فيه من قبل ، يوم أشهدَ الله على أنه لم يفهم منه حرفا ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمى لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتى من أوربا ... » لأنه سيجد مجالاً للقول فى غير معانيه وبيانه .

* * *

ولكنّ فى رسائل الأحزان شيئا غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن الرافعى ـ رحمه الله ـ كان ولوعا بأن يضيف إلى كل شىء شيئا من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته فى الاستطراد عند أكثر ما يكتب .

سيجد الباحث فى رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفى هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاما وشعرا لا يتساوق مع القصة التى رَويت ؛ إلا أن الرافعى كانت تغلبه طبيعته الفنية فى الكتابة أحيانا فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول ، ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التى يرويها أشبه ، أو لأن تعبيرا جميلاً وجد موضعه الفنى من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة ، فإن رأى الباحث شيئا من ذلك فلا يداخله الريب فيما أثبتّ من الحقيقة التى أرويها كما أعرفها .

وسيجد فى بعض الرسائل حديثا وشعرا عن لبنان وأيام فى لبنان ؛ وما عرف الرافعى صاحبته إلا فى مصر وإن كان مولدها هناك . فليذكر من يريد أن يعلم ، أن صاحبة الرافعى هذه لم تكن هى أولى حبائبه ، وقد كان له قبل أن يعرفها فى الغرام جوَلان . وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها فى لبنان ، وهى سمية صاحبتنا هذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعى بعضها فى «أوراق الورد» وهى التى أنشأ من أجلها كتابه «حديث القمر» ، على أن عمر الحب لم يَطُل بينهما ، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك ـ وما تزال ـ فما جاء فى رسائل الأحزان من حديث لبنان وذِكر أيامٍ هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة «حديث القمر» أقحمه فى رسائله حرصا عليه وبخلا به على الضياع .

* * *

لقد كان حب الرافعى الأخير حادثة فى أيامه فعاد حديثا فى فكره . ورسائل الأحزان هى أول ما أنشأ من وحى هذا الحب ، على أن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألحَّ عليه الحب ، أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه . والحق أن الرافعى أنشأه وهو من الحب فى عمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب ، بغضا يردُّ عليه كبرياءه وينتقم له ؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه فى أسلوب صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها فى عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه فى عنف وما بها إلا الترفق والحنان ... !

وطبع الرافعى كتابه وأنفذه إلى صاحبته ، فكتبت إليه . . . وثارت ثورة الرافعى مرة ثانية فأصدر «السحاب الأحمر» .

السحاب الأحمر

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة ، إذ هو قتال روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس ، متحابان تباغضا ... » الرافعي

تُرى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأتْ رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدْأتها وردَّته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « ياهذه لا أدرى ماتقولين ؛ ولكن الحقيقة التى أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها فى حاجة إلى أن يُغسل بالماء والصابون وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

مَن لى بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان فى نفسها وما ردّتْ به ؟

إنه يتحدث فى السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذى لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر فى الحب ، وفساد الرأى فى الهوى ، وطيش القلب فى الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة فى تاريخ هذا الحب ، فلست أدّعى المعرفة ، ولقد كنت مع الرافعى مرة فى مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لى بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبنى عن سؤال يكشف عن شىء من خبرها ومن خبره : فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فىَّ طويلا ثم سكت وسبحتْ خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نِصابه بين عينىَّ والمصباح ...؟ » ثم دس يده فى درج المكتب فأخرجه ودفعه إلىَّ وهو يقول : « ضع النصاب

بين عينيك والمصباح وانظر ، ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأنّ قلباً جريحاً ينزف.؟ فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر تقرؤها فى السحاب الأحمر ... ».

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أنّ الرافعى حين أنشأ السحاب الأحمر كان فى حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدّث عن خبرها فى شىء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافعى رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدّث فيها عن حبه وآلامه ، ولست أشك أنّ صاحبته حين تأدّتْ إليها رسائله قد فهمت مايعنيه وعرفتْ ذات صدره ، وأحسبها ـ وهى الأديبة الشاعرة ـ قد سرّها أن تكون هى فَلَك الوحى لما فى رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أنْ تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... ؟

على كل أن مافيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أنّ قلباً وقع فى أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إننى أُبغضك

أيتها... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأى فى بلواه، كذلك فزع الرافعى فى السحاب الأحمر، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره. فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين، وهذا صفيُّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعى، وذلك أستاذه ومثله العالى فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وهذه أمٌّ ضل ولداها الحبيبان، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن؛ وهذا، وهذه، وتلك يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين، وفى رأى القلب، وفى رأى العقل، ويحدثهم حديثه... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه، ثم لا تكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه.

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها: ذلك أن نسقه العجيب، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته.

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر، يتحدث الرافعى عن فتاة «عرفها قديماً فى ربوة من لبنان، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف!» وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه «حديث القمر»، وإنك لتقرأ حديثه عنها، ووصفَه لها، وما كان من أثرها فى نفسه؛ فتسأل نفسك: أى شىء ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت! فلا تلبث أن تجد

الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل . . .

« إن من المرأة ما يُحَبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر . . . » .

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يشبع منه بلا أكل . . . ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة » ليقول لهذه : إن تلك كانت خيرا منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبريائه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى . . .

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول . تتمّ آمالُنا حين لا نؤمل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئا فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحب ولا تُبغض ، وأشأمهنّ على الناس من إذا عدّتْ مبغضيها لا تَعُدّ إلا الذين أحبوها . . . ! » ، وإننى لأعرف

الرافعي وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أُحبك يا أشأم النساء ! ؟ » .

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره   لسوف تذكرنا يوما ونَنساكا
إن الظلام الذى يجلوك ياقمرٌ   له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدّث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أى خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعي يتحدّث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتها بمسِّ الفناء لأن أرواحا أخرى فارقتها ؛ ففى الموت يُمسّ وجودنا ليتحطم ، وفى الفراق يمس ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، وهو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت . . .

« ترى العمر يتسلسل يوما فيوما ولا نشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نبّه القلبُ فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجارٌ كتطاير عدة سنين من الحياة . . . » .

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب(١) ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدّث عن حب الأم فى قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم آهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خُلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُفنى عدادَ أوراقها ليالىَ وأياما . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ، ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة ...

« ... لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها ...

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حينا ، ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأمّ أحيانا ! »

* * *

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور حسين الهراوى ، وكان فى صدر شبابه ـ كأكثر واردات أوربا ـ زيفا فى الدين ، وزيفا فى الخلق ، وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الإسلام وفى الرد على جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين .

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس هو كل ما فى الحياة من لذة ومتاع ، فى كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعا دائما بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان ، وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر .

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ، وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته . فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه . وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدّر ، وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فماذا أصبحت زُعاقا لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ، ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »

* * *

قلت فى الفصل السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شىء

من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنا فى العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه ... ...

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلا أو فصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فنًّا فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرّدْهُ من قصته أو انسبه إليها ، فإنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة مازال الأدباء يدورون عليهما حتى وجدوهما فى أدب الرافعى .

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه ؛ وفى السحاب الأحمر حاول أن يُشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال وما له عندها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أفتراه فى السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى ! .

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويورّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلى على متـــدلّـل ما تنقضى عنى فنونهْ
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا دى لا تفارقنى عيونهْ ؟!

يرحمك الله يا صديقى !

أوراق الورد

« ... إنه ليس معى إلا ظلالها . ولكنها ظلال حية تروح وتجىء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كائن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجما إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرى .

« كان لها فى نفسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ، ثم خضوعى لها خضوعا لا ينفعنى ... فبدلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها الخيالى خضوعا لا يضرها .

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحب ...

« كلما ابتعدت فى صدها خطوتين رجع إلى صوابى خطوه .

« لقد أصبحت أرى ألين العطف فى أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضا ، ولن يحسن عندى ما لا يحسن ، ولن أطلب الحب إلا فى عصيان الحب ، أريدها غضبى ، فهذا جمال يلائم طبيعتى الشديدة ، وحب يناسب كبريائى . ودع جرحى يترشش دما ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر المضل وشوك المخلب ، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شىء على الألم ...

« أريدها لا تعرفنى ولا أعرفها ، لا من شىء إلا لأنها تعرفنى وأعرفها ... تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتى . صمت ضائع كالعبث ولكن له فى القلبين عمل كلام طويل ... »

(الرافعى)

هدأت ثائرة الرافعى هونا ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء فى عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضى ، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان ؛ وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعدُ بالشعر والحكمة والبيان .

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه فى خلوته وتداعبه فى أحلامه ، والأمانىّ التى بعثرتها الكبرياء بَدَدا فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة

تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام . وأتمّ نظم قصيدته البارعة فى « أوراق الورد » سنة ١٩٣١ .

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحب والجمال ، أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخا من تاريخه ، فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخا ولا من بعد .

ويقول الرافعى إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ؟ إلا رسالة واحدة وجُزازات من كتب ونتفا من حديثها وحديثه .

بلى ، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هى من الرسائل التى كان يناجيها بها فى خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى ، ويترسَّل بها إلى طيفها فى جلوة الأحلام ، إلا رسالتين أو ثلاثا مما فى أوراق الورد . . . فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

* * *

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى « فلانة » وليست كل رسائله فى الكتاب إليها ؛ فهنالك الأخرى ، هنالك صاحبة « حديث القمر » ، تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معانى الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحيها معانى الكبرياء والصدّ والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته « فلانة » كان قلبه فى أثنائها خالصا لها ، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتابا للفن أولا ثم لها من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى يعشقها وما زال متيّما فى هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكّر وعقل الأديب وحيلة الفنان .

بلى ، إنه كان يحبها حبا لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها ، فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعا ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجدّ على خواطره من بعدُ فى معانى الحب والبغض والودّ والقطيعة .

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب ؛ ثم يصوّر فنه وبيانه فى لغة الحب ؛ ثم . . . ثم لا يصوّر شيئا من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء .

فما رأيتَ من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلّل والاستعطاف ، وفيها تصنُّع الغضب ودعوى الكبرياء ،وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيتَ من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدّى أداءه فى قصة هذا الحب العجيب .

وما قرأتَ من رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى

النظرة وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ، فهو ذكرى من الماضي البعيد ؛ وكان حبا فى القلب فصار حديثا فى الفكر ، ثم استتبع شيئًا شيئًا

وما قرأتَ من قول مزوّق ، وبيان منمّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفنّ وولادة الفكر .

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثةٌ وذكرى ، أو فنٌ من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة فى قَرَن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع .

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ، وخرجت منه بشيء .

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدّث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعى ، وإحاطة هى إحاطته ، وسعة اطّلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هى باب فى الأدب العَربى لم يُنسج على منواله ولم يكتب مثله ، تُذكّر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابة « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب . . .

وتأتى بعد هذا الفصل مقدّمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو شيء مما كان بينه وبين صاحبته . يقول إنه كان فى مجلسها يوما ومعها وردة ؛ فأخذت تحدّثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له احذر أن تجعل حظك من الوردة أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة

البنان ، واحذر فى الحب . . . قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتِها رقيقة نادية فى صدرى ، ولكن على معان فى القلب كأشواكها . . . فاستضحكت وقالت : فإذا كتبتَ يوما معانى الأشواك فسمِّها أوراق الورد . . . وكذلك سَمَّاها » .

ويمضى فى هذه المقدمة يتحدّث عن حبه ، وآلامه فى الحب ، ورأيه فى الحب ، وشىء مما كان بينه وبينها ، ثم يتحدّث عن نهجه فى هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ فى أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم .

ثم تأتى بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحتُ طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى ، وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها . . .

* * *

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب فى رسائل لم يجد شيئا ، ومن أراده رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئا ، ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئا ؛ ومن أراده نموذجا من الرسائل يحتذيه فى رسائله إلى من يحب لم يجد شيئا ؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليه فى الرضى والغضب ، ويتحدّث بأمانيه على حاليه فى الحب والسلوان — وجد كل شىء .

وهو فى الفن فنٌ وحده ، لا تجد فى بيانه ومعانيه ضريبا له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب ؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب ، لايعرف قراءه فى العربية . وكم قارئٌ استهواه عنوان الكتاب وموضوعُه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضى فيه صفحات قليلة

حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه . . .
وكم قارئ كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر العنيف فى حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ « أوراق الورد » عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

وكم وكم . . . ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية وإن كان فى مكتباتهم ، لأن القارئ الذى يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم فى المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضمّ فكرا إلى فكره لا ليتسلى ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قرّاء ... !

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده . . .

أرأيت إلى المنْجم الذى يمتدّ فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه كنز ، ولكن مَنْذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجلَ الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر .

إن أوراق الورد مَنْجم من المعانى الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان .

وكان الرافعى ـ رحمه الله ـ يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ، ويباهى ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّى عن صاحبته بقليل إذ تعزّى

بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد . وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلَّقته العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلَّف بين يديها بَضْعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشىء منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير ؛ وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتتْ من يده ولكنها خلفتْ ذكراها معه ، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معانىَ وكلمات فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

يرحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حيا ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ...

يرحمه الله !

فى النقد

الرافعى وطه حسين ــ تحت راية القرآن ــ كليلة ودمنة ــ شاعر الملك ــ الرافعى والأب أنستاس ماري ــ الرافعى وعبد الله عفيفى ــ الرافعى والعقاد ــ على السفود ــ وحى الأربعين

سأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن شىء مما كان بين الرافعى وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإنى منه لفى حرج شديد ؛ لقد مات الرافعى ولكنه خلف وراءه صدى بعيدا مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية : فما أحد منهم إلا له عنده ثأر وفى صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة : ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعى الرافعى وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلا واحدا كتب برقية إلى ولده ، هو الدكتور طه حسين بك : فلا جرم كان بذلك أنزه خصوم الرافعى وأعرفهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعى دنياه ؛ فهل رأيتَ أحدا منهم كتب شيئا عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التى تألفت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحدا من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعى ، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع فى مدرجة النسيان . . ؟

ليت شعرى أكان الرافعى من الهوان فى المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربى ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع لجنة التأبين وتنفضّ وتحدد الموعد لحفلتها ثلاث مرات ثم لاتجد من

يتقدم إليها ليقول فى تأبين الرافعى ، فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ...
حتى إذا مضى العام فاحتفلت فلسطين ، واحتفلت سوريا ، واحتفل العراق ، واحتفل العرب فى المهاجَر من وراء البحار بذكرى الرافعى ؛ أقامت لجنة التأبين فى مصر حفلتها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغى أن تكون ؛ تحرُّجا من التهمة بالعقوق ونكران الجميل !

ولكنه هو ـ يرحمه الله ـ الذى ألَّب على نفسه هذه العداوات حيًّا وميتا ، لقد كان ناقدا عنيفا حديد اللسان ، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب فى نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شىء قائم كالأساس والبناء : لا منفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا » . وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها فى اللغة » ... فكان بذلك كله ناقدا عنيفا ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع !

اقرأ له فى أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه ، فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ؛ ونحن نَرُدُّ على هذا وعلى هذا بردٍّ سواء ، لا جهلُنا من نجهله يلطِّف منه ، ولا معرفتنا مَنْ نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان فى أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ؛ فما ذلك أردنا ؛ ولكنا كالذى يصف الرجل الضال ليمنع المهتدىَ أن يضل ، فما به زَجْر الأول بل عظة الثانى ... » .

وأول ما أعرف للرافعى فى النقد ، مقاله فى « الثريا » عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥ [١] ؛ ثم مقاله فى الرد على المرحوم المنفلوطى فى المنبر ، وكان

---

(١) انظر ص ٥٢ من هذا الكتاب .

نشر مقالا يعارض به رأى الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول : « قد وكلت أمر تأديبه إليك ! » .

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها فى سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ (١) ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتى البيان والزهراء (١) ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ (١) فى السياسة الأسبوعية : فكان هذا أولَ ما بينهما ؛ ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد . وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك : إلى ما لاينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره .

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه ، وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرَّخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرّخون بأيامهم ...

وإنى لأشعر أنّ علىّ واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإنى لأشعر بجانب ذلك أنى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع .

إن كل ماتناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا علىّ مادمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت مافعلتْ بالرافعى شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم

---

(١) المعركة تحت راية القرآن .

أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه العداوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىَّ نفسى ... !

ولكن . . . ولكن مَن عَذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن . . . ولكن ماأنا إلاراوية يكتب مارآه لامارتآه . ولكن ... ولكنّ فلاناً وفلاناً اليومَ أناسىّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى مَحْوٍ فيه أو إثبات ولكن ... ولكن الندم على ما كان لايمحو من تاريخ الإنسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ؛ فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فإنى على الأهبة لأن أطوى من هذا الحديث ماقد يغضب أو يسوء . . .

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ؛ فإن كان من حق أحد أن يعتب علىّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئا ، وما لى عندهم حاجة ولا لهم علىّ يد ؛ فليغضب مَن يغضب للحق أو لنفسه فلا علىّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعي وطه

في سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هي صحيفة الأدب والثقافة : وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين في الأدب وفي السياسة معا : ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شيء يثير ثائرة في الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكن إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة . . .

كان طه حسين في سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق في الجامعة المصرية ، وكان الرافعي الشاعر ماضيا في الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهبا غير الشعر : فلما نشر مقاليه المشهورين في « الجريدة » ينقد بهما أساليب الأدب في الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب في سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الراوية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة فنفس على الرافعي أن يؤلف كتابا في تاريخ آداب العرب ، فكتب ينقده ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقرر هذا المعنى ثانية في نقد « حديث القمر » وثالثةً في « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعي كان يطمع في أن يكون إليه تدريس الأدب في الجامعة منذ أُنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه في مقاليه بالجريدة ، ولكن طه يومئذ كان طالبا في الجامعة ؛ فمن الإسراف في المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسي الآداب في الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه !

وثمة حديث آخر يشير إلى أول ماكان بين الرافعى وطه ، رواه لى صديقنا الأديب عبد المعطى المسيرى ، صاحب « القهوة والأدب » . قال :

« زار الرافعى إدارة « الجريدة » مرة لبعض شأنه ، فى سنة ١٩٠٨ (أو سنة ١٩٠٩) ؛ فلما همّ أن ينصرف طاف بمحررى « الجريدة » يحييهم — وبينهم طه حسين — ولكن الذى كان يصحب الرافعى فى طوافه لم يعرِّفه طه ولم يقدِّم أحدهما للآخر ؛ وعرفه الرافعى على الرغم من ذلك ؛ إذكان مثله لا يخفى واسمه على جبينه . . . . . . ولكنه لم يحيِّه ولم يُظهر له المعرفة ؛ رعاية لعاطفته ، وخشية أن يفهم طه أن الرافعى لم يعرفه إلا بعلّته فيألم وتتأذى نفسه ؛ ولكن طه طوى صدره على شيء للرافعى من يومئذ ؛ لأن الرافعى انصرف دون أن يحييه كما حيّا زملاءه العاملين معه فى الجريدة ! » .

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحا جديدة ، واتخذت لها أسلوبا فى الدين وفى العلم وفى الأدب قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال ، وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب ، ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت فى الجهاد راية . . .

والرافعى رجل — كان — فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة فى غد . . .

ونال الرافعى رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان ، فأحس فى

نفسه رغبة فى الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذمّ أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، (قال الرافعى) : فنشرها طه فى السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه .. ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان ... وتربص الرجلان فى انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعى رسائل الأحزان ، فسعى راجلا إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعى وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعى إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعى ، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل فى صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعى يتحدث عنها وصمت طه .

لمن ياترى كانت الغلبة ؟ الرافعى يقول : أنا .. وطه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث .

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه فى « رسائل الأحزان » فى السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداء وأعلن الحرب . ورد عليه الرافعى يقول :

« يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم »

ثم مضى فى رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، فى مقال طويل(١) .

وطارت الشرارة الأولى فاندلعت ألسنة النار ، فما خمدت حتى أحدثت

---

(١) المعركة تحت راية القرآن .

أزمة وزارية ، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلى ، وأوشكت أن تؤدى بعلى ماهر إلى المحاكمة ، وهزّت دوائر البرلمان ، ثم انتهت فى النيابة العمومية ...

* * *

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين فى الأدب وأسلوبين فى الكتابة ، فما لبثت من بعدُ أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والجمود ؛ وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة . والرافعى رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئا منهما ينفصل عن شىء أو يتميز منه ، ولكنه فى السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأيا فى السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها ؛ وكم جرّ عليه هذا الجهل السياسى من متاعب ! وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة .

* * *

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا ــ وزير المعارف يومئذ ــ أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى بالجامعة ؛ على شرط الواقف !

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهلي على الأسلوب الذي رآه لهم : فلما استدار العام جمع طه محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم «في الشعر الجاهلي» ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجَّما في كلية الآداب ، فقرءوا رأيا جديدا في الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظنا بالدكتور طه حسين وكُتّاب السياسة الأسبوعية . فقال الأكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربي : وظل الرافعي ساكتا : إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلي القاضي ، في السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان في كوكب الشرق : فكان فيهما الإنذار للرافعي بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعي قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة «كوكب الشرق» ثم مقالات ثلاثا بعده ؛ ولم يكن قد قرأ الكتاب ؛ ولا عرف عنه إلا مانشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول : خصومةً بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرائق البحث . على أن الرافعي لم ينس في هذه المقالات أن له ثأرا عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبي في هذه المقالات شيئا من أسلوبه المر في النقد ؛ ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم .

ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثائرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئا منكرا أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجرد من دينه ليحقق

مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأيا من الرأى فى الأدب ، أو يمحص رواية من الرواية فى التاريخ . لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصا من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعى ما قال طه ، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتبا يزعم أن له مذهبا جديدا فى الأدب ، فعاد مبتدعا مُضِلاً له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوىّ الثائر لعرضه أن يُنتَهك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعتُه فى طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرة مهتاجة تفور بالغيظ وبالحميّة الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !

ونسى فى هذه المقالات كلَّ اعتبار مما تقوم به الصِّلات بين الناس ، فما كان يكتب نقدا فى الأدب ، بل يصبّ لهبا وحمما وقذائف لا تُبقى على شىء . وكان ميدانه فى جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة وجريدة سعد ، وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبلُ رأيا فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين هو عدوّ سعد !

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن له فى السياسة باع ولا ذراع .

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجبا للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد .

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير فى وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم : ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام . . .

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشد أزره كل السلطات .

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدّد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئا ، فكتب كتابا إلى مُدير الجامعة ، يُشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . ولكن الرافعى لم يقنع فمضى فى النقد على جادّته !

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدًّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله ، لعل ذلك يردّ الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شىء حتى بالجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمرّ فى حملته على الدكتور طه حسين : ولا ظهير له يومئذ غير الدكتور زكى مبارك . . .

ليس من شأنى أن أنص الحكم فى هذه القضية ، فإن وثائق الدعوى ماتزال بين أيدى القرّاء ، وليس يهمنى لمن كانت الغلبة ؛ فهذا كتاب للرواية لا للرأى ؛ ولكن الذى يجب أن يعرفه القرّاء ، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعا سلبيًّا فأوى إلى الصمت ؛ ويزعم الدكتور زكى مبارك

« أن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان ـ فى هذه المعركة ـ بفضل الإشارات التى صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر ، حتى لا يُهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان ! » وهو قول لا أدرى أيقصد به الدكتور زكى مبارك أن ينتصر لطه أو للرافعى ؛ ولكنه قول صديق عاقل على كل حال ... !

لقد كانت هذه المقالات التى ينشرها الرافعى فى كوكب الشرق صيحة مدوّية وصلت إلى كل أذن : فما أحسب أحدا فى أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شىء ؛ وكان المصريون وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث فى شئونها ؛ فلعلهم وجدوا فى هذه المقالات ما يعزيهم عن شىء بشىء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدو سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وصديق الأحرار الدستوريين . . . !

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعا فى مصر بهذه المقالات لأنهم جميعا قد صار لهم فى شئون الأدب رأى ، أو لهم فى الذود عن الإسلام حمية ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسى جاء اتفاقا ومصادفة فى الوقت نفسه ، ليكون تأييدا لقول الله وانتصارا لكلمته : على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها ـ لسبب أدبى أو لسبب سياسى ـ قد بعثتْ روحا دينية كانت راقدة ، وأذكت حميّة كانت خامدة ، وألفت قلوبا إلى قلوب كانت متنافرة ، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذّود عن دين الله .

وإنى لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات ، أنى ـ وكنت طالبا فى دار العلوم ـ لم أكن أطيق الانتظار حتى يجىء بائع الصحف إلى الحىّ الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل

فنقطع الطريق من « المنيرة » إلى « باب اللوق » راجلين لنشترى من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس .

* * *

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلى زيور عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ، وعكف نواب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ، وما يزال فى آذانهم صدى يرن عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته فى محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . . . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشاد عدلى رئيس الحكومة وسعد رئيس النواب ؛ فهبت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقّدت المشكلة . . .

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين : فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب عبد الحميد البنان (١) بشكواه إلى النيابة العمومية ؛ فتسقط التبعة عن الحكومة ، وينفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء ، وكان بعد ذلك ما كان .

وإذا كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملا من أعمال وزير المعارف ، فإنّ ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غيّر من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستورى . . . ولكنه ظل اقتراحا لغير التنفيذ .

* * *

(١) توفى سنة ١٩٤٤ فيما أذكر .

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعى ، ولكنها شىء يتصل بتاريخه وله فيه أثر أىّ أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعى وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولـمَا كان فى التاريخ الأدبى أو السياسى لهذه الحقبة شىء مما كان .

على أنّ هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » ، وهو جماع رأى الرافعى فى القديم والجديد . وهو أسلوب فى النقد سنتحدّث عنه بعد .

* * *

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعى وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظلّ قائمة مابقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هى خصومة بين شخص وشخص تنتهى بنهايتهما ؛ بل هى خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبدا مادام فى العربية حياة وقدرة على البقاء .

وما أعرف أن الرافعى وجد فرصة ليغمز طه فى أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعى فى فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما مافى جعبته . وكم مقال من مقالات طه حسين قرأه علىّ الرافعى فقال : اسمع ، إنه يعنينى . وكم مقال أملاه علىّ الرافعى أو قرأتُه له فوجدت فيه شيئاً أعرف مَن يعنيه به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعى : أرجو أن تعدّل فى أسلوب هذا المقال ـ مما ينشر فى الرسالة ـ فإنى لا أحب أن يظنّ طه أنك تعنيه بشىء تنشره فى الرسالة وعلىَّ تبعتُه عنده .

ولما ثارت فى الجامعة مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، قُبيل موت الرافعى بأشهُر ، كتب مقالا للرسالة غمز فيه طه

وحَيَّا شباب الجامعة ، ولم يجد صاحب الرسالة بُدا من نشره . وفتن الرافعي بمقاله ذاك وحَسُنَ عنده وقعه ، فأنشأ تتمة له بعنوان « شيطان وشيطانة » يغمز بها الدكتور طه حسين ، ولكن صاحب الرسالة وقف له واحتج حجة ، رعاية لصديقه القديم . وكان أولَ مقال يكتبه الرافعي فتردّه له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعي لذلك غيظا شديدا ، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة منه ! لو كان لي أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لنشرته بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ صاحب الرسالة يقول : لقد رددته إليه . والدكتور محمد يقول : لم أجده على مكتب أبي . وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل [1] .

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان .

ولما اشترك الرافعي في المباراة الأدبية في سنة ١٩٣٦ ، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع ، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضوا في اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

* * *

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيي ولا رأي أحد معي ؛ ولكنه شيء مما حكاه لي الرافعي أو قرأت في كتبه ، فكتبته في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالي فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان عليّ معتبة أو ملام .

---

(١) كتبت هذا الفصل قبل أن تقع لي مسودة هذا المقال ، وقد نشرته من بعد في الجزء الثالث من « وحي القلم » .

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ... ! هنا ميدان الخصومة بين الرافعى وأدباء عصره ؛ فمنذ نحَله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعى ليجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربية فى أرفع أساليبها ، وسبيلا إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ؛ وبابا إلى الزراية بتراث الأدباءِ العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعى نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ، فجعل همَّه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليرد عليهم ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد لله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسمُ كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ - ١٩٢٦ .

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتابا ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقا مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافعى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة ، حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلا واحدا هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل ما بقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافعى وجمعه كتابا للرد عليه هو وحده . وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت

أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين فى الأدب وفى الدين وفى القرآن ، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد فى شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة : وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون فى موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبى .

* * *

وليس الكتاب على استواء واحد فى أسلوبه : فنى المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعي هادئا متزنا فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأى ورحابة صدر الناقد البرىء : فإذا وصلت من الكتاب إلى قدْر ما ، رأيت أسلوبا وبيانا غير الذى كنت ترى ، وطالعتْك من صفحات الكتاب صورة جَهْمَة للرافعي الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مُزْبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصما تراءى له بعد ما دار عليه طويلا فهو يخشى أن يفرّ ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيبا أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتى كتاب ، فإن هذه المقالات وإن صوّبتْ إلى هدف واحد قد اختلف دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له ، وقد كان بينها فى التاريخ الزمنى سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام .

على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه فى طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد فى تدريس

الأدب ، وتقرأ له ـ من الكتاب نفسه ـ ردَّه فى سنة ١٩٢٦ على طه فى طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأوّلين .

ليس يعنينى هنا أن ألخص رأى الرافعى فى الجديد والقديم ، فمراجع البحث عن رأيه فى ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قرّاء العربية فى عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الحديث .

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه فى سائره ؛ ويبدأ هذا الجزء بعد الصفحة المائة ، وفيه تفصيل ما كان بين الرافعى وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحزان » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب فى البيان متباينة ؛ ففيها التهكم المرّ ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردُّ الرأى بالرأى ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان ، وفيها الزلفى إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيها فن بديع ظريف ، فيما حكى الرافعى عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنتَ نظرتَ إليه فى جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليمٍ من التهكم يفتنّ الرافعى فيه فنونا عجيبة حتى يبلغ نصف المقال : ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغى أن يكون عليه النقد الأدبى ، لولا عبارات وأساليب هى لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر . . . بَلى إنها نموذج عال فى النقد العلمىّ الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليلة ودمنة

إن مبالغة الرافعى فى التهكم قد شقّقتْ له فنونا من المعانى والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء ؛ وأبدعُ هذه الأساليب حديثُه عن كليلة ودمنة وما نَحَلَهما من الرأى فيما تناول من فنون الأدب . وكليلة ودمنة كتاب فى العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعى ، وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقا ومصادفة ، فى مقالة من مقالات الرافعى ، فى طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليلةَ ودمنة ليقول على لسانهما كلاما من كلامه ورأيا من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه ـ على المزاح ـ إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته ، فنشره

بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد . . . ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية . . . »

« قال كليلة : أَمَا تضرب لى المثل الذى قلتَ يادمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع . . . . . . » ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين[1] . . .

ثم استمر ينقل ـ عن نسخته الخاصة ـ من كليلة ودمنة ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة ، وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لونا طريفا من أدب الرافعى ، لو أن الظروف واتته لأتمّه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديدا له خطر ومقدار ، على أن الرافعى لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتابا ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقى من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجبا بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنة مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فنا ومقدرة . . . !

وانتهى الرافعى من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة ، وظلّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحى الأربعين » فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » . ثم نشر فى الرسالة سنة ١٩٣٥ الفصل العاشر

---

(١) المعركة تحت راية القرآن .

بعنوان «كفر الذبابة!»[١] يعنى بها مصطفى كمال (كمال أتاتورك) وحركته الدينية، غفر الله له!

وقد كان فى مُنية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتمه، ولكنه لم يوفق، وكان فى ذلك خير: فهذه الفصول فى موضعها من الكتب التى نُشرت بها أجمل وأخفّ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القرّاء. على أنّ هذه الفصول لااتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع.

* * *

هذا مجمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب «المعركة تحت راية القرآن» وما احتواه. وهو وكتاب «على السفود» خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدال؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد، بدمائهما، ورِمامهما، ولهيبهما المستعرّ، ودخانهما الخانق، وغبارهما الكثيف...

لوتجرّد هذان الكتابان من بعض مافيهما لكانا خير ما أنتجت العربية فى النقد، وأحسنَ مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق. ولكن وا أسفا، إن الإطار يحجب مافى الصورة من جمال، فمنذا ـ غير مالك الصورة ـ يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلوَ الصورة فى جمالها على أعين الناس؟

---

(١) وحى القلم ـ الجزء الثالث.

شـــاعر الملك

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعى فى النقد ؛ إذ كان هو أولَ مابين الرافعى وعبد الله عفيفى ؛ فإنى لأقدم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التى مهّدت للرافعى من بعدُ أن ينشئ كتابه « على السَّفُّود » فى نقد ديوان العقاد .

* * *

فى سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية ، هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير فى طريق ذى عِوَج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ، فهيئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حِراصٌ على سلطة الأمة ؛ فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان . . .

فى تلك الآونة ، تقدّم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعى أن يكون شاعر الملك ، فلقى ذلك العطفَ الكريم بحقه من الشكر والرضا وعرفان الجميل .

وشاعرُ الملك ، أو شاعرُ الأمير ، لقبٌ قديم فى دولة الأدب ، وله فى تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسىّ وأبو العتاهية فى بنى العباس ، والبحترى فى إمارة المتوكل ، والمتنبي فى بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ ، ولا ننس فى تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثى ، وليس بعيداً عنا

أمير الشعراء المرحوم شوقى بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه فى مصر بعد خلع الخديو عباس فنفته إلى الأندلس .

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعى هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصرى ؛ فلما مات تطلعت الشعراء إلى موضعه ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ، إذ كان ما يزال فى نفسه شىء يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقى من المنافسة الأدبية فى صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير .

* * *

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر مانشر من الشعر هو ديوان النظرات فى سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة فى آماد متباعدة لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر ينفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك ، فى سنة ١٩٢٤ ، فى إبان العاصفة الهوجاء من حبِّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور فى كتبه الثلاثة التى أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على السرحة الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان . .

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ حتى وقع بينه وبين الإبراشى باشا أمر ـ بعد موت المرحوم نجيب باشا ـ فسكت وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومةَ بينه وبين عبد الله عفيفى ...

* * *

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمتّ إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الخمسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . اقرأ قصيدة الخضراء ـ يعنى الراية ـ وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، واقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فنا فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ماعرفتَ من فنونه ، فإذا حققْتَ هذه الملاحظة فى مدائح الرافعى وثبتتْ عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيرا من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ماتعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها .

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلا تاما ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسىّ ناضجة تامة : من الاحتيال ، والرَّوغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بَلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأيا فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدرى رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء .

* * *

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء

على الموظفين فى محكمة طنطا الأهلية ، حيث كان يعمل جنبا إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكى فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتابه « إعجاز القرآن » على نفقته ؛ كما أذن فى إرسال ولده محمد فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا ؛ فظل يدرس فى جامعة ليون على نفقة الملك إلى سنة ١٩٣٤ حين شاء الإبراشى باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقى . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر فى فرنسا من نفقات العيش ورسوم الجامعة ، كان يكتب « للرسالة » بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسدهُ وتُنتَهك أعصابه ... !

* * *

قلت إن الرافعى ظل فى حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الإبراشى باشا أمر – بعد موت المرحوم نجيب باشا – فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمى به إلى تهلكة ...

حدثنى الرافعى قال : « كنت فى عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقانى بوجه طلق ، ويحتفى بى ، ويبسط لى وجهه ومجلسه ، ويثلج صدرى بما يروى لى عن عطف المليك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقا وتمتد طولا وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الإبراشى فلم تدْعُنى داعيةٌ إلى لقائه ، حتى كان يومٌ وجدتُنى فيه منطلقا إلى هناك ، لأسأله فى أمر من الأمر[١] ...

قال : « وذهب إليه الساعى بالبطاقة ودعانى إلى الانتظار ، فجلست وما أظن

(١) يأتى تفصيل ذلك بعد .

إلا أنها دقائق ثم أُدْعَى إليه ... وطال بي الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسى فضجرت ؛ فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسى مكانى ، فعاد إلىّ حاجبُه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ويسألك أن تمرّ به غدا فى الساعة كذا ...

قال الرافعى . « وآذانى ذلك ونال منى ، ولكنى اعتذرت عنه . فلما كان الغد جاءنى النبأ ينعى إلىَّ زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعى بك ؛ فآدنى الهمُّ وثقل علىّ ، وضاقت نفسى بما فيها ، وتوزعتنى الوساوس والآلام ؛ وما نسيتُ وأنا أمشى فى جنازة الفقيد العظيم أن علىَّ موعدا بعد ساعات ، فما هِيل عليه التراب حتى كنت فى طريقى عَدْوًا إلى القصر وفاءً بالوعد الذى اتّعدْت ، وجعلت من وراء ظهرى ما علىّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّوننى فى أخى وابن عمى وصاحب الحقوق علىّ . لقد كان الذى مات زعيما من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنى جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علىّ من الواجب للزعيم الذى مات ؛ وإنه لأخى ، وإن فى أعراقه من دمى وفى أعراقى ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لى فأدخل ، وطال بى الانتظار كذلك وإنّ فى دمى جمراتٍ تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا فى مجلسى ذلك أطالع وجوه الداخلين والخارجين فى غرفة الباشا ولا يؤذَن لى ... !

قال الرافعى : « وهاجت كبريائى وثارت حماقتى ... لا أكذبك يا بنىّ ، إنّ فىّ لحماقة ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلىّ فى أصلاب أجدادى من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إلىّ صارت حماقة ؛

فهذه الحماقة عندى يابنى هى تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تخطّت إلىّ هذا الزمن البعيد فى تاريخ الأجيال . . . ! »[1]

قال : « ولما بلغ الحنق بى مبلغه نهضتُ وفى يدى عصاى ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فإذا أنا أمام الإبراشى باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربى يحدّثه . . . ، فلم أعبأ ، ولم أكترث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعى وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسى ، وثأرت لكبريائى . وأحسبنى قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق فى الحديث معه ، ولكنى لم أُلق بالا إلى شىء من ذلك . وما كان فى نفسى إلا أنى قد قلت ما ينبغى أن أقول لأحفظ كرامتى وأصون نفسى ، ولا علىّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه . . .

« ولكن . . . ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إلىَّ وألحّ فى الاعتذار . . . وصدقتُه حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشى باشا فى نفسه ؛ فلما كان الموسم التالى نظم الرافعى قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصفت حروفها مشكولة فى مطبعة دار الكتب — كما جرت العادة — ثم أُرسلت بحروفها مجموعةً إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزينة ، من نظم الأستاذ عبدالله عفيفى المحرّر العربى بديوان جلالة الملك ، ونشرت القصيدتان جنباً لجنب فى جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما فى مدح الملك ، فما يفرّق بينهما فى الشكل

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هى كلمة الرافعى بنصها كما حكاها لى وقد كتبتها فى مذكرتى بعد حديثه بساعات فاليوم أنقلها من هذه المذكرة .

إلا توقيعُ الشاعرين فى ذيل الكلام .

وقرأ الرافعى قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزجر ، وقال لمن حوله : أترون كيف يصنع بى ؟ إنه يريد أن ينال منى ، (يريد الأبراشى) أهذا شعر يُقْرَنُ إلى شعرى ؛ أيرانى وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف فى الطباعة فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقتى أو يجعلوننى شاعراً من طبقته ؟ أيرانى من الهوان بمنزلة الذى يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهّد لصاحبه حتى يخلعنى عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكانى ؟ أم يراه أهلا ليقاسمنى المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... » .

ومضى الرافعى يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا فى مثل حال الرجل الذى يعود إلى داره التى يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لابحقه ، فما يجد له حيلة فى إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضى . . . وكان القاضى عند الرافعى فى هذه القضية هو الرأى الأدبى العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيّته إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفى فى مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السَّفُّود !

وما كان الرافعى يجهل أنه يتناول موضوعا دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لايسره أن تعلم مَن كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

الرافعى وعبد الله عفيفى

لم يكن عبد الله عفيفى خصما للرافعى على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن عبد الله عفيفى فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الإبراشى باشا ؛ قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعى وجها لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعى وعبد الله عفيفى .

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعى ذيادا عن الدين وحفاظا على لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور ومافيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأى وقلة المعرفة . . . وما بدٌّ من أن يكون فى نقد الرافعى أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيغ ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعى لم يكن موفقا فى النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والقصد فى التهمة وضبط النفس . . . !

وثمة شىء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات ؛ هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتا قارًّا فى

موضعه لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع . . .

* * *

كتب الرافعى مقالات ثلاثا بعنوان « على السفود » فى نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفى فى مديح الملك — والسفود هو الحديدة التى يشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى ، وإذ لم يكن توقيع الرافعى فى ذيل هذه المقالات ، ولا كان يريد أن يعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه فى الكتابة وفى نمط الكلام ، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدّث فى مجلسه إلى جماعة من خاصته ، لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عربية اللفظ ، بقدر ما يعنيه أن يتأدّى معناه إلى قارئه فى أى أسلوب وبأية عبارة ، فكثر الحشو فى هذه المقالات من الكلمات العامية ، والنكات الذائعة ، والأمثال الشعبية ، ولكنه لم يستطِع أن يتخلص من كل لوازمه فى النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات فى أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعى حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعرا من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكى ، وأن هذا الشعر الذى يَمْليه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه فى مديح الملك . أو لعل الرافعى كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب وألقى القول على سجيته فى صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدبَ اللائق وهو يتحدث عما ينبغى أن يكون عليه الشعر الذى يقال فى مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ، فجاء فى بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق

الأدبى العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء ، وكأنما ركبْته طبيعة غير طبيعته خَيَّلتْ إليه أنه يكتب فى نقد شاعر من الماضين يمدح ملكا من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبى الخالص من دون ما ينبغى أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك ...

وانتهت أُولى هذه المقالات إلى القصر ، فمالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همسا غير خفى ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحدا منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيسا إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب « العصور » يسأله فلم يظفر منه بجواب .

ونُشر المقال الثانى والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر ؛ ونم الرافعى على نفسه بلسانه فى مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته فى النقد .

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر فى أسلوب السياسى البارع : « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت فى شاعر من شعراء الملك وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب ؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هى دسيسة تصطنع الأدب لتفضّ المخلصين من رعيته عن بابه ... ؟ »

وغص الرافعى بريقه ، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الإبراشى باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التى مسها الرافعى بحماقته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبيّتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ، إلا الصلة العامة التى بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف مايخاف الرافعى أن تكون خاتمة ذلك هى انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذى يدرس الطب فى جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين .

* * *

لقد كثُر ما استغلَّ خصومُ الرافعى السياسةَ لينالوا منه ، ولقد كثر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشى باشا فى محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعى والإبراشى باشا من صلات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعى بالقصر إلا فى عهد الإبراشى ، وما كان معه يوما على صفاء ؛ على أنه كان تلميذا معه فى مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافعى .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعى غداة دالتْ دولة الإبراشى ، فصلا مؤثرا .. بعبارات بليغة ... فى صحيفة من صحف الشعب[1] يصف جناية الإبراشى باشا على الأدب ، وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعى ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأتُ هذه المقالة مع الرافعى ، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب . .

---

(١) هو الدكتور طه حسين فى جريدة الوادى ، وكان يصدرها فى تلك الوقت للدفاع عن سلطة الشعب بعد أن فسد ما بين طه حسين والأحرار الدستوريين فعزلته حكومة اسماعيل صدقى من وظيفته فى الجامعة !

أرأيت ... ! صَدَق ! لقد جنت السياسة على الأدب[1] » .

* * *

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التى كتبها الرافعى عن عبد الله عفيفى صدى فى غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعى إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفى فى أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه فى كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات شوقى أمير الشعراء فى خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعى عنه مقاله المشهور فى مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقى لو كان مصريا خالصَ المصرّية لما تهيأت له الأسباب النفسية التى بلغت به مبلغه فى الشعر ، لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة فى كل نفس .

هو رأى أبداه فيما أبدى من الرأى ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره ، وقد يكون رأيا إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كِفّتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأى أبداه الرافعى مجردا من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفى عناصر بحثه : ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون .

أما طائفة فمالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى فى دعواه . ذلك سلامه موسى ! ...

---

(١) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثرصراحة فى كتابنا : « المؤثرات السياسية فى جيل من الأدباء » الذى نرجو أن نستطيع تهيئته للنشر قريبا ، إن شاء الله !

وأما ثانية فقالت : وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية فى قاعدة عامة لا تستثنى أحدا إلا من انحدر إلى مصر وفى أعراقه دم غريب . . . ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامى الشعراء المصريين .

وانتضى عبد الله عفيفى قلمه ليكتب فى جريدة « البلاغ » مقالات أسبوعية بعنوان « مصر الشاعرة » يذكر فيها من شعراء مصر فى مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه ردًا على دعوى الرافعى . ومضى فى هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملَّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه فى الناس والحياة ؛ ولكن عنوان « مصر الشاعرة » ظل على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه . . . فكان حسبه فى هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان فى الرد على الرافعى ! ...

* * *

وقد ظل الرافعى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الإبراشى وبين عبد الله عفيفى . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفى فى الصحف مدحة ملكية ، فى موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعى فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعوَّد من المزاح والتندر .

وقد ذكرتُ فيما قدمتُ من هذه الفصول أن الرافعى كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة » ؛ فمنهن كالمتنبى ، ومنهن كالبحترى ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفى .

فهذه الأخيرة عنده هى ذلك النوع « البلدى » من نساء الطبقة الثالثة ، التى تبدو ملفوفة « محبوكة الأطراف » فى ملاءتها السوداء ، غضةً بضّة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال . . .

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفى ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى . وللأستاذ عفيفى فى نفسى على الرغم من ذلك كلُّ إجلال واحترام !

* * *

حاشية : كتبت هذا للطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فلم تكد تلك الطبعة تظهر لقرائها حتى كتب إلىّ المرحوم عبد الله عفيفى رسالة عليها الشعار الملكى يطلب إلىّ فيها أن أحدِّد زمانا ومكانا للقائه ؛ فلم يغب عنى أنها دعوة للحديث فى موضوع يتصل بما نشرت عنه فى هذا الكتاب ، فقررت أن يكون جوابى على هذه الدعوة أن أذهب إليه ، تكرمةً له . وكنت يومئذ من العمل فى زحمة ، فمضت أيام قبل أن أذهب إليه ، واستبطأ المرحوم عبد الله عفيفى جوابى فتحدث إلى بعض أساتذتى يسأله أن يكون رسولا إلى ، ثم استبطأه فبعث رسولا ثانيا . . . وحسب الرسولان بما لأحدهما علىّ من حق الأستاذية فى المدرسة وما للآخر من حق الرياسة فى عملى بالحكومة وقتذاك ـ أنهما يملكان أن يقودانى بزمام إلى حيث ألقى السيد عبد الله عفيفى وأعتذر إليه ، ولكنى رددتهما ردا جميلا ، ولكن المرحوم عبد الله عفيفى ـ فيما يبدو لى ـ كان حريصا على أن يلقانى ليتحدث إلىّ حديثا ما ، فبعث إلىّ رسولا ثالثا مترفقا فى حديثه ؛ فلبيت الدعوة ولقيت الرجل فى منزل الأستاذ

عبد اللطيف المغربى بالعباسية ، وجلست إليه أستمع إلى ما يقول . . .

قال : « لقد ذكرتنى بما لا ينبغى فى كتابك وكان حقا عليك أن تسألنى قبل أن تكتب عنى لتعرف وجه الحق فيما رويت ! »

قلت : « إنى فيما كتبت لم أكن صاحب رأى ، وإنما أسندت ما كتبته إلى راويه ! »

قال : « ولو كان راويه كاذبا دجّالا . . . . . . »

قلت : « صه ! ذلك رجل مات فدع عنك ذِكره وحدثنى بخبرك ووجه الحق فيه ! »

قال : « قد علمتُ أنك على نية إصدار كتاب عن المؤثرات السياسية فى جيل من الأدباء ؛ فصحح عنى بعض ما رويت واذكر أننى لم أكن صنيعة الابراشى باشا ، وإنما عرف مكانى وهيأ لى أسبابى توفيق نسيم باشا . . . ! »

قلت : « ولكن ذلك ليس من شأنى ؛ فماذا يعنينى أن يكون الذى هيأ لك الأسباب هو الابراشى أو توفيق نسيم وإنما حديثى عن الرافعى أو عن المؤثرات السياسية فى الأدب ! »

فعض الشيخ على شفته وتريث برهة ، ثم لطف أسلوبه ورقّ ، وقال : « أنا أعنى . . . » ثم عاد إلى الصمت ليستأنف حديثه بعد قليل قائلا : « أنت تعرف أن الموظفين فى القصر ينبغى ألا تعلق بأسمائهم شبهات سياسية ، فلست أحب أن يذكر اسمى إلى جانب اسم الابراشى باشا . . . »

قلت : « قد فهمت ! . . . » فهل فهم القراء ؟

نعم ، فقد كان الابراشى باشا يومئذ موضع السخط ، على حين كان المرحوم

توفيق نسيم باشا فى موضع الرضا والحظوة ؛ فلا بأس أن يذكر أنّ عبد الله عفيفى كان صنيعة توفيق نسيم لاصنيعة الأبراشى !

وقد قلت فى التمهيد لهذا التاريخ إنى راوية لاصاحب رأى ، فلأذكر إذن أن كل ما كان بينى وبين عبد الله عفيفى رحمه الله من الخلاف هو : من الذى اصطنعه !

الرافعى والعقاد

. . . إنه ليتهيأ لهذا الكاتب من أساليب البيان
مالا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية فى صدر أيامها !
عباس محمود العقاد

. . . ذلك كان رأى العقاد فى أدب الرافعى قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التى أروى خبرها ، وشتان بين هذا الرأى يبديه العقاد سنة ١٩١٧ فى مقال ينشره ليعرِّف بكتاب من كتب الرافعى أنشأه فى ذلك العهد ، وبين رأيه الأخير فى المهذار الأصم مصطفى صادق كما يصفه فى سنة ١٩٣٣

* * *

لقد مات الرافعى ـ يرحمه الله ـ فانقطع بموته ما كان بينه وبين خصومه من عداوات ، وما أريد أن أوقظ فتنة نائمة يتناولنى لهيبها أول مايتناول ، فما لى طاقة على حمل العداوة ، ولا اصطبار على عنت الخصومة ، ولا احتمال على مشقة الجدال ؛ وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جحده الجاحدون فنهضت للوفاء به ؛ فإن كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يؤلم أو يسىء ، فما ذلك أردت ولا إليه قصدت ولا به رضيت ؛ ولكنها أمانة

أحملها كارها ، وأضطلع بعبثها مضطرا ، لأؤديها إلى أهلها كما تأدَّت إلىَّ . وإنى لأعلم أنى بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسى بالموضع الذى أكره ، وأتعرّض بها لما لا أتوقع ، ولكن حسبى خلوص النية ، وبراءة الصدر ، وشرف القصد ؛ ولا علىّ بعد ذلك بما يكتب فلان ، ولا مما يتوعَّد به فلان ، فإن كان أحد يريد أن يصل بى ما كان بينه وبين الرافعى من عداوة فانقطعت ، أو يربط بى رابطةً كانت بينه وبين فلان فانفصمت ، أو يتخذ من الاعتراض علىّ زلفى إلى صديق يلتمس ودَّه ، أو يجعل مما يكون بينى وبينه سبيلا إلى غرض يرجو النفاذ إليه ، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه - إن كان أحد يريد ذلك فليمضِ على إرادته ، وإن لى نهجى الذى رسمْت ، فلتفترق بنا الطريق أو تلتق على سواء ، فليس هذا أو ذاك بما نعى من المضىِّ فى سبيلى ، ومن الله التوفيق !

* * *

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعى ومعركة جديدة من معاركه ، وإنى لأشعر حين أعرض لنبش الماضى فأذكر ما كان بين الرافعى والعقاد ، أنى كمن يدخل بين صديقين كان بينهما فى سالف العمر شحناء ثم مسحت على قلبيهما الأيام فتصافيا ، فإنه ليُذكِّر بما لا ينبغى أن يُذكر . والموت يحسم أسباب الخلاف بين كرام الناس ؛ فإذا كان بين الرافعى والعقاد عداوةٌ فى سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها ، فإن بينهما اليوم لبرزخا لا تجتازه الأرواح إلى أخراها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية ؛ فهنا ناموس وهناك ناموس ، ولكل عالم قوانينه وشريعته ؛ فما تَخْلُص ضوضاء الحياة إلى آذان من فى القبر ، ولا ينتهى إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلَّفوا من الآثار فى دنياهم .

[illegible]

[illegible]

حدثني الرافعي قال: [illegible]

ولكنه لقيني بوجه غير الذي كنت [illegible]

[illegible] نفسي، وجلسنا نتحدث، [illegible] إعجاز القرآن [illegible]

لقيت حجراً في هذا المجلس ... فهو يتحدث في حماسة وتعصب [illegible]

كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن. ولو كان [illegible] وتجريحه في الكتاب [illegible]

لهان علي. ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن [illegible]

وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز ... أصدقك القول يا بني [illegible]

واعتلت ثورة عنيفة، فكدت أفعل شيئاً [illegible] القرآن [illegible]

ولكني آثرت الأناة ...

قال الرافعي: «وأخذت أناقشه الرأي وأبادله الحوار في هدوء [illegible]

لرجلا يتلهب: إذ كنت أخادع نفسي فأزعمها أنه لم يتخذ نفسه [illegible]

في الهجوم على فكرة إعجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لم يعرف

وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعا به؛ فأخذت معه في الحديث على هدوئي وثورة

أعصابه ... ولم أفهم إلا من بعدُ ما كان يدعوه إلى ما ذهب إليه ...

قال : « لقد كان العقاد كاتبا من أكبر كتاب الوفد ؛ ينافح عنه ويدعو إليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وإنه ليرى له عند « سعد » منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب أو أديب من الأدباء ، وأن له على سعد حقا ؛ ولكن سعدا مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » وكتبها للرافعي وليس له عليه حق مما عليه للعقاد ...

قال الرافعي : « ... من هنا يا بني كانت ثورته ، كانت ثورة الغيرة ... لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكتاب عن إعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفت ذلك من بعد ، فما بدا عليّ مافي نفسي من الانفعال ، ومضيت معه في الحديث في وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابي ، فهل تُراك أحسن رأيا من سعد ؟ » .

قال الرافعي : « وفهم ما أعنيه فقال : وما سعد ؟ وما رأي سعد ؟

قال الرافعي : « وطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه[1] . فقبضت عليها يدي ثم قلت ؛ أفتراك تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وأنت تأكل الخبز في مدحه والتعلق بذكراه . . . ؟ قال : فاكتب إليّ هذا السؤال في صحيفة من الصحف تقرأ جوابي كما عرفته الآن ...

قال الرافعي : « وابتسمتُ لقوله ذاك وأجبته : ياسيدي ، إن الرافعي ليس من الحماقة بحيث يسأل هذا السؤال في صحيفة من الصحف فتنشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون في سؤالي وفي صمتك تهمة لي ، وتظل أنت عند قرائك حازما أريبا بريئا من التهمة مخلصا لذكرى سعد !

(١) كان الرافعي أصم كما يعرف القراء ؛ فمن ذلك كان أكثر ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة في ورق !

قال الرافعى : « وما قلتُ ذلك ـ وإن ورقته فى يدى أشد عليها بأناملى ـ حتى تقبَّض وجهه ، وتقلَّصت عضلاته ، ثم قال فى غيظ وحنق . ومع ذلك فما لك أنت ولسعد ؟ إن سعدا لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوِّره ، ثم نحلتَه إياه لتصدِّر به كتابك فيروج عند الشعب !

قال الرافعى : « وما أطقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة ، ولا ملكتُ سلطانى على نفسى ، فهممت به . . . فدخل بيننا الأستاذ صروف . فدعا العقاد أن يغادر المكان ليحسم العراك ويفض الثورة ، فخرج والباب يصفق فى قفاه (١) ! »

* * *

هذه رواية الرافعى ، حدثنى بها غير مرة فى غير مجلس ، كما تحدث بها إلى غيرى من أصدقائه وخاصته ؛ فما لى فيها إلا الرواية والتصرف فى بعض الكلام ، تأدبا مع العقاد وكرامة لذكرى الرافعى .

وقد بدا لى أن أستوثق مما حدثنى به الرافعى ، فقصدت إلى الأستاذ فؤاد صرُوف ـ محرر المقتطف ـ أسأله الرأى فى هذه الرواية ؛ إذ كان من شهود الحادثة على ما رواها الرافعى ؛ فقال :

« . . . هذا الحديث فى جملته وفى موضوعه لا اعتراض لى عليه ، وبقدر ماتطاوعنى الذاكرة أستطيع أن أجزم بأن شيئا من ذلك قد كان ؛ ولكن الذى

---

(١) عرضنا لدعوى العقاد أن الرافعى إنما اصطنع كتاب سعد ونحله إياه ليروج به عند القراء ؛ إذ كان اسم سعد كالطابع التجارى لبضاعة لاتبور ؛ وقد رجعنا إلى الأستاذ محمد ابراهيم الجزيرى سكرتير سعد الزعيم فأكد لنا صحة هذا الكتاب ، وزاد إن سعدا نفسه هو الذى كتبه بخطه لم يكل إلى أحد من سكرتيريه كتابته ؛ وقد أشار إلى هذا فى مذكراته عن سعد .

رواه لك الرافعى من حديث العقاد فى هذه المناظرة ليس على نصّه ؛ قد يكون هذا مُؤَدّى ما قال ولكنه ليس به ، والرافعى - رحمه الله - كان أصمّ ، ولم يكن كل الحديث بينهما مكتوبا ، وقد قال العقاد فى مناظرته كلاما لم يكتبه ولم يسمعه الرافعى ولكنه تخيَّله على ما أحسب ، فكانت روايته للحادثة من بعدُ معنًى يرويه لا لفظا يحكيه .

« . . . ، ولكنى مع ذلك لا أنكر ما كان من حديث العقاد فى هذه المناظرة عن القرآن وإعجاز القرآن ، ورأيه فى ذلك يعرفه أصحابه !

« ثم لا أدرى من أين جاء الرافعى أنى دعوت العقاد أن يغادر المكان ؛ فما كان ينبغى لى هذا ولا هو من آدابى وإنهما لضيفان فى دارى ؛ وأحسب أن الرافعى قد فهم ذلك خطأ حين رأى العقاد يغادر المجلس ! »

قلت : وقد أطلعنى الرافعى على ورقات قال إن العقاد كان يحدثه كتابة فيها ، وفيها عبارات تبرهن على صدق الرافعى فى روايته ! . . كما أشار الرافعى فى كتابه « على السفود » إلى طرف من هذه المحاورة ، وإلى هذه الورقات التى يحتفظ بها برهانا على بعض ما يصف به العقاد [١] .

---

(١) على السفود : ص ١٢

على السفود

وفرغ الرافعي من مقالات عبد الله عفيفي التي كان ينشرها بعنوان « على السَّفُّود » ؛ ثم ذهب مرة لزيارة صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور وما يزال في نفسه شيء مما كان من المحاورة بينه وبين العقاد ؛ فسأله الأستاذ مظهر تتمّة هذه السلسلة في نقد الأستاذ عفيفي ، فاعتذر الرافعي وقال : حسبي ما كتبتُ عنه وحَسْبُه . قال مظهر : فاكتب عن غيره من الشعراء ؛ إن في هذه المقالات لمثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة !

فتنبه الرافعي إلى شيء في نفسه ، وجلس إلى مكتب في دار العصور فكتب مقاله الأول من كتاب على السفود في نقد العقاد ؛ وتوالت مقالاته من بعدُ في أعداد المجلة متتابعة في كل شهر ؛ فلما تمت هذه المقالات ، نشرها الأستاذ إسماعيل مظهر في كتاب قدم له بمقدمة بإمضائه يبين فيها ما دفعه إلى نشر هذا الكتاب الذي لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه ، ورمز إليه بكلمة « بقلم إمام من أئمة الأدب العربي »

* * *

إن هذه الخصومة العنيفة بين الرافعي والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه ومحورَها الذي كانت تدور عليه ، إلى ميادين أخرى جعلتْ كلا من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ في عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمَّم أو يرى في ذلك معابة عليه . وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعي في مقالاته على السفود ...

هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية فى الجيل الحديث كانت لهم هذه الخلة المرذولة فى النقد وفى أساليب الجدل ؛ هذان اثنان منهم ، وكان للرافعى مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة ، على أن أشد هـذه المعارك عنفاً وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هى المعركة بينه وبين العقاد !

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذى دار بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف ، حول حقيقة إعجاز القرآن ، وكتاب إعجاز القرآن : وكان للعقاد فيهما رأى غير رأى الرافعى ، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقادُ ينكر إعجازه ؛ ولكتابه والعقاد يجحد فضله : ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحَلَه إياه فى تقريظ إعجاز القرآن ليروج عند الشعب ...

فثمة سبب عام أنشأ هذه الخصومة ، هو إيمان الرافعى بإعجاز القرآن إيماناً لا يتناوله الشك ؛ وسببان خاصان : هما رأى العقاد فى كتاب الرافعى ، ثم تهمته له بأنه مفترٍ كذاب ... !

تُرى أى هذه الأسباب الثلاثة هو الذى أثار الرافعى فدفعه إلى الخروج عن الوقار والأدب الواجب فيما أنشأ من مقالات « على السفود » ... ؟

الرافعى يقول : إنها غضبة لله وللقرآن . وللتاريخ رأىٌ لست أدرى أيفارق هذا الرأى أو يلتقى وإياه على سواء ... ؟

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف ، فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد ؛ ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام ؛ فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب

الخصام ... الرافعى يقول : هذا أسلوب من الردّ قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه ؛ حتى إذا تقرّرت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قرّاء العربية ، لاتراهم يستمعون لرأيه عند مابهم بالحديث عن إعجاز القرآن . وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره ولا يستقيم بيانها على لسانه ؟ ... هكذا يقول الرافعى ! . . .

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء . . .

* * *

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر فى مقدمته لكتاب « على السفود » :

« . . . أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء المستعصى الذى كان سبباً فى تأخر الشرق عن لحاق الأمم الأخرى ...

« . . . ونقدّم بهذه المقدمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التى أعتقد بأنه لم يُنسج على منوالها فى الأدب حتى الآن !

« وعسى أن يكون السفود (مدرسة) تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالا يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة ! . . . »

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم يُنسج على منوالها فى الأدب الحديث فنَعم ، وأما أن تكون مدرسةً للتهذيب ومثالا يحتذيه النَّقدةُ فلا ... فليس بنا من حاجة إلى أن يحتذى النقدةُ هذا المثال فى أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد فى العربية .

والحق الذى أعتقده أنّ فى هذا الكتاب ـ على مافيه ـ نموذجا فى النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها ، ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليساً بأن يطمس كل مافيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أدَمُ الصور وأقبح الألوان ، بما فيه من هُجْر القول ومر الهجاء ، ولئن كان هذا مذهباً معروفا فى النقد للرافعى وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية فى هذا الجيل ـ إننا لنريد للناقدين فى العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً وأعف لساناً من ذاك ... !

ذلك رأى قلته للرافعى ـ يرحمه الله ـ فما أنكره علىَّ ولا اعتذر منه ؛ فما يمنعنى اليوم شىء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء . ولقد همّ الرافعى منذ سنوات أن يجمع كل ما كتب فى النقد بعد كتاب « المعركة » فى كتاب واحد ؛ فأبديت له الرأى أن يضم إلى هذا المجموع مقالات « على السفود » بعد أن يجردها مما يعيبها حرصاً على مافيها من الفنّ ؛ فارتاح لهذا الرأى واطمأنّ إليه ، ولكنه لم يفعل ، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته .

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفنى البديع مغموراً فى الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة المنتنة وهيهات أن تقبل عليها النفس ؛ وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفنّ البديع فى النقد يكتنفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومر الهجاء .

ولقد كان الرافعى نفسه يعترف بأن فى الكتاب مالم يكن ينبغى أن يقول ، وبأن خصمه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة ؛ ولكن الرافعى مع ذلك كان مطمئنا إلى شىء آخر ...

قال الرافعى : « ... قال لى قائل : لقد قلتَ فى العقاد ما كان حريا أن يقفه وإياك أمام القضاء ! . . . قلت : ولكنى كنت على يقين بأن العقاد لن يفعلها ! إننى كنت أهاجم العقاد بمثل أُسلوبه فى النقد ، وإن معى لورقات بخطه لا يسره أن أجعلها دفاعى أمام المحكمة فيخسر أكثر مما يربح ؛ ولقد قرأت من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موقن به وحكمتْ لى محكمتُه ... ! »

ذلك حديث الرافعى ... فهل كان هذا حسْبَه من العذر فيما كتب ؟

على أن كثيرا من قراء «على السفود» يضعونه فى غير هذا الموضع الذى أضع ؛ مؤمنين بأن فى الأدباء طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمثل أسلوب على السفود !

* * *

انتشر كتاب « على السفود » وتناوله القراء على أن كثيرا منهم لم يعرف كاتبه إلا بعد سنين ... وكان فى هذا خير للرافعى ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء ؛ إذ كان العقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، والوفدُ هو الأمة كلها ، قراؤها وعامتها وشيوخها وشبابها ؛ فكان العقاد بذلك هو عند الشعب إمامَ الكتاب وأمير الشعراء ، لا يعاديه إلا خارج على الأمة أو مارقٌ من الوطنية ، ولو كانت عداوته فى مسألة أدبية لا تتصل بالسياسة ، ولو كانت مناقشته حول إعجاز القرآن .

* * *

ثم كانت هُدنةٌ بين الرافعى والعقاد ، صمت فيها الخصمان طويلا وكل منهما يتربص بخصمه ليضربه الضربة القاضية ، حتى كان خريف سنة ١٩٣٢ .

مات المرحوم شوقى فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فاهتزت لموته المجامع الأدبية

فى مصر والشرق ؛ فما تجد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم لهذا النبأ واحتفل به . وتهيأت « المقتطف » لكتابة فصل أدبى عن أمير الشعراء فأفرغت بضع عشرة صفحة من العدد الذى كان موشكا أن يصدر ، وأبرقت إلى الرافعى فى طنطا أن يكتب هذا الفصل ويرسله إليها فى أيام قبل أن يتم طبع العدد .

ولم يكن بين الرافعى وشوقى من صلات الودّ ما يتيح له أن يعرف شيئا من حياته يُعينه على دراسة أدبه ؛ ولا كان الرافعى مستعدا لهذه الدراسة ، ولا تهيأت له من قبلُ أسبابها ودواعيها لينشئ موضوعه على الوجه الذى يرضاه فى ذلك الوقت العاجل . وإن الرافعى لكثير الأناة والتأنق فيما يكتب ، فلا يبدأ فى إنشاء موضوعه حتى يخلّى له فكره أياما وليالى ، يبحث ويوازن ، ويزاوج ويستنبط ؛ ثم يتهيأ للكتابة وقد استوى الموضوع فى فكره كأنما قرأه لساعته فى كتاب ؛ ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعى أن يجيب محرر المقتطف إلى ماطلب ويرسل مقاله فى الموعد المضروب . وكانت دراسةً أعتقد أن أحدا من كتاب العربية لم يكتب مثلها عن شوقى أو يبلغ مابلغ الرافعى بمقاله ؛ فأنصف شوقى ، وجلّى عبقريته ، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه . دع عنك بعض هنوات قليلة لا تغض من قيمة هذا البحث الفريد .

وكان مما أخذ الرافعى على شوقى وسماه غلطات فى النحو أو اللغة ، أن شوقى أخطأ فى رفع جواب الشرط من قوله :

إن رأتنى تميلُ عنى كأن لم يك بينى وبينها أشياءُ !

وهى هناة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وجها من التعليل وبابا من العذر .

والعقاد أديب له شهرته العريقة فى عداوة شوقى والزراية بأدبه وفنه ؛ فما يعرف أدباء العربية أحداً كان أبلغَ عداوة لشوقى أو أحدَّ لساناً فى نقده من العقاد !

ولكن العقاد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعى فى المقتطف ، حتى تناول قلمه ليكتب كلمة يردّ بها رأى الرافعى فى نقد هذا البيت ويعتذر عن شوقى ... وكان للعقاد نصيب من التوفيق فيما كتب !

ليت شعرى أفعلها العقاد دفاعا عن شوقى وهو من هو فى عداوته ؟ أم تحدّياً للرافعى ... ؟

أفلم يجد العقاد فى بضع عشرة صفحة يكتبها الرافعى مباهياً بشوقى ، مفاخراً بأدبه وفنه وعبقريته ، شيئاً يستحق الردّ والتعليق غير هذه الكلمة ؟ هذا سؤال سألته نفسى يومئذ ، وأحسب أنّ كثيراً من القرّاء سألوه أنفسهم ؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يذكر ما كان بين الرافعى والعقاد ، ثم ما كان بين العقاد وشوقى منذ قريب !

وقال لى الرافعى : « ماذا ترى فيما كتب العقاد ؟ » .

قلت : « أنا وهو على رأى واحد فيما يردّ به ! » .

فمطَّ شفتيه ساخراً وهو يقول : « أخطأت ، وأخطأ العقاد ، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو فى العربية . . . ليس الرأى ما يقول العقاد وتوافقه عليه ... » .

وتملّكه عناده وكبرياؤه ؛ فأنشأ مقالة طويلة مسهبة يردّ بها رأى العقاد ويصرُّ على تخطئة شوقى فى رفع جواب الشرط من هذا البيت ، ويتهم المتأخرين من علماء النحو بالغفلة وقلة البصر بأساليب العربية ؛ ثم يُفيض ويسترسل فى بيان الأوجه التى يجوز رفع جواب الشرط فيها ، وما يصيب منها وما يخطئ .

وإذا لم يكن لى فى هـذا المجال أن أصرح بالرأى فيما كتب الرافعى فى هذا الموضوع ؛ فإنّ لى أن أردّ كل شىء إلى أسبابه فأزعم أن الرافعى لم يكتب ما كتب خالصاً لوجه العربية ، ولـكنها الـكبرياء والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد فى معركة أدبية ... !

ولست أكتم هنا أنّ الرافعى كان يسىء الظنّ بفهم العقاد لقواعد اللغة ؟ فما يرى له شيئاً من مثل ما كتب فى ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا اتهمه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة . وأحسبه قال لى مرة : إنّ الذى يعين العقاد فى ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الجمل !

وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشلاء ، ولـكنى أحسب أن الرافعى نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب فى الردّ على العقاد ، فبقى فى نفسه شىء يحمّسه إلى معركة جديدة ، فلم يلبث إلا قليلا ثم كانت المعركة الفاصلة ...

وحى الأربعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر ، ثم أصدر العقاد ديوانه « وحى الأربعين »

ومضى أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان ؛ ثم كان عيد من الأعياد ، فغدوت على بيت الرافعى لأهنئه ، ثم خرجنا نطوف ببيوت بعض الأصدقاء ؛ حتى انتهى بنا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسنين مخلوف . والأستاذ مخلوف أديب مطلع ، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية . فلم يكن ثمّةَ بدّ من الحديث فى الأدب ، وفى الشعر ، وفى المطبوعات الجديدة ؛ وهو حديث يحلو

للرافعي ويحنو لمخلوف ، ولو استغرق هذا الحديث سحابة يوم العيد من الضحا إلى العصر ، والبطن خاو يطلب الطعام ، ورائحة الشواء تفوح فى بيت المضيف وفى بيوت الجيران !

وسأل الرافعي مضيفه : « ماذا عندك من الجديد فى الكتب ؟ »

وضحك مخلوف وهو يغمز بعينه ويقول : « وحى الأربعين ! »

ووجد الرافعي طلبته ، فدعا بالديوان الذى يود أن يقرأه منذ أيام ويمنعه من شرائه أنه كتاب العقاد ! . . .

وجاء الديوان فوضعه الرافعي بين يديه وقال : « لست أريد أن أتجنى على العقاد الشاعر أو أحكم فى ديوانه برأى قبل أن تتهيأ لى أسبابه ؛وإنى لأخشى أن أفتح الكتاب فتقع عينى أولَ ما تقع على أردإ مافيه فأحكم على الديوان ببعضه ، وقد يكون فيه الجيد ، وما هو أجود ، وما تتقاصر أعناق شعراء العربية دون الوصول إليه . وإن بينى وبين العقاد لَسابقَ عداوة ، وأنتما بريئان من التهمة وسوء الظن : فهاكما الديوان فقلّبا فيه النظر ، وتداولا فيه الرأى ، ثم دُلانى على أجود مافيه لنقرأه معا فنحكم له أو عليه مجتمعين ، ثم يكون ما اتفقنا عليه من الرأى فى هذا الجيد المختار هو الرأى فى الديوان كله ، من غير أن يتغلب الهوى أو تتحكم الشهوة . . . . ! »

ورضينا رأى الرافعي ، فأخذنا الديوان نقلبه صفحة صفحة ، ونقرؤه بيتا بيتا ؛ والرافعي منصرف عنا إلى كتاب بين يديه ... ومضت فترة ، واستبطأنا الرافعي فيما دعانا إليه فقال : أحسبكما لم تجدا ماتطلبان ! ولن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان معا من فاتحته ؛ فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره . . .

وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه ، ووقفنا عند أشياء ، وتداولنا الرأى فى أشياء ، وكان الأستاذ مخلوف أكثرنا حماسة فى النقد ، ومضت ساعات ونحن نقرأ ، ولكل رأى يبديه ، ثم طوينا الديوان وأخذ مخلوف يتحدث فى موضوعه . . .

وقال الرافعى يخاطبه : وما دمت على هذا الرأى فى الديوان فلماذا لا تنشره إن لك لسانا وبيانا ، « وإنه لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية . . . ! »

وتردد مخلوف قليلا ثم سمع مشورة الرافعى . . . وتهيأ لكتابة نقده . . .

ومضى أسبوع ، ثم نشر « المقطم » فى صدره مقالا مجوّدا للأستاذ مخلوف فى نقد ديوان وحى الأربعين ، تناوله بأدب وهدوء فى بضعة عشر موضعا ، وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال ... ومضى يومان وكتب العقاد فى صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد ردَّه على مخلوف . . .

لم يكن مخلوف حين كتب مقاله الأول للمقطم مقدّرا أن العقاد سيتناوله بهذه القسوة ، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد . . .

لم يردّ العقاد ردّ الأديب على ناقده ، ولكنه راح يتهكم عليه ويسخر منه ويستهزئ بعلمه وأدبه ومقدرته على فهم الشعر . وإذ كان مخلوف من مدرسى اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، فإن العقاد قد انتهزها سانحة ليطعن على مدرسى اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، ويلحد فى كفايتهم وعلمهم ، ويعود بالسبب فى ضعف اللغة العربية فى المدارس على مخلوف وزملاء مخلوف ، ولم تسلم مدرسة دار العلوم التى تخرج فيها مخلوف ، ولم يسلم واحد من مدرسى اللغة العربية ، من تهكم العقاد وسخريته فى هذا المقال ، لأن واحدا منهم كتب ينقده ويحاول رده إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه . . . !

وكتب مخلوف مقاله الثانى يردّ مطاعن العقاد ، ويتمم ما بدأ فى نقد وحى الأربعين ؛ ولكن المقطم أغلقت دونه الباب ولم تنشره ، كرامة للعقاد وحرصا على مودته . . .

وغضب مخلوف وتألم ، ولكنه طوى صدره على ما فيه ... وكنا جماعةً من مدرسى اللغة العربية نصلى الجمعة كل أسبوع فى مسجد المنشاوى بطنطا ، فلقينا هناك مخلوفا فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه بالعتب القاسى ، وكلهم قرأ مقال العقاد فى الطعن على مدرسى اللغة العربية بسبب مخلوف ، وقليل منهم من قرأ مقال مخلوف . وحاول مخلوف أن يعتذر ، ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج إخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد !

وقلت للرافعى مازحا ولقد لقيته بعد ذلك : «لقد كنت أنت السبب فيما نال مخلوفا من إخوانه ، وفيما نال مدرسى اللغة العربية من لسان العقاد ؛ فأنت الذى هِجت مخلوفا إلى هذه المعركة ، فانتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانه : وكانت سببا فيما كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسى اللغة العربية ... »

وكان لمخلوف عند الرافعى منزلة ، ولدار العلوم فى نفسه مكان : ولكنه أجابنى : « وماذا علىَّ أنا فيما كتب مخلوف ، وفيما ردّ العقاد ؟ »

قلت : « لولاك لم يكتب مخلوف فيتعرض لما تعرض له من لسان العقاد ومن عتب إخوانه ، ولولا ما كتب مخلوف لبقيت دار العلوم بريئة من العيب لم يطعن فيها العقاد ولا غير العقاد ! »

وقصدت فيما قلت ـ ومعذرة إلى الأستاذ العقاد ـ أن أهيج الرافعى للكتابة عن العقاد ، فيشهد أدباء العربية معركة جديدة بين الأديبين الكبيرين يكون لهم

من ورائها نفع ومتاع ولذة... وبلغت ما قصدت إليه ، ووعد الرافعى بأن يكتب مافى نفسه من ديوان وحى الأربعين ، ولكن على شرط : أن أشترى له نسخة على حسابى من الديوان ، لأنه يأبى أن يدفع قرشا من جيبه فى كتاب من كتب العقاد . . . !

ونفذت الشرط ، وتهيأ الرافعى للكتابة عن وحى الأربعين ؛ ومضت أيام ، ثم دعانى ليملى على مقاله الأول فى نقد الديوان . . .

صدر « وحى الأربعين » فى سنة ١٩٣٣ والسياسة المصرية يومئذ تسير فى طريق معوج ، وحكومة صدقى باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوفد » ومن ورائه الأمة كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية فترن رنينا ويلقفها آلاف القراء بلهفة وشوق فى كل مدينة وكل قرية ، فلا عجب أن يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب ، وأشعر من نظم ، حتى ليئول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين لقب أمير الشعراء !

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيدالكتاب وأمير الشعراء أولا يكون ، ولكن هذه هى كانت منزلته عند الشعب يومئذ ، فلا يعاديه أحد إلا كان عدو الأمة ، ولا يعرض له أحد بالنقد فى أى منشآته الأدبية والسياسية إلا كان فى رأى الشعب « دسيسة » وطنية .

هذه هى كانت الحقيقة فى تلك الحقبة من التاريخ التى امتزج فيها الأدب بالسياسة امتزاجا جعل طائفة كريمة من الأدباء يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن ينزلوا بأنفسهم إلى معترك لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعى رجل ـ كان ـ لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه فى الأدب

وطريقته ؛ وسواءٌ عنده أكان رأيه هو رأى الجماعة أم لا يكون مادام ماضيا على طريقته ونهجه ، ولقد قدمت القول بأن الرافعى كان يتربص بالعقاد لينزل إليه فى معركة حاسمة تنقع غلته وتبرئ ذات صدره . فما إن تهيأت له الأسباب بصدور «وحى الأربعين» حتى تحفز للعراك ؛ وكان مابين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذى ألهب حمية الرافعى ، فنزل إلى الميدان مستكملا أهبته مزودا بسلاحه ، غير مكترث بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد الكاتب تقديسا أعمى فلا يفرقون بين العقاد السياسى والعقاد الأديب ... !

... وأرسل الرافعى يستدعينى إليه ذات مساء . فرحت إليه بعد العشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه «وحى الأربعين» وإن عليه عباءة حمراء فى لون عرف الديك ، وفى عينيه فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه ليبدو فى مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء . . . !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لى فيه لرأيا ؛ فهل تساهرنى الليلة حتى أملى عليك ما أعددت فى نقده ؟ »

كانت هذه أول مرة يملى الرافعى علىّ فيها من مقالاته ؛ فكانت فرصةً سعيدة لى ، أشهد فيها الرافعى حين يُلَقَّى الوحى ، وأصحبه فى سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعانى . وكانت فرصة سعيدة له : أن وجد يدا غير يده تحمل له القلم حين يكتب لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وما تعوّد قبلها أن يكتب وفى مجلسه إنسان ؛ وإن أثقل شىء عليه أن يكتب بيده ، ولكن أثقل من ذلك عليه أن يعرف أن عينا تلاحظه وهو يكتب ، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ ، متبرما

، المهمة ، ضيق الصدر بمـا يبذل فى الـكتابة من جهد ، وإن خطه لأردأ خط
تُ فى العربية ... حتى اصطفانى لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين لا يهم
ابة مقال إلا دعانى ليمليه علىّ ، حتى انتقلتُ من طنطا فعاد إلى ما كان من عادته ،
على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم يسترح إلى كاتب بعدى يشركه فى جلوة الوحى
لوة الـكتابة !

° ° °

... وجلس فأملى علىّ مقاله من قصاصات فى يده لا تزيد إحداها على قدر
كف ، فما فرغ من الإملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت لهذه القصاصات بضعا
شرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهرا من جريدة البلاغ . وكانت ليلة
ملت فيها من الجهد والمشقة مالم أتحمل فى ليلة غيرها ، فقمت منهوك القوة
ان ، وقام الرافعى فى مثل نشاط الشاب فى عنفوانه ، كأنمـا كان عليه عبء
ماه عن كتفيه ...

وكان بين البلاغ والعقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعى مودة ، فما كادت
صل إليه مقالة الرافعى فى البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم ، حتى أعلن عنها
بشر القراء أن ينشرها فى غد ... وشغلت من البلاغ ثلاث صفحات فى يومين...
كان نقدا مُرا حاميا اجتمع فيه فن الرافعى ، وثورة نفسه ، وحدة طبعه ،
حرارة بغضائه .

أستطيع أن أقول ويقول معى كثير من أدباء العربية : إن هذه المقالة هى
خير ما كتب الرافعى فى نقد الشعر وأقربها إلى المثال الصحيح ، لولا هفوات
ليلة يُعفيه من تبعتها أنه إنسان !

من قرأ « على السَّفُّود » فعابه على الرافعى وأنزله غير ما كان يُنزله من نفسه فليقرأ مقال الرافعى فى نقد « وحى الأربعين » ليرى الرأى المجرَّد فى شعر العقاد عند الرافعى . . .

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد وفيها ردّ العقاد على الرافعى ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب الرافعى حسابه ، فتغير وجه الحق ، ودارت المعركة حول محور جديد ...

كان عنوان مقالة العقاد « أصنام الأدب » فيما أذكر ، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ، والمهذار الأصم مصطفى صادق الرافعى ، وكان أكثرها سباباً وشتيمة وأقلها فى الرد والدفاع ، على أنّ العقاد لم يردّ رأى الرافعى فيما أخذ عليه من مآخذ إلا فى مواضع قليلة ، وترك الردّ فى أكثر ماعاب عليه الرافعى ، مستعيضاً عن الردّ بالشتم والسباب . . .

وإذا كان السبب مفهوما فى طعن العقاد على الرافعى وشتيمته إياه ، فأى سبب حمل العقاد على أن يشرك إسماعيل مظهر مع الرافعى فيما وجَّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يذكر أنّ إسماعيل مظهر صاحب العصور ؟ هو طابع كتاب « على السفود » وناشره ومروِّجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الردّ على مقال الرافعى الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة سانحة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعى وصاحبه الذى أغراه على كتابة « على السفود » .

وكان الباب الذى نفذ منه العقاد فى الطعن على الرافعى ، هو اتهامه فى وطنيته ، وإيهامه قراءه بأن الرافعى لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد

السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها العقاد !

إن للعقاد مفاجآت عجيبة فى النقد ، تمثل العقاد الكاتب المرن المحتال فى أساليب السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً يدفع الرأى بالرأى والبرهان بالبرهان !

وقرأت مقالة العقاد فى الرد على الرافعى ، فوجدت أسلوباً فى الرد يؤلم ولا يفحم ، ويقابل الجرح بالجرح لا بالعلاج ؛ فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافعى مُرْبَدَّ الوجه من غيظ وغضب ، مُزبد الشدقين من حنق وانفعال ؛ فسرنى أن أسعى إليه قبل ميعادى لأراه فى غيظه وحنقه وانفعاله ، فانتهزت ساعة فراغ فى الظهر ، فمضيت إليه فى المحكمة ؛ فما كاد يرانى مقبلا عليه حتى هتف بى وهو يبتسم ابتسامة المسرور ثم قال : « أقرأت مقال العقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « فماذا رأيت فيه ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلما ! » فضحك وقال : « والله ما رأيت كاليوم ! لقد ضحكت حتى وجعنى قلبى من شدّة الضحك . . . إنه لم يكتب شيئاً ولم يرد على شىء ؛ إن سبابه وشتمه لن يجعلاه عند القرّاء شاعراً كما يشتهى أن يكون ، وإن حسب أنه بذلك يكسب المعركة ؛ وقد حق عليه ما قلت فيه ، وإنه ليعترف ؛ إن فراره من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافا بالعجز ... » .

قلت : « إذن فأنت لا تنوى الرد ؟ » .

قال : « وأى شىء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ » .

قلت : « ولكن القرّاء لن يفهموا سكوتك على وجهه ، ولن يسموه إلا انسحاباً من المعركة . . . ! أفترضى أن يقال عنك ... ؟ » .

وبدا على الرافعى كأنه اقتنع ، وهاجته كلماتى مرة أخرى إلى النضال .

ومعذرة ثانية إلى العقاد !

إن معركة تدور رحاها بين العقاد والرافعى جديرة بأن يحتفل لها الأدباء وأن تنال من اهتمامهم أوفى نصيب ، وإن لهم فيها لمتاعا ولذة وفائدة ، وما كان لى أن أقنع وقد هجت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهى من أول شوط !

وقال لى الرافعى : « هل توافينى الليلة لأملى عليك ؟ » .

فواعدته : وذهبت إليه فى المساء فأملى علىَّ فصلاً من نسخته الخاصة لكليلة ودمنة بعنوان « الثور والجزار والسكين ! » ثم أتمه مقالاً فى الرد على العقاد . وكان فصلا قاسيا عنيفا ، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه ، إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب ، بل الرد والسخرية والإيلام ، ثم قطع السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدم من مواضع النقد .

ثم رد العقاد ليعلن انسحابه من المعركة شاكرا للذين أيدوه ، معتذرا من عدم الاستمرار فى مناقشة دعوى الرافعى ! واستمر الرافعى يكتب حتى فرغ .

وكان النصر للرافعى عند طائفة ، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء العقاد الكاتب الوطنى الكبير . إذ لم يروا عداوة الرافعى له فى الأدب إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد !

* * *

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعى والعقاد ، ولكن الرافعى لم يقتنع بما نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة ،

إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة ، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه لأنهم على مذهب العقاد السياسى ، فظل مغيظا محنقا إلى حين . . .

ومضت سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها ، فإذا العقاد الذى كان كاتبَ الوفد الأول خارجٌ على الوفد ، يطعن عليه وعلى رئيسه ، وأنصارُ الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة . . . ووجد الرافعى الفرصة سانحة لينتقم ، وليستخدم السياسة فى النَّيل من خصمه فى الأدب فيكيل له صاعا بصاع ويحاربه بمثل سلاحه ، فكتب مقالاً بغير توقيع فى كوكب الشرق ، جريدة الوفد ، بعنوان « أحمق الدولة » وكان مقالاً له رنين وصدى . . .

ونشر فى « الرسالة » يومئذ كلمات تحت عنوان « كلمة وكليمة » عرّض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضا أليما يؤذيه ، لم يتنبه له إلا القليل .

وكان مقاله عن العقاد فى كوكب الشرق ، وكليماته فى الرسالة ، سببا فى أن يدعوه الأستاذ توفيق دياب ليحرر فى « الجهاد » بأجر كبير : ولكن لم يتم بينهما اتفاق .

ولم تكن تسنح للرافعى سانحة لغيظ العقاد إلا انتهزها فما كتب الرافعى عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضا بشعر العقاد . ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه فى المقطم ، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفا فى الرسالة . ومقالته « بعد شوقى » معروفة مشهورة ، وكلها تعريض بشعر العقاد الذى نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر فى يوم من الأيام بعد شوقى !

* * *

والعداوة بين الرافعى والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل ، ولها أثر أى أثر فيما أنتج كل من الأديبين الكبيرين فى أدب الوصف ، ولا تدانى هذه العداوة فى الشهرة إلا العداوة بين الرافعى وطه حسين .

وأحسب أنه كان فى الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعى فى تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة . قال لى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة مرة قُبيل موت الرافعى : « وددت لو يكتب العقاد فى الرسالة ، ولكنما يمنعنى من دعوته إلى ذلك أنى لا أستطيع أن أنشر له وللرافعى فى عدد واحد ! » .

قلت : « فماذا يمنع ؟ » .

قال : « أنت تعرف أخلاق الرافعى ، وأنا أعرف أخلاق العقاد ، وإن لكل منهما اعتدادا بنفسه بإزاء صاحبه ، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر فى ترتيب النشر ؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئا ذا بال ، ولكنه مع الرافعى والعقاد له شأن أى شأن ! » .

وظل صاحب الرسالة معنيا بهذا الأمر ، حريصا على أن يجمع بين الأديبين الكبيرين فى مجلته ، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق ، حتى مات الرافعى فانحلت المشكلة ؛ ودخل العقاد ، ولكن بعد ما خرج الرافعى !

رحم الله الراحل ، ونفع بالباقى !

فـــترة جِمام

نفض الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزود ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهرا ، كان فى أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه «أسرار الإعجاز» ، ويعمل فى الوقت نفسه على جمع مانشر من المقالات فى الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتابا يسميه «قول معروف ...»

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف - لم تمنعه أن يكون له فى كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هذه الساعات المحدودة فى أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جِمام وراحة لم ينعم بمثلها فيما بقى من حياته . وكنت بصحبته يومئذٍ قريبَ العهد ، ولكنى كنت ألصق أصحابه به ؛ فكان لى معه كل يوم ساعات : يقرأ لى وأستمع إليه فى داره ، أو أماشيه فى الخلاء ، أو أجالسه فى القهوة ، أو أصحبه إلى السيما . وكان علىّ فى هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضنًّا بوقته على قراءة مالا يفيد؛ وكثيرا ما كان يدفع إلىّ بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيى فيه وأشير عليه بالجواب ، أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير فى تكوينى وتوجيهى فى الأدب توجيها لم أكن أقصد إليه ، كما تأثر هو بصحبتى فى هذه الفترة تأثرا وجّهه فى أدب الإنشاء توجيها لم يكن يُعرف به منذ نشأ فى الأدب

قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدا أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها يتّهَم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصة ـ وما تزال ـ أحبَّ ألوان الأدب إلىَّ ، على حين كان الرافعى لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملتُه على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعدُ فصار ما ينشئ من القصص هو أحبَّ منشآته إليه ، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات . . .

ومن طريف ما يذكر فى هذا الباب أنى كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أُعنى بشىء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وَقْعها عند القرّاء يدفعنى إلى الإجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئا واحدا كان يعيب علىَّ ما أكتب ، ولا يرضى منى أن تكون القصة هى كل ما أعالج من فنون الأدب ، ذلك هو الرافعى ؛ وكثيرا ما كان يقول لى : « يابنى ، إن لك بيانا وفكرا ومعرفة ، فلماذا لاتحاول أن تكون أديبا ؟ إنه لايليق بك أن تكون القصص هى كل ماتحاوله من ضروب الإنشاء ، وإن فيك استعدادا لأكثر من ذاك ... ! » وما زال يلحّ علىَّ ويكرر هذه الملامة ، حتى وقع فى نفسى أنى أسىء إلى نفسى بمحاولتى أن أكون قصصيا ؛ فانصرفت عن القصة وكانت أحبّ إلىَّ ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشئ من « القصص المدرسية » التى أؤلفها لتلاميذى على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب ، ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هى أكثر ما يعالج الرافعى من أدب الإنشاء ، وكان له فيها فَوَاقٌ وسَبْق ، وحلت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ... !

وإذ كان فى أُذُنَىْ الرافعى ذلك الوقر الذى يقطعه عن دنيا الناس ، فإن

أسلوبه فى الكتابة كان بعيدا عن فهم الكثير من ناشئة القراء ، فلما اصطفانى بالود ، أخذت على نفسى أن أكون أُذنه التى يسمع بها مايقال عنه ومايرى القرّاء فى أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملى علىّ ، حاورته فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وماتنبو عنه أسماع القرّاء ؛ ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع ؛ وكان ينكر ذلك علىَّ أولَ أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحيانا يوشك أن يغضب ، وأنا أتلطف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك منى ، فكان يملى علىّ العبارة من المقال ، ثم يسألنى: « ماذا فهمت مما كتبت ؟ » فإذا كان ما فهمت يطابق ما فى نفسه ، مضى فى إملائه ؛ وإلا عاد إلى ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ويبين المراد . وبلغ فى النهاية أن يسمينى ـ على المزاح ـ : العقل المتوسط من القرّاء ... !

* * *

لم يُنشر للرافعى فى هذه الفترة شىء ذو بال ، إلا أحاديث كان يمليها على بعض المرتزقة من كتّاب الصحف الأسبوعية . وكان له بطانة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يغدون إليه فى المحكمة ليسألوه حديثا فيملى عليهم جوابه ، ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره .

فى هذه الفترة ، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسى الورّاق تصحيح كتاب « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعى ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه ، على أن ينشره فى الجزء الأخير من الكتاب .

وقبل الرافعى هذا التكليف على قلة أجره ، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه

الناس ، وليستمتع بلذة المعاناة فى تصحيحه وتصويب خطئه : وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يقوى عليها إلا القليل من الأدباء ، ومضى فى هذا العمل شهراً أو يزيد ؛ وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التى كانت بينه وبين القدسى ، فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل . وقد استطعت فى تلك الفترة التى صحبت فيها الرافعى وهو يحاول تصحيح الكتاب ، أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه فى هذا الباب أشياء عجيبة : من قوة الحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأننى بإزاء مكتبة دقيقة الترتيب منظمة التبويب ما شئتَ من بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحيانا يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته : فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام ؛ وأكثر ما كان يقع ذلك فى الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظل الرافعى يبحث يوما كاملاً عن تمام بيت من الشعر فى مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وفجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولنى ذلك الكتاب » فمددت يدى إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلا ثم قال : « لقد وجدته . . . هذا هو البيت الذى كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبل لتصححه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر فى الكتاب الذى بين يدى : فإذا تمام البيت فيما كتبت وفى الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا فى حرف الجر . . . أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعى ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ... ؟

٭ ٭ ٭

ولم يكتب الرافعي في هذه الفترة إلا بضع مقالات ؛ وكان لكل مقال حافزه ودواعيه :

١ — كان السيد حسن القاياتي يكتب في جريدة «كوكب الشرق» كلمات في موضوعات شتى من وحي الساعة وخواطر الحياة. فبدا له يوما أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى : «ولكم في القصاص حياة...» وقول العرب : «القتل أنفى للقتل!» فانزلق إلى رأي... وكان محرر الكوكب في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو مَن هو عند الرافعي في دينه وفي أدبه وفي إيمانه بقدس القرآن... ولم يكن الرافعي يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق.

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافعي برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتي وإلى ضلاله في تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن : ودفع إليّ الرافعيُّ برسالة شاكر وهو يقول : «أتصدّق هذا؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هي مبالغة وتهويل من محمود ، أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد؟»

ثم بعث في طلب الجريدة التي نشرت هذه الضلالة فجيء بها ؛ فما كاد يقرؤها حتى أربدّ وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شدقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض متضبا إلى الدار قبل موعده. فانقطع عني يومين ثم أرسل يستدعيني إليه ، فأملى عليّ مقالة طويلة بعنوان : «كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة!»

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعي ، نشرتها البلاغ في صفحتها الأدبية ؛ وقد أورد فيها بضعة عشر رأيا في بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه «أسرار الإعجاز»

الذى لم يطبع بعد ...[1]

وقرأ القاياتى مقال الرافعى فى الرد عليه، وأحسبه قد اقتنع بما قرأ واعترف على نفسه فى خلوته، ولكنه لاذ بالصمت، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن: فلا هو ردّ عليه ولا هو اعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلق إليه ... !

وفتح مقال الرافعى أبوابا من القول لطائفة من الأدباء؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعى أن كلمة «القتل أنفى للقتل» ليست جاهلية كما يعرف أكثر قراء العربية ولكنها نشأت فى العصر العباسى لمثل ما استعملها له القاياتى فى معارضة القرآن، وأسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكثم بن صيفى ليتمّ له قصده؛ وجازت دعواه على كثير من قراء العربية حتى كشف الرافعى عن زيفها بعد ألف سنة !

كان تاريخ هذه الكلمة ميدانا للقول والمعارضة أياما بين الرافعى وبعض الأدباء؛ وكان أول من عَرَض لمناقشة رأى الرافعى هو أخونا الأستاذ عبد العزيز الأزهرى: ولكنه لم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط: فكتب إلى الرافعى رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليه بأنه مشغول البال بالاستعداد للزواج ..!

ثم تداول الرأى غيرهُ، فكتب الأستاذ الكبير «أزهرى المنصورة [2]» يرى فى تاريخ الكلمة رأيا غير ما يرى الرافعى؛ وكتب شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى؛ وطال الشدّ والجذب حول تاريخ هذه الكلمة

---

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة إتمامه فى وقت قريب. على أنى قد نشرت هذا الفصل فيما نشرت من مقالات الرافعى فى الجزء الثالث من «وحى القلم».

(٢) صح عندنا أخيراً أن الأديب الكبير (أزهرى المنصورة) هو أستاذنا وصاحب الأيادى علينا الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى نفسه: فمن شاء برهاناً على ذلك فليقرأ الصفحات الأولى من كتاب (الإسلام الصحيح).

قوة من الزمان (١)

* * *

٢ ـ وفى هذه الفترة تم إنشاء « المجمع اللغوى » وكان الرافعى يمنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه ذلك أن يكون عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلساته ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ..

وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعودا بأن يُختار فيه عضوا مراسلا كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع .

واقتتح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد

ولقيتُ الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلىّ جريدة البلاغ قائلا : « اقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوى فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه « أديب صغير » مبالغة فى السخرية والتهكم . وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس له فى العربية مكان .

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير! » قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعرا بجوابه ، ولكنى

(١) انظر قصة الكلمة المترجمة : فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجموعة مجلة الرسالة .

كذبت نفسى ... أيكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عنى ؟ لقد كان معى أمس ، وأمس الأول . فلم يحدثنى بشىء فى ذلك ؟

وقلت للرافعى : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر . . لقد حاولت فلم أوفق » وكان حسبى هذه الكلمة ليزول كل شك فى نفسى ، فما كذَب علىَّ الرافعى قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

وردّ المرحوم الشيخ حسين والى عضو المجمع ، وعاد الرافعى يردّ ويتهكم ويسخر ، ويتحدّى المجمع اللغوىَّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التى مرَّت بها كلمة (حظِىَ) حتى ساغ للمجمع من بعدُ أن يستعملها بمعنى (ظفر) فى برقية الشكر إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الشيخ حسين والى ، وظل الرافعى (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) فى نقد المجمع اللغوى : هى آخر ما كتب الرافعى فى النقد على أسلوبه وطريقته [١] .

٣ — ومما كتبه الرافعى فى تلك الفترة بحث طويل فى البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق ، لتنشره فى ذكرى المولد النبوى وقد لقى من العناء فى إنشاء هذا الفصل ما لا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن تعلم أن الرافعى لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخارى كله قراءة دارس ، وأنفق فى ذلك بضعة عشر يوما ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ فيه صحيح البخارى قراءة تلاوة ؛ فكيف به دارساً متمهلا يقرأ ليتذوّق بلاغة

---

(١) كان ممن نالهم رشاش هذه المعركة الصغيرة ، أستاذنا العلامة الشيخ عبد القادر المغربى عضو المجمع ، سلكه الرافعى ، فيمن سلك على غير قصد ولا نية ؛ لأنه اتفق له رأى فى بعض ما يجب على المجمع نشره فى البلاغ إبان هذه المعركة ، فظن الرافعى أنه يعنى بهذا المقال أن يرد عليه ، فكان للرد على الأستاذ المغربى نصيب من مقال الرافعى . تقرأ قصة (حظى بالشىء) فى تفصيل أطوار هذه المعركة ، فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجلة الرسالة ، لأستاذ جليل .

الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعى الذى كان يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متوالية لايمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه !

وكتب الفصل بعد ذلك فى ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلىّ لأكتبه بخطى ولم يمله علىّ ، فأنفقت فى كتابته ثلاثة أيام أخرى .

هذا الفصل يملأ نحو أربعين صفحة من مثل هذا الكتاب ، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن ـ لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة ـ فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه (١) .

٤ — ومافرغ الرافعى من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد مابذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد يأتى المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يعدّ لها موضوعا تنشره فى صحيفتها لمناسبة المولد النبوى كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعى ، فهم أن يلقى الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تحرّج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأفعلها قُرْبَى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بى هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أملى علىّ مقاله « حقيقة المسلم » الذى أعاد نشره فى الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحى القلم .

وله فى هذه الفترة بضع مقالات أخرى نشرها فى مجلة المقتطف . ثم دعته الرسالة ليكتب فصلا عن الهجرة فى العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣ هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله .

* * *

(١) نشر فى الجزء الثالث من « وحى القلم » .

٥ ـ بعد ما أنشأ الرافعى مقالة «وحى الهجرة فى نفسى» ، أهدى إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه «الملاح التائه» وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعى والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت فى مكتب الأستاذ صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعى يقضى أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك يلتقى الرافعى ، وصروف ، وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتدم الجدل ساعات فى موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعى ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة ـ أحبّ إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعدُ حين اتصل سببه بالرسالة ، فكان يقضى وقته بين عيادة الدكتور شخاشيرى فى فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والمازنى فى البلاغ ، وإخوان صروف فى المقتطف ، والزيات فى دار الرسالة . ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام فى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ؛ عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه «وحى القلم» .

قلت : إنه كانت بين الرافعى والشاعر على محمود طه صلة من الود . ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسما (تصميما) للبيت الذى كان فى نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعى من جهاده بضعا وثلاثين سنة ، بضعَ مئات من الجنيهات ، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتا يسكنه ـ إذ كان ومازال إلى أن مات يسكن بيت أبيه ـ وبقى معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفى نفقات البناء والإنشاء ، فآثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شىء ، وأسلف صهرَه ما بقى عنده من المال إلى أجل ، وفى النفس أمل . . ثم جاءت

الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعا لم تُبق منها على شيء ، وضاعت ذخيرة الرافعى فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعى من جهاده وما ادخر إلا الأرضُ الخربة ، والأمل فى عطف الله ، وخطوطٌ تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته ، مرسومةً على ورقة زرقاء . . . !

... وجاءه ديوان الشاعر على محمود طه ، وديوان المازنى ؛ فدفعهما إلىّ لأختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولكن رأيى فى ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهيأ للكتابة عنه . . .

وأنشأ مقالة مسهبة نشرها فى المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثا يبين مذهبه وطريقته فى فهم الشعر وفى إنشائه ؛ ثم انثنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثنى ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمنا بما كتب ، ولكن إيحاءات من الواعية الباطنة[1] كانت تملى عليه بعض الحديث فى التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول المازنى ديوان « الملاح التائه » فى البلاغ بعد ما تناوله الرافعى ، فعاب عليه أشياء كان الرافعى يمتدحها ، وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة والأسلوب ؛ فكانت مقالة المازنى حافزة للرافعى على أن ينشئ مقالة للرسالة فى الرد عليه ، جعل عنوانها « الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنّيته » ؛ فبهذه المقالة كان الرافعى يقصد المازنى ، دفاعا عن صديقه الشاعر ، أو دفاعا عن مذهبه فى الشعر . وكانت هذه أولى مقالات الرافعى فى الرسالة بعد فترة من مقالة « وحى الهجرة » ، وقد أنشأها على نهجه القديم ، وحاول فيها فنا من التهكم فى قصة اخترعها عن الأصمعى الراوية .

---

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير للرافعى عما يسمونه بالعقل الباطن .

* * *

كان الرافعى مفتوناً بمقالاته الثلاث التى أنشأها فى هـذه الفترة : البلاغة النبوية ، وحقيقة المسلم ، ووحى الهجرة . وكان حُسن وقعها عند كثير من القراء ، حافزاً له على الاستمرار فى هذا الباب من الأدب الدينى ، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفى ، ليجعلها كتاباً بعنوانه ، يتناول سيرة النبى المعظم - صلى الله عليه وسلم - على طريقة من التحليل والفلسفة ، لا على نسق من الرواية . فأنشأ بعد ذلك مقالاته : « سمو الفقر » ، و « الإنسانية العليا » ثم بان له من بعدُ أنّ هـذا الفنّ من الإنشاء عسر الهضم عند كثير من القرّاء ؛ فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع فى الحياة المصرية ، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوما فى فترات متباعدة حتى لا يملّ قرّاءه أو يُثقل عليهم ، وسأتحدث من بعدُ عن كل مقال من المقالات التى أنشأها « للرسالة » فى الفترة التى صحبته فيها ، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه ؛ ولعله يبلغ بى الوسيلةَ إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعى ثم يحاولون أن يتحدّثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن ، أو الأدب الفنى والأدب النفسى [1] ...

ولكن علىّ قبل أن أبدأ هذا الحديث ، أن أصف الرافعى حين يهم بموضوعه ، ثم حين يفكر فيه ، ثم حين يتهيأ لكتابته ، ثم حين يمليه علىّ من القصاصات المبعثرة على مكتبه ، فإن ذلك من الموضوع فاتحته وأوله :

---

(١) أنظر مقالات الأستاذ سيد قطب فى مجموعة السنة السادسة من مجلة الرسالة ، وفيها كل مادار من الجدل حول أدب الرافعى بين أصدقائه وخصومه .

كيف كان يكتب ؟

اختيار الموضوع ، كان أولَ عمل يحتفل له الرافعى ؛ وإذ كان لم يعمل فى الصحافة قبل اشتغاله بالرسالة ، فإنه لم يتعوّد من قبلُ أن يفتش عن الموضوع ، إذ لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده فى نفسه قبل أن يطلبه : فلما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، راح يلتمس الموضوعات التى تصلح أن يكتب فيها للرسالة ، فكان يضيق بذلك ويتحير ، ثم لم يلبث أن تعوّدها ، فكان يرسل عينه وراء كل منظر ، ويمدّ أذنه وراء كل حديث ، ويرسل فكره وراء كل حادثة ، ويلقى باله إلى كل محاورة ، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس ، ثم لا يهمّ أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره ، إلا أن يجد له صدى فى نفسه ، وحديثاً فى فكره ، وانفعالا فى باطنه ، وكثيراً ما كان يعرض له أكثر من موضوع ؛ وكثيراً ما كان يتأبّى عليه القول فلا يجد موضوعه إلا فى اللحظة الأخيرة ، واللحظةُ الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقال بثلاثة أيام !

فمن خشية مثل ذلك كان دائماً فى جيبه ورقات يكتب فى إحداها عنوان كلّ ما يخطر له من موضوعات الأدب ، ليعود إليها عند الحاجة ؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكرة يقيد فيها الخواطر التى تتفق له فى أيٍّ من هذه الموضوعات أين يكون ، وبلغ بذلك أن يجتمع عنده فى النهاية ثبتٌ حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها ، وورقاتٌ أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى فى أكثر من موضوع واحد ، لا تربط بينها رابطة فى المعنى ولا فى الموضوع . ومن هذه

الورقات . ومن فضلات المعانى فى المقالات التى كتبها وفرغ منها — كان يختار « كلمة وكليمة » التى كان ينشرها على قراء الرسالة فى فترات متباعدة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة . فهذه الكلمات هى إحدى ثلاث : خواطر مبعثرة كان يُلقاها فى غير وقتها ، أو عناوين موضوعات لم تتهيأ له الفرصة لكتابتها ، أو نُفاتَ من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده هذه المعانى بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعا مما كتب

وبسبب أنه كان يقيّد عناوين الموضوعات التى كان يختارها ليكتبها فى وقتها ، كان يَعِد قراءه أحيانا بموضوعات ثم لا يكتبها ولا يفى بما وعد ، لأنه لا يملك منها إلا عنوانا فى ورقة بيضاء

ومن ذلك مقالة (الفيلسوف الزبّال) التى وعد أن يكتبها حين أنشأ قصة « بنت الباشا »[1] ثم مضت ثلاثة أعوام ووافاه الأجل وما تزال مقالة الزبال عنوانا فى رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعانى التى كان يدخرها إلى يومها المؤمَّل !

ولقد وجدْتُ على مكتبه فى طنطا غداة نعيه كثيرا من هذه الورقات ، تشير إلى كثير من أمل الأحياء وإلى كثير من خداع الحياة . . . !

* * *

فإذا تم له اختيار الموضوع الذى يتهيأ لكتابته ، تركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة تهيئ له مادته ؛ ويدعه كذلك وقتا يطول أو يقصر ، يقيد فى أثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شىء مادة وَحْى ، فكأن فى كل موجود يراه صوتا يسمعه ، وكأن فى كل

(١) وحى القلم .

ما يسمعه لونا يراه ، وكأن فى كل شىء شيئا زائدا على حقيقته يملى عليه معنى أو رأيا أو فكرة .

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف — والقدر الكافى لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة — أخذ فى ترتيبها معنى إلى معنى ؛ وجملة إلى جملة ، ورأيا إلى رأى . فهذه هى الخطوط الأولى من هيكل المقالة

ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة — بعد أن ينفى عنها من الفضول ما يدخره لـ « كلمة وكليمة » أو لموضوع آخر — فينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا : يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، ويتفطر له عن كل رأىٍ رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن ، وعمل النفس ، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعى إلى القراء فى قالبها الأخير الذى يطالع به الأدباء .

* * *

لم تكن الكتابة عند الرافعى فكرةً ومعنى وعاطفة فحسب ؛ بل كانت إلى ذلك فنًا وأسلوبا وصناعة : والأدب العربى منذ كان إلى أن يُطوَى تاريخه بين دفتين هو فكر وبيان ، ما بدّ من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أدبا يستحق الخلود . ذلك كان رأى الرافعى ومذهبه : فمن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد انتظمت فى خاطره معنى وفكرة ، مقالةً تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يهيئ لها الثوب الأنيق الذى تظهر به لقرائها ؛ وهذه هى المرحلة الأخيرة .

وأول ما يعنيه فى ذلك هو بدء الموضوع وختامه ؛ لست أعنى العبارة التى يبدأ بها والتى يختم ، ولكنى أعنى طريقة البدء والختام فى الموضوع ، شأنه فى

ذلك شأن القاصّ : تجتمع له أسباب القصة بمقدمتها وحوادثها وما آلت إليه مرتّبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت : حتى إذا أراد أن يحكيها لمن يسمع أو يكتبها لمن يقرأ ، قدّم وأخّر ، وأظهر وأخفى ، وبدأ القصة بما لم تبدأ ليعقد « العقدة » ويُرصد للحل والنفسُ مستشرفة إليه متطلعة إلى خاتمته . . . وكذلك كان الرافعي يفعل فى مقالاته .

... فإذا عقد العقدة ورتب موضوعه ترتيب الفصول فى الرواية ، آن أوان الأداء فأخذ له أهبته ، فيطوى وريقاته ساعةليرجع إلى كتاب ، أىّ كتاب ، من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تتفق ، لإمام من أئمة البيان العربى ، فيعيش وقتا ما قبل أن يكتب فى بيئةعربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ فى هذا الباب ، كتب الجاحظ وابن المقفع ، أو كتاب الأغانى لأبى الفرج .

وسألته فى ذلك مرة فقال : «نحن يا بنىّ نعيش فى جوٍ عامى لا يعرف العربية ، ما يتحدّث الناس وما ينشئ كتّاب الصحف فى ذلك سواء ، واللسان العربى هنا فى هذه الكتب : إنها هى البادية لمن يطلب اللغة فى هذا الزمان ، بعد ما فسد لسان الحضر والبادية ،.. »

على أنه كان لا يُفيد من هذه القراءة اليسيرة قبيل الكتابة إلا الجوّ البيانى فقط . أما حروف اللغة وأما أساليب اللغة ، فلم تكن تعنيه فى شىء ؛ فيقرأ عجلانَ غير متلبّث كما يطالع صحيفة دورية ، حتى يفرغ من الفصل الذى بدأ ؛ ثم يطوى الكتاب ويستعد للإملاء .

وإذا كان كثير من الكتاب تزعجهم الحركة والضوضاء وتعوقهم عن الاستمرار

فى الكتابة (١) ، فإن الرافعى كان ـ على مافى أذنيه ـ يزعجه أن يمر النسيم على صفحة خده . . . كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة ، وكان لى نضد صغير إلى جانب مكتبه حيث أجلس ليملى علىّ : فكان يلذنى أحيانا والجو حار أن أفتح باب الشرفة لأتروح ، فلا تكاد تهب نسمة بجانبه حتى يكنف . وعرفتُ عادته هذه فكنت أغلق الشرفة والنافذة جميعا ، لأصلى حر الغرفة أربع ساعات أو يزيد حتى يفرغ من إملائه . وكان يؤذينى من ذلك أنى كثير التدخين : والحر والمجهود العصبى يزيدان الرغبة فيه ؛ فلا تمضى ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جو الغرفة ، فأفتح الشرفة لتجديد الهواء برهة نتبادل فيها الحديث ، ثم أعود فأغلقها ليملى علىّ . . . على أنه فى غير وقت الكتابة كان يحب أن يقضى فى الهواء الطلق أكثر وقته ، حتى فى برد الشتاء القارس ؛ فكان إذا فرغ من إملائه خرج إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبه عبًّا كما يُقبل الشارب الحرّان على الماء فى يوم قائظ . . .

ولم أكن أقاطعه حين يملى على مقاطعةً ما ، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال فى الموضوع من فصل إلى فصل ؛ فألقى إليه ما أريد أن أقوله مكتوبا فى ورقة ، لأحاوره فى عبارة أو لأستوضحه معنى ... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا ، وهو لا يرفع عينيه إلىّ ، كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير منظور ، أو كأنه فى نجوى خاصة ليس فيها سامع ولا مجيب . ولقد كان يُخيَّل إلىّ أحيانا وأنا صامت فى مجلسى والقلم يجرى فى يدى على الصحيفة وأذنى مرهفة للسمع ـ كأنه فى شبه غيبوبة يتحدث إلى نفسه والمجلس خالٍ إلا منه ، فما أنا فيه بشىء إلا

---

(١) حدثنى الأستاذ الزيات صاحب « الرسالة » أنه لا يستطيع أن يكتب فصلا من مثل ما تعود قراؤه أن يطالعوه له فى الرسالة ، إلا أن يحشو أذنيه قطنا حتى لا ينفذ إليه صوت ولا نأمة !

إدراكاً غير مجسّد ، وأحيانا أخرى كانت تتسع روحه وتنبسط حتى تشملنى ، فما أكتب كلاما يمليه علىّ ولكن تمليه نفسى على نفسى وإن صوته ليرنّ فى أذنى بما سبق إليه خاطرى . . .

ولم يكن يملى مسترسلا ، ولم يكن يملى وانيا متمهّلا ، ولم يكن فى كل أحواله سواءً : فحينا يطاوعه القول ، وحينا يتأبّى عليه فيسكت وهو يدق على المكتب بحديدة فى يده ويغمغم بصوت لا يبين : فإذا طال به الوقوف تناول كتابا أىّ كتابٍ على مكتبه ، فيفتحه فيقرأ كلمة أو سطرا أو جملةً ؛ ثم يطوى الكتاب ويعود إلى الإملاء ، ولقد يراه من يراه فى هذا الوقت فيحسبه يملى مما قرأ ، وما به ذاك ، ولكنها كانت لازمة من لوازمه تعوّدها حين يُرتج عليه وتعوّد أن يجد فيها مفتاح القول . . .

ولقد تأبى عليه القول مرة فطال به الصمت ، فمد يده إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكا : « يا أخى ، لقد تعوّدتُها وما أجد لها علة ، وتعوّدت بها أن أجد ما أريد عند أوّل كلمة أقرؤها ولو كان الكتاب معجما لغويا . . . » وكان الكتاب الذى مدّ إليه يده هو « القاموس المحيط » قلت : « ان فى بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية . . . » قال : « صه ، هذه هى الكلمة التى أريدها : المفاتيح العصبية . . . » ثم طوى الكتاب وعاد إلى الإملاء [1]

وكانت له عناية واحتفال بموسيقية القول ، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهة طويلة يحرك بها لسانه حتى يبلغ بها سمعه الباطن ، ثم لا يجد لها موقعا من نفسه فيردّها وما بها من عيب ، ليبدل بها جملةً تكون أكثر رنينا

---

(١) انظر مقالة « تربية لؤلؤية » وحى القلم الجزء الأول .

وموسيقى . وكان له ذوق فنى خاص فى اختيار كلماته ، يحسه القارئ فى جملة مايقرأ من منشآته ، وكنت أجد الإحساس به فى نفسى عند كل كلمة وهو يملى علىَّ . هذا الذوق الفنى الذى اختص به ، هو الذى هيّأه إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه فى كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة . وحَسْبُ القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعى لقوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه [1] . . . » ليرى نموذجا من هذا الذوق الفنى العجيب فى فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق فى اختيار ألفاظه عند الإنشاء . وكان إلمامه بمتن اللغة ، وإحاطته بأساليب العربية ، ومعرفته بالفروق اللغوية فى مترادف الكلام — مُعينة له عونا كبيرا على البلوغ بعبارته هذا المبلغ من البيان الرفيع . احتاج مرة أن يعبر عن معنى فى أسلوب من أسلوبه ، فتأبّى عليه القول ، فأخذ يغمغم برهة وأنا منصت إليه ؛ فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته بابا من كتاب المخصّص لابن سيده ، ثم دعا بالكتاب فأخرجتُه إليه ؛ فما هو إلا أن فتحته فوقع على مراده حتى طوى الكتاب وعاد إلى إملائه . وهو على صحة عبارته وسلامتها قلما كان يلجأ إلى معجم من المعاجم ليبحث عن كلمة أو معنى كلمة ؛ ومع حرصه على أن يكون قوىّ العبارة عربىّ الديباجة قلما كان يستعمل عبارة من عبارات الأولين ، وكم أجدّ على العربية من أساليبه ومعانيه . وكان له فى إنشاء « الكناية » إحساس دقيق ؛ وأحسب لو أن واحدا من أهل البيان أراد أن يتتبع ما أجدّ الرافعى على العربية من أساليب القول ، لأخرج قاموسا من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكاتب من كتاب العربية الأولين ، إذ كان مذهب الرافعى فى الكتابة هو أن يعطى العربية أكبر

---

(١) سمو الحب : وحى القلم ج ١ .

قسط من المعانى ويضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وقد بلغ ما أراد .

إننى لم أعرف كاتبا غير الرافعى يجهد جهده فى الكتابة أو يحمل من همها ما يحمل ؛ وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يسخر من قرائه أو يشعوذ عليهم ليملأ فراغا من صحيفته يريد أن يمتلئ ؛ على أنه أحيانا كانت تدعوه دواع إلى كتابة لم يتهيأ لموضوعها أو يفرغ له باله ، فيمليها على عجل بلا إعداد ولا توليد ، ولكنك مع ذلك تجد عليها طابع الرافعى وشخصيته ، فتعرف كاتبها وإن لم يذيلها باسمه ؛ والعجيب أن هذا النوع من المقالات التى كان الرافعى يكتبها بلا إعداد ولا احتفال كان أحبَّ إلى كثير من القراء ، وكان الرافعى يرتفع به عن منزلته درجات عند طائفة منهم ...

والشاى أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التى يطلبها الرافعى عندما يكتب ، وفنجانة أو اثنتان هما حَسْبُه فى هذا المجلس الطويل . وعلى أنه فى أخريات أيامه قد ولع بتدخين الكركرة (الشيشة) ويستعيض عنها بالدخان فى أثناء الكتابة ، فإنه لم يكن يشعل إلا دخينة (سيجارة) أو دخينتين فى مجلس الكتابة؛ فكان يشترى العلبة فتظل فى درج مكتبه شهرا إذا لم يزره فى مكتبه زائر ...

.. فإذا فرغ الرافعى من إملاء مقاله ؛ تناوله منى فطواه قبل أن يقرأه ، ثم يودعه درج مكتبه إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء ... ثم يأوى إلى فراشه ...

وأول عمله فى الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذى أملاه علىَّ فى الليل فيقرأه ويصححه .. ثم يسعى به ساعيه إلى حيث ينشر ... ويفرغ يوما لنفسه قبل أن يهيئ فكره لموضوع جديد ...

مقالة ... هى عمل الفكر ، وكد الذهن ، وجهد الأعصاب ، وحديث

النفس فى أسبوع كامل ؛ ولكنها مقالة . . . ومع ذلك فقد أنشأ كتاب « رسائل الأحزان » فى بضعة وعشرين يوما ، وكتب « حديث القمر » فى أربعين ، وكتب « السحاب الأحمر » فى شهرين . . .

وقال قائل من خصومه : « إنه يقاسى فى هذه الكتابة ما تقاسى الأم من آلام الوضع . . . ! »

وقال الرافعىُّ يجيبه : « أتحداك أن تأتى بمثلها أو بفصل من مثلها . . . وعلىَّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدتَ بسلامة الله ! »

عمله في الرسالة

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ؛ والقبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكّن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلى دائمًا أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ... »

« الرافعي »

لم يعمل الرافعي في صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل حبله بالرسالة : فإن مذهبه الأدبي لم يكن يعينه على ذلك ؛ وقد قدمتُ القول عن طريقته في الكتابة : وليس يتسع الوقت لمن يكون هذا مذهبه في الإنشاء أن يعمل في صحيفة من الصحف تظهر لقرائها في مواعيد رتيبة ...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات للهلال والمقتطف وغيرهما في فترات متباعدة إذا وجد في نفسه حافزا للكتابة ، أو إذا دعته صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقيقا بالكتابة ...

فلما دعته الرسالة إلى الاشتراك في تحريرها وحددتْ له عمله وجزاءه ، تردد في الجواب ؛ لكنه لم يلبث أن لبّى نداءها ، لعله يستعين بما يحصل له من أجر الكتابة في الرسالة على أمر من أمره ...

كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب في جامعة ليون ـ فرنسا على نفقة جلالة الملك ، ولكن الإبراشي باشا لأمر ما قطع عنه المعونة الملكية وليس بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ؛ فحمل الرافعي بذلك من الهمّ ما حمل ، إذ لم يكن له طاقة مالية تعينه على الإنفاق على ولده في فرنسا ؛ فمن ذلك أجاب « الرسالة » إلى ما طلبته ...

كان ذلك فى ربيع سنة ١٩٣٤ .

فظل يكتب لها كل أسبوع مقالة أو قصة؛ لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة، ومات وهو يتهيأ لكتابة مقالته الأسبوعية، ولكن القضاء عاجله فخلّفها على مكتبه ورقة بيضاء .. !

وسأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التى أملاها علىّ الرافعى فى الفترة التى صحبته فيها منذ بدأ العمل فى الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥ ؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالةً نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه، وإنى لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه فى نفسى ولا يتأدّى مُؤداه إلى قارئه على وجهه إلا أن أُثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعى إلى كل مقال مما أملاه علىّ ؛ وإنى بهذا الفصل لأحاول جديدا فى فن الترجمة ؛ فما أعرف كاتبا من كتاب التراجم فى العربية حفل بهذا الباب فى تاريخ الأدباء، على أن له أثرا أى أثر فى دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه ؛ فمن ذلك كانت عنايتى بهذا الباب، وإنى لأرجو أن تعيننى الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد ...

* * *

لم يكن بين الرافعى والزيات صلة مّا قبل صدور الرسالة، إلا صلة الأديب بالأديب، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا فى كتبهما ورسائلهما، ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة ؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعى، فتعارفا وآتلفا وإن لم يلتقيا وجها لوجه ... ومضت أشهر ...

وتصفّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ ؛ فإذا فيها كلمة عن « أوراق الورد » للزيات ، يجيب بها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية فى رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد . . . » رأيها فى أوراق الورد فعابتْه ونزلت به منزلة . وكان الرافعى فى هذه الأثناء بعيدا عن طنطا يصطاف فى «سيدى بشر» ، وكان علىّ فى هذه الفترة ، والرافعى فى مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف : فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردّت به الفتاة ، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه فى سيد بشر ومعه رسالة منى . . . وقرأ الرافعى ما بعثت إليه ، فانتضى قلمه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأى الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجدها صاحب الرسالة إلا نصلا من « على السفود » لا تقوى على لذعاته الفتاة الناعمة ... فطوى كلمة الرافعى ، ونشر كلمة فى الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القرّاء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة من منثور أوراق الورد . . . ولم يجب الرافعى هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر .

كانت كلمة الرافعى إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هى أوّل ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوما شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف ، وكان الرافعى يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذ كان الرافعى لا يملك أن يحسن إليه بالمال ـ والمال فى يده قليل ـ فإنه كان يحسن إليه بما يملى عليه من رسائل الأدب ، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعى !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : «لماذا لاتعالج القصة ؟»

وأملى عليه الرافعى جوابه ، فذهب فنشره فى الرسالة بعنوان « فلسفة القصة » وكان أول ما نشر للرافعى فى الرسالة[١] .

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافعى أن يكتب فصلا للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحى الهجرة فى نفسى[٢] » .

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » وكان مرجوا أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان — وطابعه غير صاحبه — أن يكون إعانة مادية لناظمه توسِّع عليه ما ضاق من دنياه . . . !

وقرأ الرافعى ديوان الأعشاب . . . ثم هزَّته أريحيته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقا لرجاء الراجين فيه وبرًّا بصاحبه ، وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالا يُعَنْونه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعانى إليه واصطنع حديثا بينى وبينه فأملاه علىَّ لينشر فى الرسالة مذَيَّلا باسمى ؛ وما كان بينى وبينه حديث فى شىء ؛ ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فسُمِّيتْ حديثا ... وأرضى كبرياءه وعاطفته فى وقت معا .

كان الرافعى فى حرج وهو يملى علىّ هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه فى الرأى وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات فى خاتمة الحديث كانت هى خلاصة الرأى فيه ؛ وبذلك برئ من الإسراف فى المدح ومن الإيلام فى النقد ، وخرج من الأمرين معا إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته ، فأجاد وأفاد فى باب

---

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .
(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٤ من الرسالة .

من القول له منزلة ومقدار .

ونشر هذا الحديث فى الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاءه البريد ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة ، يعرض عليه أن يكون معه فى تحريرها ، وسمّى له أجرا ... وقَبِل الرافعى ، وماكان له بدّ من أن يقبل ... !

وشبيهٌ بهذا اللون من الإحسان الأدبى برًّا ببعض الحاجات — مقدمةٌ كتبها لكتاب اسمه « الفاروق — عمر بن الخطاب » ألّفه مؤلّفه وهو مدرس فى إحدى مدارس الحكومة ، وسعى به إليه ليكتب له المقدمة ؛ وقرأ الرافعى الكتاب ، فلم يجد فيه ما يحفزه إلى إجابة هذا الرجاء ، فردّ الكتاب إلى صاحبه معتذرا ؛ ولكن المؤلف عاد يرجوه ويستشفع إليه : ويبسط له من حاله ويصف حاجته ... وأثّرت كلماتُه وما وصف من حاله فى نفس الرافعى ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب كلمة بعنوان « عمر » ، لم يعرض فيها للكتاب ، ولا لموضوعه ، ولا لمؤلفه : ولكنها كلمة وجد فيها المؤلّف طلبته ليصدر بها الكتاب وعليه اسم الرافعى ...

... فهذه الكلمات الثلاث : فلسفة القصة ، وديوان الأعشاب ، وعمر - وللرافعى كثير من أمثالها - هى حسنات أدبية أنشأها على أنها لون من ألوان البر والمعونة ، على مثال ما يتصدّق ذوو المال بالمال !

* * *

وكانت أولى مقالات الرافعى بعد مادعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، مقالة « لا تجنى الصحافة على الأدب ولكن على فنّيّته (١) »

وتوالت مقالات الرافعى بعد ذلك فى الرسالة ، فنشر فى الأسبوع التالى

---

(١) العدد ٥٠ سنة ١٩٢٤ من الرسالة .

مقالة « الإشراق الإلهى وفلسفة الإسلام » ، وأحسبه اختار هذا الموضوع ـ على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق ـ احتفاء بالمولد النبوى ؛ إذ كان هذا موسمه .

ثم نشر « موت أم » ، وهى صورة حية نابضة لصبْية فقدوا أمهم وما يزال أكبرهم فى الثامنة ؛ وهى صورة حقيقية مرّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه ؛ أما هذه الأم فهى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصّبية فبنوها ؛ اهتصرها الموت فى ريعانها فمضت وخلّفت وراءها أربعة ، فبكاها الرافعى بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى فى جنازة قبل جنازتها ، ودفنت فى مقبرة آل الرافعى بطنطا . ولما عاد الرافعى من الجنازة ليعزى صديقه فى داره : دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرّى عنه ؛ فكان بينه وبين عينى الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه يفيض بشتى المعانى ؛ وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ؛ وعيناه تترقرق فيهما الدموع !

وروّح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر ... ومضى يوم ثم أرسل يدعونى إليه فأملى علىّ « موت أم ! » .

وكان الأسبوع التالى موعد امتحان الشهادة الابتدائية ؛ فكانت مقالته : « حديث قطّين » ، وإنها لتتحدث بنفسها عن شىء من مناسبتها . وإن فيها إلى ذلك لشيئا من خلق الرافعى لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ؛ ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له ؛ فكان دائما باسما منبسط الوجه ، يقنع نفسه فى كل يوم بأنه فى أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذةً يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيرا يترقبه ويهيئ له ، ولعل أحدا لا يعرف أن الرافعى لم يكن يرى فى تلك العلة التى ذهبت بسمعه وهو لم يزل

غلاما ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلى الذى أملى به فى تاريخ الأدب فصلا لم يُكتب مثلُه فى العربية منذ قرون ! ولا شىء غير الإيمان بحكمة القدَر وقانون التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ماتعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعى !

هذا الخلُق هو المحور الذى كان يدور حوله الحديث الذى اصطنعه الرافعى على لسان القِطين ؛ وهو الذى حمله من بعدُ على إنشاء مقالتى : « سموّ الفقر » فى العددين التاليين من الرسالة ؛ والشىء يُذكر بالشىء ؛ فلولا ماجاء فى امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ، ما أنشأ الرافعي حديث قطين ، ولولا ما ألهمه حديث القطين من المعانى فى فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتى : « سموّ الفقر » : فنى هذه المقالات الثلاث موضوع واحد اختلف عنوانه واتحدت غايته وكانت مناسبتُه ما قدمْت . . .

وقد يسأل بعض القرّاء : ولكن ماوجه عناية الرافعى بنقد سؤال توجهه وزارة المعارف إلى تلاميذها فى امتحان الشهادة الابتدائية ، وليس الرافعى من أهل «البيداجوجيا» وليست المناسبة من الخطر بحيث تحمل مثله على الاهتمام !

وأقول لهذا السائل الحفىّ : إنّ عبد الرحمن الرافعي ـ وهو أصغر بنيه وأحبهم إليه ـ كان يؤدّى فى ذلك العام امتحان الشهادة الابتدائية (١) ؛ ومن ثمة كانت عنايته بهذا الموضوع ، وله فى هذا الباب نظائر . . . !

ثم أنشأ مقالة « أحلام فى الشارع » وقصتها أنى كنت أساهر الرافعى ليلة ، فلما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ، ومررنا فى طريقنا بدار (بنك مصر — طنطا) ، وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعى

---

(١) هو الآن ضابط من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى .

هنيهة ليشهد منظراً استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسَّدت الفتاة ذراعا وألقت ذراعا على أخيها . . . ووقف الرافعي ووقفْت . . . ورأى الشرطيّ مارأينا فأسرع إلى الطفلين . . .

وفى الغد أملى علىّ الرافعى مقالة « أحلام فى الشارع ! » .

. . . وكانت المقالة التالية « فى اللهب ولا تحترق ! » .

وهى الممثلة الراقصة المغنية ف . . . وكانت تعمل فى فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقتها فى طنطا فى صيف سنة ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافعى إلى مصيفه فى « سيدى بشر » ذلك العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بمـا قد يكون فى طنطا من أسباب الترويح والرياضة ؛ وإن فيها لغَناء وعوضا .

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعى نسمر معه كل مساء « س ، أ ، ع » وجلسنا حوله ذات ليلة . وكان متعباً مكدوداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ » .

قال أ : « إنّ فى متنزه البلدية فرقة تمثيلية هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها لمغنية راقصة ؛ أحسبها خليقةً بأن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ! »

فمطّ الرافعى شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، وأحسب أن الصديقين « أ » و « ع » كانا على رغبة مشتركة فى هذه السهرة . فمـا أحسَّا رفض الرافعى حتى قال ع :

« . . . ولـكنها راقصة ليست كالراقصات : إنها صوّامة قوّامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقلّه ، وتصلى الخمس فى مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغناءها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ... ! » .

مغنية وراقصة ؛ ولـكنها صوّامة قوّامة ... يا عجبا ! وهل فى الراقصات كهذه

التي يصفها الصديق العابث ع ؟ . . . ولكن الرافعي صدّق ، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الرافعي . واتفقنا على الرأى .

« هذه هى الراقصة التى أعنى ... » هكذا قال الصديق « ع » فاشرأب الرافعى ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت فى أعين الناس ... كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام ...

هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق اللفّاء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحالمتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع... هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتترامى إليها أمانى الشباب ؛ ولكن رجلا واحدا بين النظارة لم يكن يبصر شيئا من ذلك : رجلا لم يكن أحد - فيمن أعرف - أضعفَ منه بإزاء سحر المرأة ، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف ، وهذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس ... هى فى عين الجميع أنثى فاتنة ولكنها بعينيه قديسةٌ تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغنى ؛ وكانت بعينيه عابدة تسبّح وتصلى ... كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهى تفتنُّ فى إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرَّنوة الفاتنة ؛ وكان الرافعى ينظر فى أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله تريه مالا يراه الناس !

وانفض السامرون إلا قليلا تحلّقوا حول الموائد يقرعون كأسا بكأس ، ونهض الرافعى فيمن نهض ...

ومضى يومان ؛ ثم دعانى ليملى علىّ مقالة « فى اللهب ولا تحترق ! »

ولما فرغ الرافعى من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه « ع » يستزيده

من خبر هذه الياقوتة الكريمة ؛ ويسأله الوسيلة إلى لقائها إن كان بينهما سبب ، لعل اجتماعا بينها وبين الرافعى يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ؛ فابتسم الصديق « ع » وقد دبر فى نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل يُعجزه – وهو مَن هو – أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليمضى فى مزحته إلى النهاية ؟

وذهب « ع » يسأل عن الراقصة ويستقصى خبرها فعرف ...

لقد فرّت « الياقوتة » مع موسيقىّ الفرقة ، ومضى زوجها فى أثرهما ، فانحلت الفرقة وغادرت المدينة .

وجاء النبأ إلى الرافعى : فما عرف إلا من بَعدُ أنها كانت مزحة من الصديق « ع » ، فأسرها فى نفسه ...

وعاد الرافعى إلى المقال يقرؤه منشورا فى الرسالة وهو يضحك ويقول : « أهذا ممكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون فى اللهب ولا تحترق ؟» .

فرد الصديق « ع » قائلا : « لقد احترقت ! » .

وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها فيما قرأت من روائع الأدب العربى !

* * *

كان أكثر جلساء الرافعى فى هذه الفترة هم الأصدقاء « س . ا . ع » ، فكان لهم سره ونجواه ، وإلى موعدهم مَغدَاه ومَرَاحه ؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة ؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء فى هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه ، فهى له فى الليل مشغلة وفى النهار مشغلة .

أما « س » فكان على نية الزواج ، قد ترامت أمانيه إلى واحدة من أهله ،

ولكن التقاليد وقفت بينها وبينه موقفاً ما ، أورثه ضجرا وملالة وسخطا على الناس وتبرُّما بالحياة وخروجا على ماتواضع الناس عليه من التقاليد فى شئون الزواج .

وأما « ا . فكان فى عهد بين عهدين من حياته : قد ودّع ماضيه بما فيه من عبث ومَجَانة ، وطلّق شهواته إلى عهد يستشرف إلى مافيه من المتاع الحلال فى ظلّ الزوجة المحبوبة المخ‍تارة ؛ فسمّى زوجته وعقد عَقْدَه ، ثم وقف ينتظر اليوم الذى يبنى فيه بأهله قلقا عجلان ، واليوم الموعود لايحين لأنّ التقاليد تُبعده كلما دنا موعده ...

وأما « ع » فشاب قد انفرد فى الحياة من أهله : فقَد أمه وهو غلام ، فما كاد يستوى شبابه حتى مضى يلتمس مافقد منذ طفولته من حنان الأنثى ، فتزوّج ، ثم فقد زوجه ؛ ثم تزوج الثانية فما بقيت إلا بمقدار مابقيت الأولى ، ولكنها خلّفتْ بضعة منها بين يديه مصوّرة فى طفلة سلَبها القدرُ أمّها يوم مَنَحها الحياة !

... هو أب ولا زوج له ، وهو عزَبٌ وكانت له زوجتان ، وهو فتى يؤمن بالله ويلحد فى القدر ، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما فى المسجد وتعرف الثانية فى الشارع ؛ وله عين عفة وعين فاجرة ؛ وله فى الحياة تجربة ورأى ؛ وله إلى الهوى والملذات مثل اندفاع الشاب الذى لم يذق ولم يجرّب بعد !

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه فى الحياة ومذهبه ، ولكنهم قد التقوا فى مجلس الرافعى على هوى واحد ، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه ؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ، ولهم من حديثه حكمة الشيخ ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حى مما كتب الرافعى لقرّاء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات « قصة أب » .

ذلك هو الصديق « ع » كان الله له ... !

جلس مجلسه يوما إلى الرافعى يشكو بثه وهمه والدموع تترقرق فى عينيه ؛ واستمع الرافعى إلى شكاته متألما حزينا ؛ فلما فرغ « الأب » من قصته حتى جمع الرافعى « قصاصات » الحديث فجعلها فى جيبه وجلس يتفكر . . . ثم كانت « قصة أب » .

* * *

وفى الأسبوع التالى كان زفاف ابنته «وهيبة» إلى ابن أخيه فى حفل أهلى خاص وصفه الرافعى فى مقاله «عرش الورد» ؛ وهو عرش نظمه أخو العروس[1] لمجلس العروسين ، وجعل فيه فنَّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدّمه إليهما هدية عرس .

ولما جلس العروسان ذراعا إلى ذراع فى عرش الورد ، بارك لهما الرافعى ودعا ؛ ثم خرج ليمضى ساعات فى القهوة . ولقينى هناك وحدى ، فانتحينا ناحية على حيْد الشارع لا يترامى إلينا من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعى يؤثر أن يجعل مجلسه فى الصيف على ذلك الرصيف فى جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا » إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه فى الليل والنهار من ألوان الجمال فى الطبيعة والناس — مما يحبِّب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ، وإلى الفكر أن يُبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ...

وكان الليل نائماً يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همسٌ خافت ، وفى الجوّ شعر يهزج فى سِرار النسيم وفى حفيف الشجر ، وعرائس الخيال تُطيف راقصة تنفح بالعطر وترفُّ بالنور . . . ولكن الرافعى جلس مجلسه صامتا لا يتحدّث إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة ... واحترمتُ صمته فسكتُّ عنه ...

---

(١) الأستاذ محمود سامى الرافعى المدرس بكلية الزراعة بالجيزة .

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلىّ وهو يقول : « الليلة عرس ابنتى . . . ! »

ولم يسمع جوابى ، لأن دمعة كانت تترقرق فى عينيه وهو يتحدث حبستنى عن الجواب . . . !

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جاءنى يقول والدمع يلمع تحت أهدابه : « إن وهيبة مسافرة إلى زوجها فى أمريكا [1] ؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يومَ جاءنى بعدها يقول وفى يده صحيفة أمريكية : « انظر هذه الصورة ، إنهم يسمونه هناك : أصغر سائح مصرى فى أميركا . . . إنه حفيدى مصطفى صادق الرافعى [2] . . . »

لقد كان الرافعى يحب أولاده حبا لا أعرف مثله فيمن أعرف : ووهيبة كبرى أولاده ، ذكرها فى « الديوان » ، وغنى لها فى « النظرات » وأرّخ زواجها فى « عرش الورد » .

* * *

وكانت المقالة التالية هى : « الإنسانية العليا » .

وهى باب من القول فى الأدب الدينى تنتظم مع « وحى الهجرة » و « الإشراق الإلهى » و « سمو الفقر » تحت باب واحد . . .

. . . كان يعتاد الرافعى كما يعتاد كلَّ إنسان ، نوباتٌ من الضيق والهم تقعد به

(١) فى سنة ١٩٣٥ سافر الشابان محمود سامى الرافعى ، وابن عمه وصهره سعيد الرافعى فى بعثة علمية إلى كاليفورنيا ، للتخصص فى بعض فنون الزراعة ، ثم لحقت بهما بعد قليل «وهيبة» لتكون مع أخيها وزوجها ، فلم تعد ولم يعودا إلا بعد وفاة الرافعى !

(٢) لم يطأ هذا الرافعى الصغير أرضاً عربية إلا وقد جاوز الثامنة من عمره وارتضخ لكنة أعجمية فلا يكاد يفصح فى العربية عن معنى !

وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذى يعتاده إلا أن يقرأ قرآنا أو ينظر فى كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه ويزول ما به ، ويهون عليه ما يلقى من دنياه . . .

فى نوبة من هذه النوبات التى تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافعى كتابا من كتب الشمائل يسرّى به عن نفسه ، فاتفق له رأى . . . وخرج من مطالعته بمقالة « الإنسانية العليا » !

* * *

. . . وكان للرسائل التى ترد للرافعى فى البريد من قراء الرسالة أثر يوحى إليه فى أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه ، فهو منهم وإليهم ؛ ومنذ بدأ الرافعى يكتب فى الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة فى موضوعات شتى ولمناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحيانا فى اليوم الواحد ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرؤها جميعا ويحفظها فى درج خاص من مكتبه ؛ وللحديث عن هذه الرسائل باب آت ، وإنما يعنينى اليوم أن أتحدث عن الموضوعات التى استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة « تربية لؤلؤية »

كانت تصدر فى القاهرة فى ذلك الوقت مجلة «الأسبوع» وقد فتحت صدرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقلوبهم و . . . وشهواتهم ! وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه السماحة أن صارت ـ كما يقول العامة ـ بطن حمار ! وأصبحت ميدانا للغزل البرىء وغير البرىء ، وموعدا من مواعد التلاقى والوداع .

وفى صبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعى رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى

محاورة ناعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان فى مجلة « الأسبوع » . وبعث الرافعى فى طلب أعداد المجلة لجىء بها : فما قرأها حتى تناول القلم وأملى علىّ مقالة « تربية لؤلؤية »

فى هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعى فى حرية المرأة وحقها فى المساواة : وترى هـذا الرأى بقية فيما نشر من مقالات الزواج ، والطائشة ، والجمال البائس ، وغيرها : وهو يزعم أنه بهذا الرأى من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة . وللرافعى حين يتحدث فى هذا الموضوع حجة قوية . وبرهان ماض ، إلى روح رفافة وشعر ساحر . ولست واجدا أحدا يرد عليه فى ذلك على فئة من تجد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى المربى الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداول الرأى فى أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعى لمناسبة ما كتب الرافعى للرسالة فى موضوع المرأة ، فقال لى : « إنك لن تجد أحدا من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحدا ـ أيضا ـ يستطيع أن يصاول الرافعى فى هذا الميدان بمثل حجته وقوّة إقناعه ! »

... وأرضى الرافعى بهـذا المقال السيدة الكريمة التى كتبت إليه ، ولكنه أغضب مئات من القارئات وعشرات من القارئين : فانثالت عليه الرسائل من هؤلاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضع رسائل ...

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤية » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى الإسكندرية ليستريح يوما هناك يتزوّد فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ ... كان قد كتب مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت فى نفسه ، فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه ، فعاد ليملى علىّ مقالة « لحوم البحر » وهى قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعرى فاق

فيه الرافعىُّ وغلَب ...

* * *

كان للرافعى عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كَتب أن يسأل عنه كلَّ من يلقى من أصحابه : « هل قرأت مقالتى الأخيرة ... ؟ وما رأيك فيها ... ؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأى فيها بالنقد ... ؟ »

وكان يعتدّ كثيرا بمقالة « تربية لؤلؤية » ، ففى ذات مساء بعد نشر تلك المقالة قصد إلى القهوة ليريح أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء « س . ا . ع [1] » ؛ فما كاد يستقرّ به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت ... ؟ ما رأيك ... ؟ هل يملك أحد ... ؟ »

كان للرافعى فى كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى ، وكان لكل واحد فى نفسه حقيقة ، ولهم فى الحياة نظرات تغترب وتقترب ؛ وكلهم قد حُرموا المرأة لونا من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم فى المرأة رأى ؛ مما تخيَّلها ، أو مما كابدها ، أو مما شقى بها !

والرافعى رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب ويوشك أن يكون جدّا ؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقرى إلى ماضى شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب فى المرأة والحب والزواج . وهؤلاء الأصدقاء ـ على ما قدمتُ من نُعوتهم فى أول هذا الفصل ـ تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف أسبابها ؛ ومايزالون فى باكر الشباب وفى يقظات الحلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعا من المراس : فى وهمه أو فى حياته ...

---

(١) «أ» و «ع» هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ، وكانا زميلى الرافعى فى محكمة طنطا ؛ أما « س » فما أحسب القراء فى حاجة إلى أن يعرفوه !

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنونا ؛ وساقهم الرافعى بحسن احتياله إلى هدف يرمى إليه ... فما انقضَّ المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعى ليجيبوه كتابة عن أسئلة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزموا الصدق ، ويجانبوا الحياء ، ويُخلصوا فى الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هى :

كيف ترى المرأة فى وهمك ؟ وأين مكانها من حياتك ؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها ؟ لماذا لم تتزوج ؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم ؛ فمنها كانت مقالة الرافعى « س . أ . ع » وهى أولى مقالاته فى الزواج ؛ ثم تتابعت مقالاته فى هذا الموضوع . فخطا بها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سدٌّ منيع .

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام ، جاءته رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه فى أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبعث يهم أن يصدره فى كتاب... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعى إلى الكتابة فى هذا الموضوع . وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جوابا فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ؛ ولم أقرأه منشورا منذ أرسله إلى طالبه .

بدأ كثير من الشبان يهتمون بما كتب الرافعى ؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَب ، وتضاعفتْ رسائل القراء إليه ، وطال الجدل فى موضوعه بين طوائف من الشباب فى مجالسهم الخاصة ...

فلما كانت أيام بعد مقالة « س . أ . ع » جاء إلى مجلسنا فى القهوة شاب من أصدقائنا المتأدبين ، هو الأستاذ إسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع

بالأدب وشهوة فى الجدل ، وفيه إلى ذلك لين فى الخلق وشذوذ فى الطبع :
وكان الرافعى يعرفه عرفاننا ، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة . . . فمال
عليه يسأله ضاحكا ...

وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ؟ وما يحملنى على هذا العنت ؟ أتريدنى
على أن أبيع حريتى من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال .

وتم للرافعى موضوعه ، فأملى علىّ فى اليوم التالى مقالة « استنوق الجمل » !
فى هذه المقالة يجد القراء سببا آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ماقدم
« س . أ . ع » فى المقالة السابقة ؛ فهى الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعى بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعا ليستجم ، ولمّ من هنا
ومن هناك طائفة من منثور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان « كلمة وكليمة »
وهى عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة فى الفكر ولا فى
الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه .

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصار التى كان الرافعى ينشرها بعنوان
« كلمة وكليمة » ؛ فحسبى هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكليمات ودوافعها :

فى هذه الكلمات التى نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب .
وهذه من فضلات المعانى التى اجتمت له فى مقالات المرأة والزواج ولم يجد
لها موضعا مما كتب . . . وفى هذه الكلمات رسائل إلى « فلانة » من تلك
الرسائل التى قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعى . وفيها كلمات
عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التى كانت فى مصر
لذلك العهد ، وحكومة صدقى تحتضر ...

فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من « كلمة وكليمة » .

* * *

كان بين الرافعى والإبراشى باشا ما قدمت الحديث عنه فى بعض الفصول السابقة ، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعى الشاعر بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفى ... وسارت الخصومة بين الرافعى والإبراشى إلى مدى ، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعى مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب فى جامعة ليون !

وضاقت نفس الرافعى بهذا اللون من ألوان الكيد ، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه ؛ وألزمته الضرورةُ أن يقوم بالإنفاق على ولده حتى يبلغ مأمله ، على قلة إيراده وضيق ذات يده ؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر مايقدر عليه وفى نفسه أن يأتى يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله ! ووجد الفرصة سانحة لذلك فى عيد الجلوس الملكى سنة ١٩٣٤ ، فأنشأ كلمة بليغة فى تحيته بعنوان « آية الأدب فى آية الملك » وأرسل بها إلى الرسالة لتنشر فى العدد ٦٦ سنة ١٩٣٤ (١)

كانت حكومة الإبراشى يومئذ فى الاحتضار ؛ وقد تنبه الشعب وتهيأت نفسه لحادث منتظر يردّ إلى الأمة سلطانها الذى فقدته منذ تولى الإبراشى باشا رياسة الديوان الملكى ، وكانت الجرائد السياسية تتحدث فى كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة القصر وحقوق الأمة . وفى مثل هذه الحال لا يمكن

---

(١) كان عيد جلوس الملك فؤاد الأول ـ رحمه الله ـ فى ٩ أكتوبر ، وكان موعد صدور هذا العدد يوم ٨ أكتوبر ١٩٣٤

أن تُقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين ، ما دام هناك رأى بإزاء رأى ، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك . . .

. . . ولكن الرافعى لم يعتبر شيئا من ذلك حين أنشأ « آية الأدب . . . » ولم يقدّر ما يمكن أن تؤول إليه كلمته عند من يقرؤها من أهل السياسة ؛ إذ لم يكن له من العلم بالسياسة ما يؤهله لأن يفهم ذلك . . . !

والرسالة صحيفة أدبية تحرص على رضا قرائها جميعا على اختلاف رأيهم فى السياسة ، فإن صاحبها ليتوقع ما يمكن أن يوجَّه إليه من التهمة لو أذن بنشر هذا المقال فى صحيفته ؛ فما هو إلا أن سلمه إليه ساعى البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليلقى الرافعى ويحدثه من حديثه . . .

والتقيا . . . وفهم الرافعى ما عناه صاحبه ، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صبيحة عيد الجلوس ، وقرأه من قرأه . ثم كانت آخرة العهد الإبراشى بعد ذلك بشهر واحد فكتب من كتب من خصوم الرافعى يعدّد فيما يعدّد من « جناية الإبراشى على الأدب » أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة ويسخرهم للإشادة بحكم الفرد ؛ وكان الرافعى عنده من صنائعه ، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال [1] !

* * *

وأرسل الرافعى إلى الرسالة بديلاً من هذا المقال ، مقالاً آخر بعنوان « أرملة حكومة » وكان يعنى به صديقنا الأديب المهندس محمد . أ . وهو شاب من « أدباء القراء » أبيقورى المذهب صريح الرأى : سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج ،

---

(١) انظر ص ١٥١ من هذا الكتاب .

وبينه وبين الأستاذ إسماعيل خ صاحب « استنوق الجمل » صلة من الودّ ، وشركة في الرأى ، وصحبة في البيت والندىّ والشارع ...

لقِينا مجتمعين في القهوة اجتماعنا كل مساء ، فعاج يسلم ثم جلس ، وسأله الرافعى : « . . وأنت فلماذا لم تتزوّج ؟ » .

قال المهندس : « لست والله من رأى صاحبي فيما حدثكم به أمس ، إنى لأريد الزواج وأسعى إليه : ولكن من أين لى . . . من أين لى المهر ، وهدايا العروس ، وأكلاف الفرح ؟ إنّ الزواج عندى ليشبه أن يكون معجزة مالية لا قِبل لى بها . . . ! ولو قد عرفتُ أنّ هذه المعجزة تتهيأ لى بالبخل على نفسى والقصد فى نفقاتى وباحتمال العسر والمشقة على نفسى وعلى مَن حولى — لما وجدت ما يشجعنى على هذا الاحتمال إنى لأعرف من بنات اليوم ما لا يعرف غيرى ، أفتريدنى على أن أحتمل العنت سنتين أو ثلاثاً حتى يجتمع لى من المال ما يجتمع ، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لى منها شقاء النفس وعدوّ العمر ؟ » .

وقال الرافعى . . . وقال الشاب . . . وطوى الرافعى ورقاته وقد اجتمع له موضوع جديد . وتهيأت له الفكرة تامة ناضجة فأملى علىّ مقاله « أرملة حكومة » وبعث به إلى الرسالة فى البريد المستعجل ليدرك موضعه فى عدد الأسبوع بديلا من « آية الأدب ... » .

وقلت للرافعى وقد فرغ من إملاء هذا المقال : « أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به ، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أمليتَ علىّ ، لقد صدق ؛ فمن أين له . . . من أين له هو ... ؟ إنه لحرى أن يُوجَّه العتبُ والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه

التقاليد التى تفرض على الشاب الذى يريد الزواج ما لاطاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية ! » .

فضحك الرافعى وقال : « أتراه كان يتحدث بلسانك ... ؟ لقد أخفيتَها عنى يوم سألتُك ؛ وليس ثمة مايمنعنى أن أصحبك غداً إلى حميك لأطلب إليه أن يعفيك من هذه المعجزة المالية » .

ومضت أيام ، ثم دعانى ليملى علىَّ « قصة زواج » . وكانت هذه القصة هى جوابَ ماسألته تأخر إلى ميعاد . وكانت هى أول ما أنشأ الرافعى من القصص لقرّاء الرسالة .

قصص الرافعي

أراني وقد بلغت هـذا الحد ، مسئولا أن أتحدث عن قصص الرافعي ، وكيف كان يؤلفها ، وأول ما عالج منها ، وطريقته فيها .

لم يعالج الرافعي القصة ـ فيما أعلم ـ قبل قصة سعيد بن المسيّب إلا مرتين : أما أولاهما فني سنة ١٩٠٥ ، وكانت مجلة المقتطف قد سبّقتْ بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية ، فأنشأ الرافعي قصته الأولى وكان عنوانها « الدرس الأول فى علبة كبريت » ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان « السطر الأخير من القصة[1] » وسأتحدث عنها فى موضعها.

أما القصة الثانية : فأنشأها فى سنة ١٩٢٥ بعنوان «عاصفة القدر» ونشرتها المقتطف أيضا [2] . ثم كانت قصة سعيد بن المسيب فى سنة ١٩٣٤ .

على أن ثمة فرقا بين هذه القصة والقصتين الأوليين ؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاء ، فلم يعتمد فيهما على حادثة فى التاريخ أو حديث فى كتاب ؛ أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد فى التاريخ فلم يكن له فى إنشائها إلا بيان الأديب وفن القاص ، وكانت نواةً فمهد لها واستنبتها فنمت وازدهرت . وفى الأدب القديم نوَيات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبه لهـا الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة فى العربية ، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معينا لا ينضب كان حريًّا بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا فى العربية فنًّا جديدا من غير أن

---

(١) الرسالة : العدد ٧٨ سنة ١٩٣٤

(٢) المقتطف : ديسمبر سنة ١٩٢٥

يقطعوا الصلةَ بين ماضينا وحاضرنا فى التاريخ الأدبى ؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد ، وإلى مثل هذا ينبغى أن تكون دعوة المجددين ، لا إلى الاستعارة والاستجداء من أدب الغرب والجرى فى غبار كتابه وشعرائه .

... أقول : إن الرافعى لم يكن يعرف عن فن القصة شيئا يحمله على معالجتها ويغريه على العناية بها ؛ وقد قدمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من الأدباء على معالجة القصة ولا يراه أهلا لأن يكون من أصحاب الامتياز فى الأدب ؛ إذ لم تكن القصة عنده إلا ضربا من العبث ولونا من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغى أن تكون هى كلَّ أدب الأديب وفن الكاتب . وقد كان يعيب علىّ لأول عهدى بالكتابة أنى لا أكاد أكتب فى غير القصة ، وأنى أجعل بعض همى فى دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتاب فيها ، وكان يرى ذلك منى تخلُّفا وعجزا ونزولا بنفسى غير منزلتها بين أهل الأدب !

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة فى قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب ؛ كما يشاهد رواية فى السيما أو يقرأ حادثة فى جريدة . وأحسب أنه كان يعتقد ـ على أنه كان لا يعرف التواضع فى الأدب ـ بأنه لا يحسن أن ينشئ قصة ولا ينبغى له . وأحسبه أيضا حين أنشأ قصة سعيد ابن المسيب لم يكن يقصد إلى أن تكون قصة ، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه ...

والحقيقة أن الرافعى كان يملك طبيعة فنية خصبة فى القصة ، يعرفها من يعرفه فى أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوى

من الحديث وينشر ، ويكتم ويورى ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجد ؛ ويطوى النادرة إلى آخر الحديث ، ويقول فى آخر المقال ما كان ينبغى أن يكون فى أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقُّر المصنوع ؛ وإن له فى هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهانا على ذلك ؛ فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة .

... وهذه هى كل أدوات القاص الموفق : فما ينقصه إلا أن يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرّزين . ولكن الرافعى كان يجهل طبيعة نفسه ، وكان له فى كتَّاب القصة ماقدمت من الرأى ، فكان تخلّفه من هذين !

وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك ، لم يكن له مذهب فنى خاص يحتذيه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى مارسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها ؛ فإننا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصةً له وحده ، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص ؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلّف ، أو ابتكار وتجديد .

وطريقة الرافعى فى كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القُصاص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته فى أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر فى الحادثة أول ما يفكر ، ولكن فى الحكمة والمغزى والحديث والمذهب الأدبى ثم تأتى الحادثة من بعد ؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من

القصص ، جعل همه الأول أن يفكر فى الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ - على طريقته فى إنشاء المقالات - فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى فى تحديد الفكرة إلى ما يريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر فى أسلوب الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدى موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة : فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد ؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه فيقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى أعده من قبل : وإنه ليلهم أحيانا ويوفق فى ذلك توفيقا عجيبا ، حتى تأتى القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها فى سطور ، أو إلا أسماء الرجال ... ...

على أن البديع فى ذلك هو قدرة الرافعى - يرحمه الله - على أن يعيش بخياله فى كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة من قصص الرافعى فى أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء .

وأحسب أن الرافعى لم يتخذ هذه الطريقة فى تأليف القصص عن عمد واختيار ، فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها - ورأيه فى القصة رأيه - ولكنه مذهب اتفق له اتفاقا بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتّى له ذلك من طريقته التى أشرتُ إليها فى الحديث عنه عندما يهم بالكتابة ؛ فقد أسلفت القول أنه كان يحرص على أن يعيش وقتا ما قبل الكتابة فى جو عربى ، فيتناول كتابا من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلا مّا قبل أن يشرع فى إملاء مقاله : فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه فى القصة ، ولكل شىء سبب ، وأحسبه لما همّ أن يكتب عن

« المعجزة المالية » فى تقاليد الزوج وعن فلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة فى ذلك ، تناول ـ كعادته ـ كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر ، فاتفق له فى مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبى وداعة ؛ فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدا له أن يؤدّى موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعانى ليملى علىَّ هذه القصة قال لى فى لهجة الظافر :

« ... لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا لا أعرف أبلغ منه فى موضوعه ... » ، فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب فى القصة كان اتفاقا غير مقصود صادف طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا .

وأكثر قصص الرافعى من بعدُ على هذا المذهب . على أن لكل قصة من هذه القصص ـ أو لأكثرها ـ أصلاً يستند إليه من رواية فى التاريخ أو خبر مهمل فى زاوية لا يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعى الفنية وإحساسه ويقظته ؛ على أن أهمَّ ما أعانه على ذلك هو عندى صلتُه الروحية بهذا الماضى ، وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه ؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضى قلبا ينبض كأن له فيه ذكرى حيةً من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره ؛ فما يقرؤه تاريخا كان وانطوت أيامه ، ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحىّ بين أهله ، فما أهون عليه بعدُ أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء !

وقد كنت على أن أردَّ كل قصة من قصص الرافعى إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول ، ليكون النموذج واضحا لمن يريد أن يحتذى الرافعى ليتمم ما بدأ على مذهبه فى تجديد الأدب العربى . ولكنى وجدت ذلك أشبه بأن يكون فصلا من الأدب ، ليس موضعه فى هذا الكتاب

عود على بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد . أ . إلى الرافعى من أسباب عزوبته ، أن الزواج عنده حظ مخبوء ، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة فى سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخرة ذلك أن يجلوا عليه فتاة دميمة لا يجد فى نفسه طاقة على معايشتها مابقى من حياته ، أو فتاة فاسدة التربية لا يدخل بها على زوجة ولكن على معركة . . .

وقد ظل هذا القول عالقا بذهن الرافعى يلتمس الوسيلة إلى تفنيده والرد عليه ، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن « كاتب ابن طولون » فأنشأ مقالة « قبح جميل » وهى القصة الثانية مما أنشأ الرافعى لقراء الرسالة ، وهى الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته فى الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سوداء ولوذ خير من حسناء لا تلد ! » يسلك هذه المقالة فى باب « الأدب الدينى » الذى أشرت إليه فى بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هى قصة « رؤيا فى السماء » وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب ، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى ، وتدعو إليه الدعوة الإنسانية التى تعتبر الزواج بابا من الجهاد لسعادة البشرية كلها . . .

فى هذه المقالة ، لا أعرف سببا خاصا من مثل ماقدمت دعاه إلى إنشائها ، ولكنها جملة الرأى وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ، فهى من الموضوع كالهامش والتعليق ، أو الحكم بعد المداولة ، أو هى الصفوة الصريحة بعد ما يذهب الزبد وتنطفئ الرغوة . . .

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب المرحوم فليكس فارس ؛ وكانت هى أول الصلة بينه وبين الرافعى ثم اتصل بينهما الودّ .

* * *

لما أنشأ الرافعى « قصة زواج » تحدّث بها الأدباء فى مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجبين مستزيدين ؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه ... فاستزاد واستعاد ، والتزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد .

وجلست إليه ذات مساء نتحدّث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلىّ طائفة من رسائل القرّاء : « اقرأ ياشيخ سعيد ... أرأيت مثل هذا ؟ أيحق لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب فى موضوعه ؟ أيملك كاتب أن يردّ علىّ رأياً من الرأى ؟ » .

ومضى فى طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فعرفت أنه فى لحظة من تلك اللحظات التى تتنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شىء مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضعف الإنسانى فى طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوّة فى النابغين من أهل الآداب والفنون ! ذلك الإيمان الذى نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ، ونسميه فى النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعورا بالقوّة !

وكان يلذنى فى أحيان كثيرة أن أشهد الرافعى فى مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإعجاب بالنفس ، وأجد فى ذلك متاعا لنفسى وغذاء لروحى : لأنّ الرافعى بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعا ، فلا تشهده فى مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته

كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعانى ، وكأنما هو يُعدى سامعَه من حالته فيحس فى نفسه قوة فوق قوته وكأنّ شخصاً جديداً حلّ فيه ...

... وسرنى أن أجد الرافعى كذلك فى تلك الليلة ، فأصغيت إليه ومضى فى حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى دارى ، وسوس لى الشيطان أن أعابثه بشىء ... فكتبتُ إليه رسالة بإمضاء (آنسة س) أردّ عليه رأيه فى قصة سعيد ابن المسيب ، وأعيب ماصنع الرجل بابنته ، وعمدت فى كتابة هذه الرسالة إلى تقليدأسلوب منأسلوب الدكتور طه ، يعرفه قرّاء الرسالة ويعرفه الرافعى ...

وبلغته الرسالة فقرأها ، فنبهته إلى ما كان فيه من أمسه ؛ ووقع فى نفسه أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موحَى إليه بما كتب ، فتحمس للرد ، وأنشأ « ذيل القصة وفلسفة المهر » وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخرية لاذعة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر .

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلىالرافعى يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على مابينالرسالة والدكتور طه من صلات الود ... وكانله ماطلب ، فنشرت المقالة فى موعدها خالية من هذا الجزء ، ولكنها لم تخلُ من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة ؛ وكذلك نُشرت من بعدُ فى وحى القلم . .

* * *

ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهى السابعة من مقالاته فىالزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه « الزبال الفيلسوف » الذى تحدّث عنه فى هامش هذه المقالة

وهذه المقالة فيما ترمى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » ، فهى دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد فى شئون الزواج ، وفيها إلى ذلك شىء من الحديث عن « فلسفة الرضا » التى أسلفت القول عنها فى « حديث قطين » .

أما هذا الزبال الذى نوه به الرافعى فى أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة فى « بلدية طنطا » وكان عمله قريبا من دار الرافعى فى الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله فى الكنس والتنظيف اتخذ له مستراحا على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الرافعى ، فيقضى هناك أكثر أوقات فراغه ، نائما أو محتبيا ينظر إلى الرائحين والغادين من أهل الثراء والنعمة ، أو شاديا يصدح بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فيأكل مما فيه ، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبْوته يتأمل . . .

كان هذا الزبال صديق الرافعى ! بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الرافعى يسميه « أرسطو الجديد » . وأول هذه الصلة بينهما أن الرافعى كان يلذه أحيانا أن يجلس على كرسى فى الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث اتخذ الزبال « محله المختار » ، فكان يوافقه فى مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يبتسم ، ثم يجلس ، وكان يحادثه أحيانا فى بعض شئونه يلتمس بعض أنواع المعرفة . . . ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لتحيته إذا حضر ؛ وصار بعض عادات الرافعى من بعدُ أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشترى له كلما لقيه ، دخائنَ بنصف قرش ، مبالغة فى إكرامه ...

وكان الرجل أميا ، ولكن الرافعى كان يفهم عنه من حركات شفتيه ، وأحيانا

يستدعى بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوبا فى ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الرافعى يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث ، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالمه !

ومما كان يدور بين الرافعى وصديقه هذا من الحديث ، عرف الرافعى طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها ، وطائفةً من الأمثال ؛ ونبهه ذلك من بعدُ إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها ومواردها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الرافعى من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعى » معانى وأفكارا جديدة فى فلسفة الرضا لم تلهمه بها طبيعته .

ولهذا الزبال صَنع الرافعى أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التى نشرها لقراء الرسالة فى العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحنا يناسبها .

وقد كان فى نفس الرافعى أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلا بهذه المقالة احتفالا كبيرا ، حتى إنه همّ بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج ؛ وقد هيأ لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهيأ له من الخواطر فى موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أعجله عن تمامها ، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلّف من الأوراق .

* * *

لم تكن قصة « بنت الباشا » هى آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ فى هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقى عنده طائفة من المعانى والخواطر فى

موضوع الزواج والمرأة ، جاءت مبعثرة فى طائفة من المقالات من بعد : ومنها مقالة « احذرى » وهى قصيدة من النثر الشعرى مترجمة عن الملك ، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان فى مقالة « لحوم البحر » .

وكان الرافعى فى هذه الفترة قد اصطنع مودّة بينه وبين طائفة من الشبان اللاهين ، كانت تجمعهم قهوة « لمنوس » فى طنطا للعبث واللهو والمجانة ، فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم فى شئون المرأة والزواج :

وقد قدمت القول فى بعض ماسبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعى كان سريع الالتفات إلى معانى المرأة ، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ، حتى لتراه وهو يستمع إلى محدّثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة مايسمع ، وأنه يشهد حادثة لا حديثا ؛ ثم يزيّن له خياله مايزين فيضيف من وهمه إلى ماسمع مالم يسمع ؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق : يجد حديث الغزل والحب حريقا فى دمه وثورة فى أعصابه لا حديثا فى أذنيه ... فيستزيد مما يسمع وهو صاغٍ ملذوذ ، فيحمل محدثه بذلك على الإطناب والاسترسال حتى ينفض جملة مافى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال ... !

وعلى شدة إحساس الرافعى بمعانى « الجنس » إلى هذا الحد ، كان بإيمانه وخلقه وتدينه واعتصامه بالوحدة ـ قليلَ الخبرة ضئيل المعارف فى هذا الباب ؛ فكان له علم جديد فى كل مايسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل ؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة ، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعى الذى يعرفه القراء .

من أحاديث هؤلاء الفتيان ، كان إليه وحى المعانى فى قصيدة « احذرى » :

كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعانى وكثير من الموضوعات ؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ماتنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

* * *

وكان الرافعى يختلف فى طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان ، كان بينه وبينهم صداقة ومودّة ؛ فكان يزورهم بين أهليهم ، فيكرمونه ويتسعون له ويحفّـون به ؛ والرافعى محدّث لبق ظريف المسامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه ... وفى بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير مانعرف فى بيوتنا ، فكان الرافعى يجد هناك جوا يوحى إليه ويمده بعلم جديد .

وأنا لم أصحب الرافعى فى طنطا إلى « زيارة مصرية » إلا فيما ندر ، على أنى كثيرا ما كنت أصحبه فى تلك الزيارات !

وأعترف بأن الرافعى لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيرا ممن كان يزورهم ويزورهن كن يعرفن له ذلك فيهيئن له أسبابه . وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجالٍ فى مصر !

وقد صحبته مرة إلى زيارة أسرة الآنسة «ق» وهى فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألحّ علىّ يومئذ إلحاحا شديدا أن أصحبه ، ولم أكن أعلم مايقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعا من متاع أهل الفن .

وكنت فى ذلك اليوم صانعا أغنية عامية فى معنى من معانى الشباب تعبّر عن حال من حالى فى تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافعى لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها

وجعلها فى جيبه ...

. . وصحبت الرافعى إلى حيث يريد ، فاستقبلتنا الفتاة وأمها وشاب من قرابتها ، ثم لم يكد يستقرّ بنا المجلس ، وأهل الدار حافون بنا يبالغون فى إكرامنا ، حتى أخرج الرافعى الورقة من جيبه فدفعها إلى الفتاة ...

وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردّتها إلى الرافعى وهى تقول : « جميلة ! شعر عاشق ! » .

قال الرافعى وهو يشير إلىّ مبتسما : « إنها أغنيته ! » .

قالت : « إيه . . . ! أعاشق هو ! » .

قال الرافعى : « نعم ! . . . ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! » .

ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتنى الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعى إلىّ نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بى من الحياء أضعاف ما بالفتاة . . . وكانت دعابة غير مألوفة ولا منتظرة ، أوقعتنى فى كثير من الحيرة والارتباك . . .

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »

وردّد الشاب صدى صوتها يقول : « . . . رقيقة ! » .

وثبتُّ فى مكانى لا أتحرّك ؛ ولا أرى أمامى غير تلك الابتسامة الخبيثة على شفتى الرافعى . . .

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدّمته إلىّ ؛ ثم إلى الرافعى ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبى ... وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت فى مجلسى لا أكاد أفهم مايدور حولى من الحديث !

وجعلت أسائل نفسى وأكاد أنشق غيظا : « ترى ماذا حمل الرافعى

على هذا القول ... ؟ » .

فلما انفض المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعى مغضباً أسأله جلاء السر ، فضحك ملء فمه وهو يقول : « قصة طريفة ... لقد عقدنا العقدة فانظر فى طريقة للحل . . . سيكون فصلا أدبيا ممتعاً يا شيخ سعيد ، تكون أنت مؤلفه وعليّ أن أرويه ؛ لقد سئمنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى بعض الحقيقة ... »

وغاظنى حديث الرافعى أكثر مما غاظنى الذى كان منه ، فتمرّدت عليه ، ولكن الرافعى عاد يضحك ويقول : « أتراك - إن أبيت - تستطيع أن تمنع نفسك الفكر فيها وأن تمنعها ؟ لقد بدأت القصة فما بدٌّ من أن تكون لها خاتمة ! »

وضقتُ بهذه الدعابة وثارت نفسى فأخشنتُ القول ؛ فزاد به الضحك وهو يقول : « وهذه الثورة أيضاً هى فصل من فصول هذه الرواية ... ! »

وأعدانى مرح الرافعى وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُّ على غيظ ضاحك . ولقيتُ الفتاة بعدها مرتين فتناسيت ما كان ولم أسأل نفسى عن شىء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جاءنى الرافعى يوما يقول : « إن بينك وبين صديقنا الأديب ج لشيئا ! » قلت : « ماذا ؟ »

قال : « أحسبه يغار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فإنه لا يعلم أنّ بينكما عاطفة ... ! »

وقال لى حَمِيَّ ولم تكن ابنته فى دارى بعد : « أتراك كنت مع الرافعى أمس فى زيارة فلانة ؟ » فتوجست من سؤاله شيئا . . .

وكادت تكون قصة كما أراد الرافعى ولكنى حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

* * *

. . . من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الرافعى موضوعاته ويبدع معانيه فى

المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التى كان يصطنعها أو يسعى إليها ويهيئ أسبابها ، كانت تنجلى له الفكرة ويومض الخاطر وتتشقق المعانى ؛ ومن هذا الجو زخرت نفسه بالعواطف النابضة التى ألهمته من بعدُ أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص : الأجنبية ، وسمو الحب ، والله أكبر ، واليمامتان ، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يملى عليه القصة والموضوع ، إنما كان يمده بالمعانى والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه ؛ فما تزال هذه الخواطر والأفكار مضمرة فى الواعية تزيد وتتوالد وينضم شىء منها إلى شىء حتى يأتى وقتها ؛ فإذا همّ بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعانى انثيالا حتى يتم الموضوع تمامه على مايريد .

☆ ☆ ☆

ولما قص الرافعى قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله فى الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل فى الرسالة وماعاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمتْ به ، وأحس فى نفسه شعوراً جديدا ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه فى الفراش بما يحمل فى صدره من هم وما يضنى جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعته قوتان . . . وهمّ أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار فى العمل ... وطال الحديث بينه وبين نفسه فأرّقه ليلة . . .

وتركته ورحت إلى دارى وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالى دعانى ليملى علىّ « قلت لنفسى ... وقالت لى ... » .

من أراد أن يعرف الرافعي العرفان الحق ، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة .

إن غاية ماينشده الباحث عند مايهم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمر نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولكنّ هاهنا إنساناً يتحدّث عن نفسه وتتحدّث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ .

وأشهد أني رأيته قبل أن يملي عليّ الحديث وأن في وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاما ؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصوّر معركة في حكاية وصف : هذه هي هذه ، وكانت حركاتٍ صامتة فصارت عبارة ناطقة .

وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه ؛ وقد نظم شيئا منها قبل ذلك بسنتين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة المقتطف .

. . . وكما تثوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكاته إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافعي بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضا ، وكأنما نفض همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تثقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ماقال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية . . .

ثم كان هلال رمضان ، فأنشأ مقالة « شهر للثورة » وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقرّاء الرسالة .

* * *

كان خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء، حين يعتدل الجو، وتسكن الحركة، وتخف المعدة: إذ كان عمله في المحكمة يملأ بياض نهاره، فلما كان رمضان سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ الميلادية) سألني: «كيف نصنع ياشيخ سعيد في هذا الشهر، وأي أوقاته نجعلها للكتابة؟» قلت: «فانظر فيما تراه خيرا لك، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء» قال: «لا سبيل إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء، ولكني سأحاول أن أكتب في العصر، فإنه حيثما امتلأت المعدة ثقل الرأس، فلعل فراغها في النهار أن يشحذ الذهن ويصقل الفكر».

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه، ومضى يوم ويوم ويوم، وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئا للرسالة، واستحيا أن يعتذر، فلمّ طائفة من «فتات المكتب» وجعلها الجزء الثاني من «كلمة وكليمة» وبعث بها.

في هذه الكلمات المنشورة بالعدد ٧٦ كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم، وفيها حديث عن الزكاة والصوم، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة، وفيها رسائل إلى «فلانة»!

ثم كانت مقالة الأسبوع التالي هي قصة «سمو الحب».

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة: رمضان؛ وكتاب الأغاني لأبي الفرج؛ ومايسمع من أحاديث الشبان عن الحب.

أما رمضان فسما بروحه وأمده بما في القصة من المعاني الدينية التي حكاها على لسان مفتي مكة وإمامها «عطاء بن أبي رباح»، والعاشق الزاهد «عبد الرحمن القس بن عبد الله بن أبي عمار».

وأما كتاب الأغاني فأعطاه صلب القصة وأساس البناء في سطور يرويها من

خبر «سلامة المغنية» جارية يزيد بن عبد الملك . وقد وقع الرافعى على هذا الخبر اتفاقا فى إحدى مطالعاته فى كتاب الأغانى .

وأما أحاديث الشبان فحفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضرب به مثلا لسمو الحب يصحح رأى الناس فيه ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة .

فى هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمروءة والحب فى قلب رجل كالرافعى يعرفه الناس فيما يكتب شيخا من شيوخ الدين فيه تحرج وخشية ، ويعرفه من يعرفه من أصحابه مجنونَ لَيْلَيَاتٍ وقيسَ لُبْنَيات !

. . . ولكى ينتفع الرافعى بوقته فى رمضان كان يتخفف من طعام الفطور ، ثم يجلس مجلسه بعد العشاء للإملاء ؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السّحور ، فيعوّض فيه بعض مافاته من فطوره ثم ينام !

على أنه لم يجد راحته فى هذا النظام أيضا ؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد فى نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شىء يصلح للنشر ليستريح أسبوعا من العمل ، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف فى سنة ١٩٠٥ كان قد نشر بها قصته الأولى : « الدرس الأول فى علبة الكبريت » ، فعاد إلى قراءتها ، فلما فرغ من القراءة التفت إلىّ قائلا : «هذه قصة ينقصها السطر الأخير» قلت : « وماذا يكون هذا السطر ؟ » . قال « اسمع : هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحوكم بها وحُكم عليه ... » . قلت : « نعم ! » قال : « فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين؟» قلت : «أراه الآن رجلا يفلح الأرض أو يعمل بالفأس فى حجارة أبى زعبل ! »

قال : « هذه الأخيرة أمثل به ؛ لقد تلقى الدرس الأول فى علبة كبريت فقاده إلى الحبس ! فهل تراه بعد هـذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشنقة ... ؟ اكتب ... اكتب ... »

وأملى على مقالة « السطر الأخير من القصة » .

لم يغير الرافعى هـذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة : وزاد عليها شيئا من المحاورة بين الغلام وقاضيه . وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجابا بها ، لكن كأنمـا ردته هذه المقالة إلى شىء من ماضيه تروح فيه من روح الصبا والشباب : فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليبقى فيهـا روح الصبا والشباب !

وفى الأسبوع التالى — وهو الأسبوع الأخير من رمضان — أملى علىَّ قصة « الله أكبر »

وهى بسبيل ممـا سمع من أحاديث الشبان عن الحب ، ورقية ثانية من رقى الحب الداعر : كانت الرُّقية الأولى هى كلمة « برهان ربه » فى قصة سمو الحب ، وكانت الرقية هنا هى كلمة « الله أكبر »

وأول الأمر فى هذه المقالة أنى كنت جالسا إلى الرافعى فى القهوة نتحدث فى شأن ما ، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد ، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام ، وقال الرافعى : « . . . وأنا لو ارتد إلىَّ السمع لن يطربنى شىء من النشيد ما كان يطربنى فى صدر أيامى نشيد الناس فى المساجد صبيحة يوم العيد : الله أكبر الله أكبر ! يعج بها المسجد ويضج الناس ... ليت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام ؟ الله أكبر ! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد ! »

ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفى كل صلاة ، فما فرغ من الحديث حتى طرقنا زائر من رواد القهوة فحيا وجلس ... وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون . . .

وتهيأ موضوع القصة فى فكر الرافعى ، فلما دعانى ليمليها علىّ لم يجد فى نفسه إقبالا على العمل ، فوقف فى الإملاء عند منتصف المقالة ونسأ البقية إلى غد ، ثم كان تمامها .

وفى صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه ، وقد كان فى الرافعى حرص شديد على ذكرى أبويه : فهما معه فى كل حديث يتحدث به عن نفسه ، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تهيأت له الفرصة : وما إيثاره الإقامة فى طنطا على ضيقها به وجهلها مقداره إلا ليكون قريبا من قبر أبيه وأمه . وقد نقلته وزارة العدل مرة نقلة قريبة ، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل فى وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل ، وكانت كل حجته عند الوزارة فى إيثار طنطا : أن فيها قبر أبيه وأمه ! . . . وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه ، فلعله الآن سعيد بقربهما فى جوار الله ولعلهما به . . .

... ولما عاد من زيارة المقبرة أملى علىّ مقالة « وحى القبور ! »

* * *

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه ، فأنشأ قصة « بنته الصغيرة » وهى الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص : تحدث فى « قصة زواج » عن سعيد بن المسيب ، وتحدث فى « سمو الحب » عن عطاء بن أبى رباح ، وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصرى .

فى هذه القصة يتناول الرافعى موضوع الزواج على النحو الذى تناوله به فى قصة «رؤيا فى السماء» على أنه باب إلى السمو بالإنسانية ، وفيها ـ إلى مافيها من الدعوة إلى الزواج وبر البنات ـ شيء من الأدب الدينى يضمها إلى سابقاتها .

ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من «كلمة وكليمة» ـ العدد ٨٤ سنة ١٩٣٥ ـ وفيها كلمات عن السياسة ، وحديث عن المرأة ، ونظرات فى أخلاق بعض الناس أوحى إليه بمعانيها قضية كانت له فى المحكمة شغله أمرها وقتا ما ، وقصة ذلك أن الرافعى كان اشترى قطعة أرض للبناء فى شمال المدينة ونقد البائع ثمنها وجعل لها حدودا مرسومة : ثم أعجزه أن يبنيها فظلت خلاء . وكانت هى كل ماحصل للرافعى من الاشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن ؛ ثم طمع البائع أخيرا فيما باع ؛ فتحيّف القطعة من أطرافها ، واصطنع بينه وبين الرافعى مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس ، وشكاه الرافعى وتأهب لمناضلته ، واستعان عليه خصمه بواحد من ذوى صهره يعمل مفتشا فى وزارة العدل ، فانتدبَ للتفتيش عن أعمال الرافعى الرسمية فى محكمة طنطا مهددا متوعدا ، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه !

طالت القضية بين الرافعى وخصمه ، وتعددت جلسات المحكمة ؛ وطالت كذلك دورة التفتيش وكثر تحدّى المفتش للرافعى حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله ، فحص فيها عن بعض مئات من القضايا التى قدر الرافعى رسومها ، لعله يعثر له فيها على غلطة تحمله على الخضوع له ؛ وغلطةٌ فى تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غرامة مالية ... ومن أين للرافعى ؟

وكنت متعودا أن أغدو على الرافعى فى المحكمة فى أوقات الفراغ ؛ فلما علمت

أن مفتشا عنده أقصرت ؛ فلما علم منى سبب امتناعى عن زيارته قال : «لاعليك وخلِّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئا من عادتك ! »

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده ؛ وكان يدنينى إليه فى مجلسه ، ويجعل كرسىَّ إلى جانب كرسيه خلف المكتب ، ويتأبَّى على المفتش أن يذهب إليه حيث يكون ، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه : وفى أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا فى مجلسه ليسأله عن أمر من الأمر ، فيدعه الرافعى واقفا ويتحدث إليه وهو جالس حديثا كله سخرية وتهكم ثم لاينظر إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل ، ثم يغضى عنه ويدعه واقفا ليعود إلى ما كان فيه من الحديث معى أو المطالعة فى صحيفة أو كتاب !

وعلى أن المفتش لم يظفر بشىء مما أراد بالرافعى ، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد ؛ على رغم ما كان يبدو على الرافعى من إهمال شأنه وعدم الاكتراث به !

. . . ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعى ، وانتهت كذلك دورة التفتيش على غير طائل ؛ ولكن هذه وتلك قد شغلتا الرافعى شطرا كبيرا من سنة ١٩٣٥ ، وأوحت إليه بكلمات وكلمات مما نشر لقراء الرسالة فى هذه الفترة .

* * *

... ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة ، فكانت القصة التالية «زوجة إمام» : الإمام أبو محمد سليمان الأعمش ؛ وزوجه ؛ وتلميذه أبو معاوية الضرير .

قصة أراد بها أن يستوفى موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب

الزوجة . وبها تم ما أملاه عليّ فى موضوع الزواج ؛ وعدّته ثلاث عشرة مقالة ، أولها مقالة « س . أ . ع » وآخرها الجزء الثانى من « قصة إمام » .

وددت لو أنّ الرافعى حين أعاد نشر هذه المقالات فى وحى القلم ، نشرها على الترتيب الذى كانت به والذى رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة ، فإن ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعةً متساوقةً فصولُها فصلا إلى فصل ؛ ولكنه جمعها فى وحى القلم على ترتيب رآه ، فجعل منها القصة ، والمقالة ، والحديث الدينى ؛ وجعل كل نوع من هذه الثلاثة فى بابه : على أنّ ذلك لا يمنع الباحث الذى يتهيأ للرأى فى هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب الذى قدمتُ أسبابه وأسبابها معه .

* * *

كان الرافعى قلما يجلس إلى مكتبه فى المحكمة إلا أن يكون له عمل : فإذا لم يجد له عملا فى المحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة ؛ وكان يزورنى أحياناً فى المدرسة ليقضى معى وقتاً من الوقت أو ليصحبنى لبعض حاجته ؛ وكان يغبطنى على عملى ويزعم أنه لو كان فى مثل هذا الجو المدرسى لوجد لنفسه كل يوم مادّة تلهمه الفكر والبيان ، ويعجب لى كيف لا أجد فى صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون فى حقيقة الحياة ما يوقظ فى نفسى معنى الشعر والحكمة والفلسفة ...

وزارنى يوما ، وكان من تلاميذى فى المدرسة طفل فى العاشرة أبوه من ذوى الحول والسلطان ، فكان يصحبه شرطى كل يوم إلى المدرسة ويعود به ، وكان فتى لدنا ، فيه طراوة وأنوثة ، وله دلال وصلف ؛ فاتفق أن حضر إلىّ لشأن مّا والرافعى معى ، ووقف الشرطى ينتظره على مقربة من مجلسنا ،

ونظر الرافعى إليه وقد وقف يكلمنى وهو يتثنى ويتخلّع لا يكاد يتقارّ فى موضعه . . .

ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطى وراءه يحمل حقيبته ، والتفت الرافعى إلىّ يسألنى : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا الشَّمعون ؟ » .

وكلمة « شمعون » عند الرافعى هى عَلَم مشترك لكل فتى جميل . وتاريخ هذا الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافعى بالمرحوم الكاظمى ؛ إذ كان الكاظمى له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر . . . وكان اسمه « شمعون » ، حدثنى الرافعى عنه قال : « وكان فتى جميلا لولا ثياب الغلمان لحسبته أنثى ... ! » ورآه الرافعى كثيراً فى صحبة الكاظمى ، فوعى اسمه وصورته ، ثم كان اسمه عند الرافعى من بعد علما على كل غلام متأنث . . .

... قلت للرافعى : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطى الذى يتبعه هو من جنود أبيه ، وإنّ من خبره ... »

قال الرافعى . « وهذا موضوع جديد ! »

فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

* * *

كان الرافعى يؤمن بالغيب إيمانا عميقا لا ينفذ إليه الشك ، وكان له عن الشياطين والملائكة ، وعن الوحى والإلهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...

. . . وكان له ـ إلى إيمانه وتديُّنه ـ نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم ، فكان أكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا مرت أمامه امرأة فأتبعها عينيه ، أو سمع حديثا عن غائب فتعقبه بالحديث

عن بعض شأنه أو ناله أحد بمساءة فردها إليه ، استعاذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان ! وإذا همت نفسه بشيء تنكره المروءة ، أو دعته داعية من هواه إلى ما يتحرج منه المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على مالا تحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه ، وذم الشيطان وتجنى عليه الذنب . وفي مقالته « دعابة إبليس » حديث يحقق هذا المعنى .

... فإني لمعه ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آنسة في دمشق ، ومعها صورتها مهداة إليه ، تبثه لواعجها وأشجانها ، وتشكو إليه أنها ... مفتقرة إلى رجل !

ونظر الرافعي إلى صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدها في وهمه حسنا إلى حسن ، ويرسم له خطة ..

ثم وضع الصورة في غلافها وهو يقول: «أعوذ بالله من الشيطان . . أمّا إنه ...»

وقال شاب في المجلس : « وهل الشيطان إلا هوى النفس ؟ »

وقال الرافعي : « وهل تنكر . . ؟ »

وطال الجدل ، ومضى الحديث في فنون . . .

من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشيطان »

* * *

وكان لولده سامي زوج لم يدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ماسماها وعقد عليها ؛ فأقامت زمنا في مصحة حلوان ؛ ثم ارتدت إلى طنطا لتقيم بين أسرتها ما بقي ، وزوجها حفيّ بها قائم على شئونها ، ثم جاء أجلُها ؛ فدُعي الرافعي ليراها ، فجلس إلى جانبها لحظات وهي تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصير ، مقالة « عروس تُزَفُّ إلى قبرها ! »

كنت ليلتئذ على موعد معه فى القهوة ، فظللت أنتظره ساعات ، ولم يخلف الرافعى موعده معى مرة من قبل ؛ فلما طال بى الانتظار مضيت لشأنى . وفى الصباح جاءنى نعى الفتاة فعرفت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت فى نفر من الأصحاب لتعزيته فى دار صهره ؛ والتمسناه فما وجدناه ، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الجنازة لبعض شأنه ؛ ولقيته بعدها ، فعرفت أنه ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقاله قبل أن تذهب معانيه من نفسه !

يرحمه الله ! لم يكن يمرّ به حادث يألم له ، أو يقع له حظ يُسرّ به ، إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكأنما كل مافى الحياة من مسرات وآلام مسخّر لفنه ؛ فهى للناس مسرات وآلام ، وهى له أقدار مقدورة ليبدع بها مايبدع فى تصوير الحياة على طبيعتها وفى شتى ألوانها ، ليزيد بها فى البيان العربى ثروة تبقى على العصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه فى أحد غير الرافعى !

* * *

وإذ ذكرت السبب الذى دعا الرافعى إلى إنشاء مقالة « عروس تُزف إلى قبرها ! » أرانى مسوقا إلى ذكر حديث بينى وبين الرافعى يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الرافعى وطبعه ، وهو بسبب مما سميته فيه من قبل « فلسفة الرضا »

لم يكن لأحد رأى فى خطبة هذه العروس إلى سامى ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ماتخرج وصار له مرتب يكفيه[1] ؛ ذهب يعرض أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سبّبه ، ولكنه مع اعتداده

---

(١) كان سامى معيداً فى كلية الزراعة قبل أن يذهب فى بعثة الجامعة إلى أمريكا .

برأيه فى هذه المعارضة تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ؛ فليس له عليه فى هذا الشأن إلا أن يبذل له النصح ثم يدع له الخيرة فى أمره .

وخطب سامى فتاته ، وعقد عقده ، وكان حمزه يعمل فى مال فأكلته الأزمة ، وقُدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأنفق ما أنفق فى طبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان!

وتداعت فنون الحديث يوما بينى وبين الرافعى حتى جاء ذكر سامى وزوجته ، وكانت ماتزال فى مصحة حلوان ؛ فقال لى الرافعى : « انظر ! إنها حكمة الله فيما يجرى به القدر ! ضلّت البشرية إن هى حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم فى أقدار الناس ... ليس للإنسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط أسبابا بأسباب ، ويجرى بالحياة وحدة متماسكة ، فما يجرى هنا هو بسبب مما يجرى هناك ، فلا انفصال لشىء منها عن شىء ... تُرى مَن ذا كان ينفق على هذه المسكينة ليطبَّ لها من دائها لو لم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامى هو زوجها ؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمتُ له من الرأى والنصيحة إلا لأنه فى تدبير القدر مرجوٌّ لهذا الواجب من بعد ؟ لقد كنت مستيقنا من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإننى اليوم وقد انكشف لى هذا السر العجيب فى حكمته البالغة ، لأشعر بكثير من الرضا إلى ما كان ! »

* * *

ثم كتب مقالة « بين خروفين »

وهى تمتُّ بسبب إلى مقالة « حديث قطين » وفيها حديث عن ولده عبد الرحمن

وهو أصغر بنيه؛ وكان الرافعي يرجوه ليكون من أهل الأدب؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليكون كما يرجو أبوه، ويحمله بذلك الرجاء على مالا يحتمل؛ وكان «الإيحاء» هو وسيلة الرافعي إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل، ويبدو مَثَل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافعي عنه في أول ذلك المقال.

وكان الرافعي معنيا بمستقبل أولاده عناية كبيرة، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى، وكثيرا ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة، وقد وجدت بين أوراقه حديثا له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجا ليهيئ نفسه للامتحان لو أنه اتبعه لكان اليوم غير من هو!

ومن أجل أولاده أنشأ كثيرا من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها في المقطم؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها!

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد؛ فما نزعه إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفان؛ ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجا في الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسي.

* * *

وكان للرافعي رأي فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا، تفسره مقالة «تاريخ يتكلم» وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف في ذلك الوقت عن أحداث تجري في تركيا؛ رأى فيها مشابه من حوادث سبقتها في مصر قبل ذلك بألف سنة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي.

وفي أحيان كثيرة كانت تثور نفس الرافعي لما يسمع من أخبار تركيا فيهم أن يكتب؛

ثم يمنعه ذلك خشيته أن يكون فيما يكتبه شيء يقفه موقف المسئول عن غلطة تعكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله ؛ وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية لذلك العهد : وكانت هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان الغموض فى كثير من معانى هذا المقال ؛ فمن شاء فليعد إليه ليقرأه وقد عرف داعيه ، فلعله لايجد غموضاً فيه من بعد .

ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه ، كان مقاله « كفر الذبابة » الذى أنشأه على أسلوب كليلة ودمنة بعد ذلك بأشهر .

* * *

ثم هلّ هلال المحرم ، وتهيأت الرسالة لإصدار « العدد الممتاز » فى ذكرى الهجرة ، فكتبتْ إلى الرافعى فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن يهيئ موضوعا مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلا . واستبق الرافعى الميعاد فأعدّ قصة « اليمامتان » وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع . وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعى المعتاد ، وأنه مايزال يعدّ موضوعه للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ، وكتبت إليه تستنجزه المقال ... وكان الرافعى متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً فى أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوّتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التى أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته فى حيرته ، ولم يجد فى نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق بالنشر فى هذه المناسبة ، فوقع على مقالة « حقيقة المسلم » ؛ وكان كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشاف المسلم بالشام [١] ونشرها بالأهرام

---

(١) انظر صفحة ٢٠٨ من هذا الكتاب .

فى ذكرى المولد النبوى لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لتنشر فى العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ .

يتحدث الرافعى فى قصة اليمامتين عن الفتح الإسلامى ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة فى قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها مافى نفسه من معانى الحب ؛ ثم جعل فى خاتمتها « نشيد اليمامة » : اليمامة التى تقول الرواية العربية إنها تحرمت فى جوار عمرو بن العاص فمنعته أن يقوض فسطاطه !

كان لهذه القصة عند الرافعى وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحى من أساتذة التاريخ فى بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعى رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ؛ ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه . ولم أعثر على هذه الرسالة بين ماخلّف الرافعى من رسائل أصدقائه إليه .

ومن اعتداد الرافعى بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ؛ جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه « وحى القلم » .

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعانى من وجع الضرس وتعب الأعصاب ؛ فاستراح أسبوعا آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من « كلمة وكليمة » .

* * *

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعى اهتزازاً عنيفا ونقلته من حال إلى حال : جلست يوما إليه نتحدث من أحاديثنا فقال : « ... إن صديقنا الأستاذ « م »

لم يكتب إلينا من زمان .. ليت شعرى مامنعه عنا ، إن بى قلقا عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره ! »

وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض : « . . . أن شابا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده ! ... »

وقرأ الرافعى الخبر فاربدّ وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! »

قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا « م » لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر . غفر الله له؟ »

فجزعتُ وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغصّ بريقى : « م ؟ إنك لتتوهم ، وإنك مما تفكر فى شأنه ليُخيَّل إليك . إن لصديقنا دينا ، وإن فيه تحرُّجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يُقدم على مثل هذه الجريمة »

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان . ثم مدّ يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى « م » يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يُحسن أن يصفها إلا من أحسّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ . م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ؛ وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذّود عن حرماته ، وهو شاب عزب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛

وعلى أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة ، فإنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لاتراه إلا رأيت فى وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معانى الألم ، ومايرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريبا فى هذا العالم وبين هذا الناس ؛ فإن له من خياله دنيا غيرَ دنيا الناس ، وعالما غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكان بينه وبين الرافعى ودٌّ وله فى نفسه مكان ، فكان له سره ونجواه منذ كان فتى يافعا لم يبلغ العشرين . وكان الرافعى يعتدّ بصداقته ويقرّ له ويُعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه ، وناله من الهم مالم ينله لحادثة مما لقى من دنياه ، فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالات «الانتحار» .

ولم يكن الرافعى يعلم من أحوال صاحبنا مادفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ؛ فما جاء جواب الأستاذ «م» إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادّة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان «أبى محمد البصرى» وهو يعنى به الأستاذ «م» فهو هو ، وكلامه كلامه فى جملته ومعناه ، لم يغير منه الرافعى إلا قليلا من قليل ، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالةُ الرابعة من هذه المقالات الستّ ؛ أما ماعداها مما سبق أو لحق ؛ فهى قصص مفتعلة من وحى هذه الحادثة فى نفسه .

ومقالات الرافعى فى «الانتحار» هى باب من الأدب لم يُنسج على منواله فى العربية فيها فن القصصى ؛ وفيها روح المؤمن الذى لم تفتنه دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلبُ رجل يعيش فى حقيقة الحياة .

* * *

وكان بين الرافعى والأديب حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة . فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعى يرجوه أن يكتب فصلا لقراء اللطائف « عن سحر المرأة » فكتب فصلا بديعا يصف فيه نفسه وصاحبته « فلانة » فى أول لقاء بينهما .

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف « أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب .

* * *

وكان من زملاء الرافعى فى محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له ولوع بالأدب . وعلى أنه زوج وأب ، فإنه كان بأناقته ولباقته مرعى أنظار كثير من الفتيات ، وكان له فى الغرام جَوَلان ...

ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية فى إحدى الصحف الصغيرة التى تصدر فى طنطا ...

وقرأ الرافعى بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « عِلما جديدا » لم يدخل إليه من باب ولم يقرأه فى كتاب ؛ فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات إليه ليُفيد علما من علمه ومن تجاربه ...

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعى ويقص عليه ، والرافعى صاغ إليه ملذوذ بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعى أن يُحضر له طائفة من مذكراته ورسائل صواحبه ، لعله يجد فيها موضوعا يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات وتلك الرسائل استملى الرافعى مقالات « الطائشة » و « دموع من رسائل الطائشة » و « فلسفة الطائشة »

هى قصة لا افتعال فيها وليس فيها شىء من صنع الخيال؛ وما حكى الرافعى من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هى فلسفتها كما فهمها الرافعى من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها .

ولقد نال الرافعى من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات ، وقرأها أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعى ليحتج بها فيما يحتج لمذهبه فى الحب والمرأة وتجديد الأخلاق ، والحقيقة فيها هى ما قدمت ؛ وقد زاد الرافعى إيمانا بمذهبه بعد هذا الذى سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته ومن رسائله !

ولم يكتب الرافعى قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب قصتها على طريقة من فنه ؛ فآثر الرافعى أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه ويتحدث عن رأيه فى طائفة من فتيات العصر ؛ فترك صلب القصة ليكون حديثه تعليقا وحاشية .

وقد قرأت القصة مع الرافعى كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافعى يقف عند كثير من عباراتها موقفا بين الإعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما فى نفسه كما هو فى نفسه ، فكان فيها وحى عاطفته ونبض قلبه وإحساس روحه ، فجاء بأدق ما فى الفن وأبلغ ما فى التعبير غير قاصد إلى شىء من ذلك ، وما كان يبلغ شيئا من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان فى هذه المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل الصدق عند الرافعى فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبته .

ولما كتب المقالة الثالثة « دموع من رسائل الطائشة » خلا إلى نفسه أسبوعا ليستجم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : « كلمة وكليمة » وفيها حديث عن العقاد [١] .

وفى هذا الأسبوع كان الرافعى يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان « فلسفة الطائشة » .

ثم أملى علىّ مقالة « كفر الذبابة » يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت إليه فى شئون الإسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كليلة ودمنة .

وكانت مقالة « كفر الذبابة » هى آخر ما أملى علىّ من المقالات ؛ وذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه فى سيدى بشر ، وتهيأتُ للسفر إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأسبوعا أزوره فى طنطا ، وأسبوعا يزورنى فى القاهرة . على أنّ الرسائل فيما بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته ببضعة أشهر . ثم تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، وكان آخر مجلس لنا فى قهوة « پول نور » بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكر ، وزكى مبارك ، وكامل حبيب ، والسيد زيادة : ثم افترقنا بعد منتصف الليل وفى نفسى منه أشياء ... !

وفى صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكى مبارك حول « وحى القلم » .

---

(١) العدد ١٠٥ سنة ١٩٣٥

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقانى ؛ وهو يشكونى إلى صحابتى وأشكوه ؛ حتى جاءنى نعيه ... غفر الله لى !

لكأنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عنى وقع المصاب من بعد ؛ أو لتحملنى – غير محمول من أحد غير واجبى – على كفارة الذنب الذى أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما فى الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ لعلى أقوم له بعد موته بالحق الذى عجزت عن وفائه فى حياته . يرحمه الله !

* * *

... لم يُمْلِ علىّ الرافعى شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلىّ أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره فى المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر النبوغ فى الأدب » .

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقاله « كلمات عن حافظ » لمناسبة ذكراه ؛ ثم أصابته قرحة فى كفه منعته من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ فى الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ثم جعلها مقالة الأسبوع التالى . وهى مقالة من مقالات الرافعى الفريدة ، تهم الباحث الذى يريد أن يدرس الرافعى صاحب « تاريخ آداب العرب » .

* * *

ثم توالت مقالات الرافعى يمليها على نفسه ويكتبها بخطه ، على أنى بما كنت ألقاه وبما كان بينى وبينه من الرسائل إلى ماقبل موته بأشهر ، لم يفتنى أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص

ـــا ما لهذا البحث ـ على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التى أنشأها وحده من بعد ، غير معتبر ترتيبها فى النشر ، إذ لا اعتماد لى فيما أكتب عنها إلا الذاكرة .

من هذه المقالات : الجمال البائس ، القلب المسكين ، المشكلة ، المجنون ، أحاديث الباشا .

أما مقالات «الجمال البائس» فقد أملاها عليه حبٌ جديد وليلى جديدة ولكنه حب كما وصف الرافعى :

« ... وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعا فى الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى . ثم لا تدفعنى إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها ، غير أنه هو منها ! »

« . . . ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شىء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

«والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىء نهائى ؛ فلا هجر ولا وصل ، ينساكِ بعد ساعة ولكنك أبدا باقية بكل جمالك فى نفسه ، والصغائر التى تبكى الناس وتتلذع فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة فى وهمهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب ، تبكيه هو أيضا وتعتلج فى قلبه ، ولكنها تظل عنده صغائر

ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبُّره على جبار الحب !» [1]

* * *

حُبّ ، هو سموّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السماوات يتنوّر فى عوالمها الخفية نورَ الإنسانية فى حقائقها العالية .

بدأ ذلك الحب فى صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الرافعى يصطاف فى سيدى بشر ؛ ثم كان يقصد إلى الإسكندرية أحيانا ليلقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ عامر ، رحمه الله ؛ وكان بينهما صلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة منذ كان الأستاذ حافظ محاميا فى طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته فى الإسكندرية ؛ مشغولا بكتاب يهم أن يصدره فى شأن من شئون الإسلام وكان الرافعى يعاونه فى إنشائه [2] ...

وكانا يتواعدان على اللقاء فى ملهى من ملاهى الإسكندرية على شاطىء البحر ، حيث تتهيأ لهما الفرصة ؛ من هدوء المكان فى النهار وقلة إقبال الناس عليه ، لما هما فيه من عمل .

فى هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة « ببا » فيعج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى ، ليفرغ للرافعى وصاحبه فى النهار يُداولان الرأى فى شئون الأدب والدين والفلسفة . وشتان ليلهُ ونهارُه !

وكثر تردّد الرافعى وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا مافيه ،

---

(١) الجمال البائس جـ ١ ص ٢٩١ - ٣٢٣ - وحى القلم طبعة أولى .

(٢) رسالة الحج ، أخرجها المرحوم حافظ عامر بك فى سنة ١٩٣٦ وكتب على غلافها « بقلم دبلوماسى كبير » يعنى نفسه ! وكان وقتئذ قنصلا لمصر فى بغداد أو فى إيران ، لا أذكر ، وكان قبل ذلك قنصلا فى جدة ، ومن هناك بدأت تراوده فكرة إخراج « رسالة الحج » وسنعود إلى حديثها بعد .

وألفهما فيمن أَلِف فتاة من راقصات الفرقة ؛ هى الإيطالية الحسناء « ب. . . . » فما كان بينها وبين الرافعى إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب . . .

وجلس الرافعى إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهده المرحوم حافظ عامر من بدايته إلى منتهاه ، ثم ترك الرافعىَّ لهواه وتركته صاحبتُه . . .

وذاق الرافعى مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته الأخيرة راقصةً من بنات الهوى تعمل فى مسرح هزلى من مسارح الصيف المتنقلة بين شواطئ الإسكندرية . . . !

تلك هى صاحبة « الجمال البائس »

* * *

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعى إلى طنطا ، وعادت الفرقة الراقصة إلى القاهرة ، وشتَّ ما بين الحبيبين !

ولقيتُ الرافعى بعدها ، فحدثنى حديثه والكلمات ترتعش على شفتيه وفى عينيه بريق عجيب ؛ ثم رقّ صوته وتهدج وهو يقول : « مسكينة ! ليتنى أستطيع أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر . . . ليس موضعها هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات « الجمال البائس » فدعانى أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه ليراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له تذكرتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى « دار الهلال » وأبطأ عليه الرسول فلم ينتظر ؛ فنهض ونهضتُ معه واتخذ طريقه إلى « عماد الدين » . . .

ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألنى : « أين اسمها ؟ وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هى ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها فى إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ، ما منهن إلا لها جمال وفتنة ، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ؛ إلى صورتها !

ثم تحوّل عن الباب مسرعا عجلان وهو يجمجم بكلام لا يبين .

وقال لى وقد أسرعتُ إليه حتى حاذيتُه : « أيليق أن ندخل هذا المكان ؟ أتراه من المروءة ؟ وددت لو رأيتها ؛ ولكن ... »

وانتهينا إلى قهوة « بول نور » فجلس وجلست ؛ ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجمال ؛ فما هى إلا لحظة ثم مرت بنا منحدرة من شارع فؤاد إلى شارع سليمان باشا ؛ فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت فى مزدحم الناس ، ثم عاد إلى نجواه وشكواه ...

وجلس مرة يتحدث إلى الأديب حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات « الجمال البائس » ؛ فأهدى إليه صورتها ؛ فظلت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة ، فمن أجلها كتب مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !

وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمتْ ... ؟ أتراها قرأتْ ... ؟ »

وما أحسبه لقى صاحبا من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال البائس ... جلستُ منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعى

ونذكر من خبره فقص عليّ : قال :

« كان الرافعي يجلس على هذا الكرسي : من هذه الغرفة ؛ وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بيني وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ الرافعي يصفها لي وصفاً لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول على تصويرها كما هي في نفسه ؛ فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة مالم يجتمع مثله لامرأة ، وتمثلتْ صورتها لعينيّ كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها : قدم إليّ صورتها في ورقة لأرى بعيني مصداق ماسمعت ...

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التي صوّرها لي حديث الرافعي وإلى الصورة التي في الورقة ، فكأنما استيقظتُ من حلم جميل ! . . . يرحمه الله ، لقد كان شاعرا ... ! » .

كذلك كان سلطانها في نفسه وأثرها في خياله !

* * *

وكانت نشأة هذه الفتاة في طنطا لأول عهدها بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت « خيمتها » في طنطا بضع سنين ، ولم يكن الرافعي يعلم ذلك من خبرها يوم التقيا في الاسكندرية في صيف سنة ١٩٣٥ فما عرف ذلك إلا مني حين رأيتها في فرقة « بيا » ونظرت صورتها : فلما عرف من ماضيها في طنطا ماعرف ، أغمض عينيه وراح في فكر عميق ... أتراه قد لقيها من قبلُ في طنطا ولم يكن يذكر ، أم كان ينظم شعراً لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟

والعجيب أن الرافعي وهو في غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبته

« فلانة » ولم يفتر حبه لهـا ، بل أحسبه كان أكثر ذكراً لهـا وحنيناً إليها مما كان ، وكأنما كان قلبـه فى غفوة فأيقظه الحب الجديد وردّه إلى ما كان من ماضيه .

لقد كان قلب الرافعى عجيباً فى قلوب العشاق ، ليت لى من يستطيع أن يكشف عن أعماقه !

وبسبيل وحى هـذا الحب الجديد وما أذْكـرَه من ماضيه ، كانت قصة « القلب المسكين » التى نشرها فى الرسالة نجوما من بعد ؛ ثم ضمها إلى أصول الجزء الثالث من وحى القلم الذى طبع بعد وفاته .

* * *

أما موضوع « المشكلة » (١) فقد استملاه الرافعى من رسائل قرائه إليـه . وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل . ح . وهى كانت أولَ صلته بالرافعى ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنين : هو وهى . فصارت من بعدُ مشكلتَهما ومشكلةَ الرافعى معهما إذ لم يجد لهـا حلا . ولقد شغلتْه هـذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم اتصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابه بصاحبها وصاحبته . وقد كتب الرافعى ما كتب فى هذا الموضوع ، ثم مضى وخلـَّف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدتَها ...

كان ذلك فى الخريف من سنة ١٩٣٥ حين جمعتنى ظروف العمل بصديقى الأستاذ كامل ؛ فلم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعنى كل السر ...

... فقدَ أمّه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها فى بيت أبيه . وكان أكبرَ ثلاثةِ إخوة ، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معانى الرجولة

(١) وحى القلم ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٩١ طبعة أولى .

ومايزال فى باكر الشباب . ورأى أبوه أن عليه شيئا لهذا الرجل الصغير ، فسمّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دورا فى هذه القصة ، فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب . . . ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لايراها ولاتراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبغى أن يكون ، وكان يبغضها بغضَ الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئا من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية ، وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية ؛ فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ؛ وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهيئ نفسه ليكون من أساتذة « العلوم » فإنه كان ولوعا بالأدب مشغوفا بمطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شِعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب فى قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى الملحمة ...

وأحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته ، فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها ، وما كان لها ...

وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعما بالحب ويحققا المثل الذى ينشدانه ؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة . . . فما يذكرها ولا يفكر فيها ...

وكان نائما يحلم حين ترامى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ؛ فما وجد أبوه وسيلة لإنقاذه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاءً بوعد مضى فى ذمة التاريخ ...!

غضب الفتى واحتج وثارت كبرياؤه ورجولته ، وأبى أن ينزل على رأى أبيه فى شأن هو من خاصة شئونه ، ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبته على إرادته ، وساقته فى عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها فى السيارة من ليلته مرغما إلى بيته فى القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هى بنت خاله ، وهى زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ وإن فتاةً أخرى تنتظره ؛ وإن عليه لها واجبا تحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنح زوجه نظرةً أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار فى القاهرة . . . كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبته التى فتنته واشتولت عليه ؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضعَ عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حريا أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التى كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سَجَّانه الذى يحرمه أن يستمتع بالحرية التى وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأرثت فى نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ... !

وعاشت فى بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف : لا يقاسمها الفراش ، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا فى الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفى المساء حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل ؛ وما كان

بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التى تؤج فى صدره ، والحسرةُ التى تتسايل دموعا من عينيها ، وإلا هذه الخادم التى تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها . . .

ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبته والاختلافِ إلى ملتقاهما .

على أن ذلك لم يزده إلا ولوعا بحبيبته وتبرما بزوجته . . . ومضت الأيام تُباعد من ناحية لتقرِّب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذى وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل . . . فمضى يدبر أمراً للخلاص من هذه المشكلة ؛ ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل ... !

كان كل طريق يفكر فيه للخلاص محفوفا بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجه ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ، وليس فى استطاعته أن يجمع على نفسه همَّين ؛ وكان تفكيره فى ذلك همًّا ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه !

وكتب إلى الرافعى يستفتيه فى مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعى ؛ وفى مساء اليوم التالى كنت فى مجلس الرافعى بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفضّ غلافها بعد ...

وقرأ الرافعى الرسالة ثم دفعها إلىّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلَّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدى قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ؛ وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأيى »

وأطرق الرافعى هنيهة يفكر وفمه إلى الكركرة (الشيشة) كما هى عادته حين يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إلىّ قائلا : « تعرف ؟ إنّ صاحبك لمفتون

بصاحبته إلى درجة الحمق والسفه ، وما تنحلُّ هذه المشكلة إلى أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ويكون له سلطان على هواه ، وهيهات أن يكون له ! فما هنا إلا وسيلة واحدة تردّه إلى رشاده فتنحل المشكلة . . . »

قلت : « فما هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان فتفرّق بينهما . . . أتراك تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا »

قال : « فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر ، وإذا بدا لها . . . انتهى مابينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادما ؛ وإنّ مرور الأيام لخليق أن يؤلف بينهما من بَعد »

قلت : « فهمت ، ولكن ماذا ترانى أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ماتريد ؟ وهبنى عرفتُ أن أقول له فمن أين لى أن أستطيع لقاءها فأتحدّث إليها ؟ »

قال : « اسمع : أتراها تقرأ »

قلت : « إننى لأعرف مما حدّثنى عنها أنها قارئة أديبة ، وأنها من قرّاء الرسالة ، وقد كان فيما أهدى صاحبها إليها كتابُ أوراق الورد ، وأحسبها تنتظر ماتكتبه فى هذه المشكلة ؛ فقد حدّثها صاحبها أنه كتب إليك ... »

قال : « حسن ! فسأجرب أن أكون شيطاناً بينهما ، بل ملَكا يحاول أن يردّ الزوج الآبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية ... ! »

* * *

وكتب الرافعى المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها أن ينتقص صاحب المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند

صاحبته ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وأن فيها كما يعيبها ويثلبها ويضعها بإزاء صاحبها موضعا لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه فى الرأى ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد فى تصويرهما الصورة التى أراد أن يكون عليها الحكم فى محكمة الرأى العام ، وترك الباب مفتوحا لترى صاحبة المشكلة رأيها فى القضية فيمن يرى من القراء .

ولقيتُ صاحب المشكلة من الغد ، فسألنى : « هل رأيت الرافعى ؟ »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتى إليه ! »

قلت : « بلغتْه ! »

قال : « وماذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيه فى الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بينى وبين الرافعى من حديث وما دبَّر من خطة . . .

ونُشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبي غاضبا يقول : « كيف صنع الرافعى هذا ؟ لقد نحلنى من القول ما لم أقل . أترانى قلت عنها كما يزعم : لقد خلطتْنى بنفسها حتى لو شئتُ أن أصل إليها فى حرام وصلت ... ! لقد ساءها ما نحلنى الرافعى من الكلام ، وقد تركتها الليلةَ غاضبة لا سبيل إلى رضاها ! »

... وتحقق للرافعى بعض ما أراد ، وانثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم فى هذه المشكلة ، وجاءه فيما جاء من الرسائل ، رسالةٌ من صاحبة المشكلة نفسها...

وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقيًّا حسنا ، ومضى يتحدث عنها حديثا ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ،

ولكنه إيحاء ، إيحاء إلى الفتاة بأنها فى مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس حبا وإن زعمتْ لنفسها هذا الرأى ؛ ولكنه شىء يشبه أن يكون صورةً عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به . . . ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكلة بالإيحاء والإغراء والحيلة . . .

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة .

وفرغ الرافعى من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت سنوات وفى الأتون ثلاثة قلوب تحترق . . . وعلى مقربة من النار صبى يحبو ينادى أباه ، وأبوه فى غفلة الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلها على يدى هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ؟ أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة فى أتون الشهوات . . . !

ومعذرة إلى صديق كامل . . !

* * *

أما حديث « المجنون » فأعرف من سببه ماذكر الرافعى فى أول مقاله[1] ؛ والمجنون فى هذه المقالات هو شخص حقيقى كما وصف واصفه ؛ رأيته لأول مرة فى مجلس الرافعى ذات مساء فى قهوة « لمنوس » ، فرأيت شابا أمرد يلبس جلبابا رخيصا وعلى رأسه عمامة ، وقد جلس بين يدى الرافعى مجلسَ من لا يحتشم ؛ فأنكرتُ موضعه ؛ وأشرت إلى الرافعى أسأله عنه ، فقال : « سَلْهُ أنت من يكون ؟ »

---

(١) وحى القلم ج ٢ : ٣٥١ - ٤١١ طبعة أولى .

فالتفت الفتى مغضبا يسأل : « أو ليس يعرفنى ؟ أو ينكر موضعَ نابغة القرن العشرين ... ؟ »

... ثم كان مجلس طويل وصفه الرافعى فيما وصف من مجالس المجنون .

وهو فتى كان طالبا فى مدرسة المعلمين الأولية بطنطا ، ثم أصابه ما أصابه فانقطع عن المدرسة ولكنه لم يقطع صلته بالأدب . وصديقنا الأستاذ حسنين مخلوف يعرف هذا النابغة ، فإنه كان بين تلاميذه فى مدرسة المعلمين .

أما المجنون الآخر الذى وصف الرافعى من حاله ما وصف بعدُ ، فهو طالب فى إحدى كليات الأزهر . ولم ألقَه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافعى عنه ما كتب :

كنت يوما فى إدارة الرسالة ، حين دخل علينا فتى أزهرى فى جلباب حائل اللون ، فحيا وقال : « ألست تعرفنى ؟ »

فحيرنى هذا السؤال ولم أدرِ بمَ أجيبه ، فقال : «إن بيننا نسبا وقرابة ، وإن بينى وبين الرافعى ... إننى أنا الذى يكتب عنه الرافعى مقالات المجنون ! »

قال ذلك وفى وجهه أمارات الجد ، وبدا لى كأنه يفاخرنى بما يقول ! قلت : « ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ! » قال : « نعم ، فهل عرفتَ الآن من يكون الآخر ... ... ؟ »

وقد كانت صلة الرافعى بهذين الفتيين بابا من العبث والمجانة ؛ على أنهما قد استطاعا أن يحملاه على العناية بأمرهما والتفكير فى كتابة شىء عن المجانين ...

وقد احتفل لهذه المقالات احتفالا كبيرا . فبعث إلىّ فى القاهرة لأشترى له نسخة من كتاب « عقلاء المجانين » ثم بعثنى بكتاب خاص إلى الدكتور محمد فؤاد مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة ـ وكان زميله فى المدرسة الابتدائية ـ يرجوه أن يأذن لى فى زيارة مستشفى المجانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم ،

لعله يجد فيها مادة تعينه على تمام موضوعه .

ولم يَفُتْه مع ذلك أن يلتمس علم مالم يعلم عند كثير من الأطباء ؛ فكان له حديث طويل عن المجانين مع الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد الرافعى ، والدكتور عبد الحميد المحلاوى طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه .

وقد أفاد من حديثهم بعضَ النوادر الطريفة التى حكاها فى مقالاته ونسبها إلى نابغة القرن العشرين وزميله ؛ على أن أكثر مافى هذه المقالات هو صحيح فى جملته وفى نسبته إلا بضع نوادر !

• • •

أما « أحاديث الباشا » فأكثرها خيال وأقلها حقيقة ، وقد اختار الرافعى أن يجعل بعض حديثه فى الشئون الاجتماعية على هذا النظم حتى لا يُملّ قراءه .

وقد تخيَّل أخاه الأستاذ محمود الرافعى المحامى بدمنهور ، كاتمَ سر الباشا الذى سَمَّاه ونسب إليه ، لأنه كان يستوحيه كثيرا من الحقائق فيما يكتب ، وقد كان الأستاذ محمود الرافعى فى صدر أيامه زعيما من زعماء الشباب فى طنطا ، ، يقودهم ويرى لهم الرأى فى مسائل الوطنية وتدبيرات السياسة فى إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وكان يومئذ طالبا فى مدرسة الحقوق .

أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقية كان منها وكان مماروى الرافعى ، ولكنها شخصية من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال .

على أن أكثر ما روى الرافعى من الروايات على لسان (م) باشا هو حقائق ، ولكنها لا تنتسب جميعا إلى شخص واحد .

نقلة اجتماعية

لم يكن بين الرافعى وقرائه صلة ما قبل أن يبدأ عمله فى الرسالة ، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد ، إلا طائفة تربطه بهم صلات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه ؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة ، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة ، حتى بلغ مايصل إليه منها فى اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد . وأستطيع أن أقول غير مبالغ : إن الرافعى قد عرف من هذه الرسائل عالماً لم يكن له به عهد ، وانتقل بها نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ فى حياته وتفكيره وأدبه . وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطلحوا على وجوب دراسة البيئة التى يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التى أثرت فيه ، فإن مما لا شك فيه أن الحقبة التى كان الرافعى يكتب فيها للرسالة - كانت تطوراً جديداً فى حياته الاجتماعية نقله إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدد الحياة . وقد عاش الرافعى حياته بعيداً عن الناس لايعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته ، فكان منهم كالذى يتكلم فى المذياع : يسمعون عنه ولا يسمع منهم ، وليس له ما يستمد منه الوحى والإلهام إلا ما تجيش به نفسه ويختلج فى وجدانه ، غير متأثر فى عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه .

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس ، وكان له من علته سبب يباعد بينه وبينهم ؛ فمن ذلك كان يسره ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم ، ويحصل من علم الحياة وشئون

الناس ما لم يكن يعلم ...

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرفته طائفة لم تكن تعرفه ، وتذوق أدبه من لم يكن يسيغه ؛ وكانت الموضوعات التى يتناولها جديدة على قرائها ؛ وجدوا فيها شيئا يعبر عن شىء فى نفوسهم ؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه ، فانفتح له الباب إلى دنيا واسعة ، عرف فيها ما لم يكن يعرف ، ورأى ما لم يكن يرى ، واطلع على خفِيَّات من شئون الناس كان له منها عِلم جديد ... فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران ؛ لا يسمع إلا صوته ؛ ولا يرى إلا نفسه ؛ ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس ، فانتقل من جوّ إلى جوّ ، ومن حياة إلى حياة ...

هى نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها فى الرافعى وأدبه ، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله .

والآن وقد وصلت إلى جِلاء هذا المعنى كما شاهدته وعاينت أثره ، فإنى أتحدث عن ضرب من هذه الرسائل التى كانت ترد إلى الرافعى من قرائه ، ليعرف الباحث إلى أى حد تأثر الرافعى بها ، وأىّ المعانى ألهمته وقدحت زناد فكره ؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بينى وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التى خلّفها لتتم لى بها دراسة التاريخ ، فحسبى ما أقرأنى الرافعى منها فى أيام صحبته وما اطلعتُ عليه بنفسى من بعد ...

* * *

نستطيع أن نردّ الرسائل التى كانت ترد على الرافعى إلى أنواع ثلاثة :

١ ـ رسائل الإعجاب والثناء .

٢ ـ رسائل النقد والملاحظة .

٣ ـ رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى .

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شيء كثير ، وحسبي الإشارة إليهما ؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الرافعي من رسائل الإعجاب كان عن مقالاته في الزواج ؛ وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات ، وقلما كانت تخلو رسالة من هؤلاء وأولئك ، من شكوى صاحبها أو صاحبتها وتفصيل حاله . وأطرف هذه الرسائل هي رسالة من آنسة أديبة كتبت إلى الرافعي تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها ـ وقد سمّته في رسالتها ـ يعيب عليه أن يعضل ابنته ويرد الخُطّاب عن بابه حرصا على التقاليد ...

... ثم رسالة من (مأذون شرعي) يحصي فيها للرافعي بعض ما مر عليه من أسباب الطلاق في الأسر المصرية ، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية ، وفي هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يحكيها على أسلوب فني يكسبها معنى القصة .

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثاني ، رسالة جاءته بعقب نشره مقالة « الأجنبية » عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلافها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من عدد (الرسالة) الذي نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر :

سيدي الأستاذ :

إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد ، وإن كان لابد من كلمة فكلمتنا إليك هي تلك الكلمة التي ختمت بها هذا الكلام المردود إليك « مصري »

* * *

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل ، كان استمداد الرافعى ووحيه ودنياه الجديدة ، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل :

١ ـ هذه رسالة فتى فى العشرين ، يكتب إلى الرافعى من الإسكندرية يقول :

« أستاذى الكبير :

« ليس لى الآن إلا ربى وأنت يا أستاذى ، وإن من حقك علىَّ أن أسألك حق عليك ، وقد هدانى الله إليك .

« ... قرأت وتدارست ما كتبتَه عن الانتحار ، فماذا تقول فى امرئ علم عمن الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلَّت . فهو يتحين الفرصة ليقتلها . إنى أبكى يا أستاذى إذ أعيد هذا القول ؛ أبكى دما . لى أخوة وأنا أكبرهم ، ولا أخاف إلا أن لى أختا . وأبى ـ غفر الله له ـ ليس له ما يكون للرجل من معانى الرجولة ليضمن ألا يكون فى بيته شيء مما قد كان ...

« الشك يساورنى منذ أكثر من عامين ؛ واليوم فار التنور ، إذ سمعت أنها حبلى ، ووقع فى يدى ما ملأنى يقينا بتصديق إثمها ؛ ولقد هممت أن أفعل ما لا يفعل ؛ وأنا أخشى ألا يتداركنى حكمك .

« . . . ماذا تقول يا أستاذى ؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من نفسى ، أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضيع من يدى . أنا كالمجنون لا يُبقينى شبه عاقل إلا أنت ، فماذا تقول يا أستاذى وبماذا تحكم ؟ يكتبها الله لك فتداركنى برأيك ...

« ولك منى شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات تربيتك ، وأن يكون فى اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم ...

« ومعذرة لى من لدنك إن أغفلت الآن اسمى »   فى ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٣٥

٢ ـ وهذه معلمة فى أحدى مدارس الحكومة ، حامت حولها ريبة فوقفتها وزارة المعارف حتى تحقق أمرها ، فكتبت إلى الرافعى تسأله أن يعينها بجاهه حتى تعود إلى عملها الذى تعول منه أبويها ؛ فيشفق عليها الرافعى ويسعى سعيه لبراءتها ... وعادت إلى عملها ، وحفظت الجميل للرافعى ، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة تبثه خواطرها وتصف له من أحوالها وما تعمل ؛ وتكثر رسائلها إلى الرافعى حتى يزول الحجاب بينهما ، فتصرح له بما لا تصرح فتاة ، ويئول أمرها فى النهاية أن تكتب إلى الرافعى بأنها عاشقة ... وأن معشوقها الصغير ـ التلميذ فى إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة ـ لا يعلم ما تكنُّ له ! هى تلقاه ، وتماشيه ، وتخلو به خلوات « بريئة » ! ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها ، وتأكلها النار فى صمت ... ! وتقول فى رسالتها إلى الرافعى :

« ... فدبرنى يا سيدى فى أمرى : قلبى يحس أنه يحبنى ، لقد قالتها لى عيناه ، ولكنه لم يتحدث إلىَّ ، ولست أجد فى نفسى القدرة على التصريح له ... »

وتتوالى رسائلها إلى الرافعى تصف له ما تلاقى من الوجد بحبيبها الذى تكبره بسنوات ، ويقرأ الرافعى رسائلها فيبتسم ، ويتناول قلمه الأزرق فيثور فيها علامات يشير بها إلى مواضع وفِقَر تلهمه معانى جديدة وفكرا جديدا ؛ ويشتط الحب بالمعلمة العاشقة حتى تنظم الشعر ؛ فتبعث إلى الرافعى بقصائدها ليرى رأيه فيها ...

بين يدىّ الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعى . بعثت بها إليه قبل منعاه بقليل . ليت شعرى كيف انتهت قصة هذا الحب ؟

٣ ـ وهذه رسالة من (حلب) يدهش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعى مطربشا حليق اللحية أنيق الثياب ، فيكتب إليه :

« ... لقد رأيت رسمك يا مولاى فتأملته ... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ ؛ فهل لك يا مولاى فى مجاراة المدنية ومماشاة الحضارة رأى دعاك إلى هذا المظهر الأنيق ... ؟ »

٤ ـ وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها فى هوى مغنية مشهورة ، يحسن بها الظن إحسانا يمثلها لعينيه مَلَكا أنثى ! لا يترك مجلسا من مجالس غنائها ، ولا يفكر فى خلوته إلا فيها ... ثم يأتيه النبأ أنها قد سُمِّيتْ على رجل من ذوى اليسار والنعمة ، وأنها موشكة أن تصير له زوجة ، فيطير به هذا النبأ ويؤلمه أيَّما إيلام ؛ فيكتب إلى الرافعى يقول :

« ... إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق ؛ متقلب القلب ، دنس الذيل ؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته . وأنا أحبها وأشفق عليها وأتمنى لها السعادة ... »

« هل يجب علىَّ أن أقف وقفة المحذِّر بإقناعها بالعدول عن هذا الزواج الذى لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة ، أو ألزم الصمت وأدع الأمور تجرى فى مجاريها وأقطع علائقى معها فأردّ لها صورها ورسائلها احتراما لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها فى ركن من أركان قلبى ؟ »

٥ ـ وذلك طالب فى الجامعة ، له دِين وخُلق ومروءة ؛ بلغ مبلغ الرجال . وفار دم الشباب فى عروقه ؛ فتسلطت عليه غرائزه ؛ تغالبه شهواته فلا يكاد يغلبها ؛ ولا يجد له سلطانا على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أياما فى غرفته الموحشة ؛ ومع ذلك لا تزال «المرأة» تتخايل له بزينتها فى خلوته وفى جماعته ؛ فليس له فكر إلا فى المرأة ، وإنه ليخشى الله ؛ ومابه قدرة على الزواج ، ولقد

جرّب الصوم فما أجدى عليه ، وقد أوشك أن يفقد نفسه بين شهوات تتجاذبه ودين يأبى عليه . . فماذا يفعل ؟

٦ — وهذه فتاة متعلمة ، تعيش بين أبيها وزوج أبيها فى همّ لا يطاق ، كل سلوتها فى حياتها أن تقرأ ، وهى لا تحسن عملا ولا تجد لذة فى عمل غير القراءة ، ولكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه ، إنهما ينكران عليها كل شىء مما تراه هى من زينتها بين الفتيات ، فعلمها حذلقة ، وآراؤها فلسفة فارغة ، ومطالعاتها عبث ولهو وسوء خلق ، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة ! وتمضى السنون وهى فى هذا العذاب من دار أبيها : فلا هى تستطيع أن تحمل أباها وزوجه على رأيها فى الحياة ولا هى تستطيع أن تنزل إليهما ، والمنقذ الذى تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد ، ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرضة فى وجل ، لأنها تسىء الظنّ بكل الرجال ، فماذا تفعل ؟

٧ — وهذا فتى مثالىّ يحسن الظنّ بالأيام ولكن الأيام تخلفه موعده : أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج ، ولكن أهلها زوّجوها من غيره ، والتمس الوظيفة التى يؤمّل أن يصل إليها بعد تخرّجه ، فنالها ولكنه وجدها غُلا فى عنقه وكمامة على فمه ، وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء ، وكلما غرس زهرة هبت عليها أعاصير الحياة فاقتلعتها وألقتها فى مواطئ النعال وبرم بالحياة وضاقت به الدنيا وما يزال فى باكر الشباب ... فماذا يصنع ؟

٨ — وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين ، يخاف الله ويخشى عذابه : أحب فتاة من جيرته حبا « عذريا » وأحبته ، وبرّح بهما الحب

حتى مايطيقان أن يمضى يوم دون أن يلتقيا ، ولقيته ذات مساء فى خلوة بعيدين عن أعين الرقباء ، وما أكثر ما التقيا فى خلوة ، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما ... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له ...

... ولما فاءت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكى ! وكان فى نيته أن يتزوجها حين ينتهى من دراسته بعد سنتين أو ثلاث ، وكان صادقا فى نيته ، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه ، ولكنها لم تطق الانتظار حتى تمضى السنوات الثلاث ، ولم تطق أن تراه بعد ، وجاءه النبأ بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة ...

وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعا سبب موتها ... ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتها فى نومه وفى يقظته ، ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه مايزال يذكرها كأنها كانت بالأمس ؛ وكتب إلى الرافعى يقول فى رسالته :

« ... إنى أنا الذى قتلتها ؛ إن دمها على رأسى ؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد غيرى وهذا أشد مايؤلمنى ، ولقد احتملت بصبر وثبات كل مانالنى فى هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب ؛ ولكنى اليوم أحس بأن صبرى قد انتهى ولم يبق لى قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت .. فماذا أفعل ... ؟ » .

ألوان وصور ، ملائكة وشياطين ، نفوس تتعذب ، قلوب تحترق ، أنات وابتسامات ـ دنيا لم يكن للرافعى بها عهد ، ولم تكن تخطر له على بال .

* * *

وثمة لون آخر من الرسائل :

.. المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم . . . شاب له خلق ودين ؛ وفيه اعتزاز بالعربية والإسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعى وينتصر له ؛ ويتتبع بشوق وشغف

كل ماينشر من كتب ومقالات : ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ؛ ويراه صاحب مذهب فى الشعر ورأى فى الأدب جديرا بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيبا ـ فيما أظن ـ أن يجتمع الرأى لأديب من الأدباء على محبة الرافعى والعقاد فى وقت معا ، كما أنه ليس عجيبا أن يتعادى الرافعى والعقاد أو يتصافيا مادام لكل منهما فى الأدب طريق ومذهب ، ولن يمنع مابينهما من الخلاف ، أومن الوفاق ، أن يكون لكل منهما قرّاؤه المعجبون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما ينشئ كل منهما فى فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارئ بالكاتب الذى يؤثره درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ولا يعترف لغيره بأن يكون له مكان بين أهل الأدب .

على أن شأن صاحبنا المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعى والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعى ويؤثره ؛ ويعجب به إعجابا يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب العقاد كذلك ، ويعجب به ، ويتعصب له . . لكل منهما فى نفسه مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يحبهما معا ، ويتعصب لهما معا !

رأيان يتواثبان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف فى التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبيْه اللذين يؤثر كلاًّ منهما بالحب والإعجاب والأستاذية ؟

صورة طريفة وقعت عليها فيما وقعتُ بين رسائل الرافعى !

وهذه رسالة منه إلى الرافعى يقول فيها [1] :

---

(١) ليست الرسائل تحت يدى فى اللحظة التى أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها فى نفسى كما قرأتها منذ قريب .

« سيدى ، إننى أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ، ولكن موقفك من العقاد ياسيدى ... ليت شعرى لماذا تتخاصمان؟ ...لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »

ثم لاتمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعى رسالته الثانية : « معذرة . إنك لتتجنى على العقاد تجنيا ظالما ، فما لك وجه من الحق فى عدائه والحملة عليه . لقد عقمت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير فى نفسى ، كبير جدا ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يدىّ فلا أجد غير الرافعى ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامى الشاعر بضع رسائل بين ماخلف الرافعى من أوراق : تملأ النفس عجبا ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعى من رسائله ، رسالتان . كتب إحداهما فى المساء ، وكتب الثانية فى صباح اليوم التالى ، ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا فى الطريق لتضاربا بالأكفّ ... !

على أن الرافعى مع ذلك كان يرد على رسائله ! وددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعى إليه [1] !

* * *

والآنسة الأديبة « ف . ز » معلمة فى إحدى مدارس الحكومة ، كان أبوها

(١) لما نشر هذا الفصل فى مجلة الرسالة . بعث إلى المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم برسالة ، فيها عتب وفيها أدب ، وفيها إلى هذين حديث لا أدرى أيقصد به أن يثبت هذه الرواية أو ينفيها ؛ ثم يمنينى بنشر رسائل الرافعى إليه ، على شرط أن تنشر إلى جانبها رسائله ، ولقد كان يسرنى أن أعرف بماذا رد الرافعى ، ولكن الوفاء بشرطه ليس لى به سلطان ، وإنه ليستطيع أن ينشر ما يشاء حيث يشاء !

زميلا للرافعي في محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود : فلما مات لم تنس ابنتُه صديقَ أبيها ، فكانت تستعينه في بعض شئونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد في شئون وشئون .

صحبته إلى زيارتها مرة في ليلة من ليالي الشتاء مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعي ، فلقيناها مع بعض صديقاتها : وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه في قصة « القلب المسكين ! »

* * *

. . وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرّائه وبينه صلات عجيبة من الود : فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسي الاعتراف » فترة غير قصيرة من حياته تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوّف ؛ وكان له في كل دار أذن وعلى كل باب رقيب عتيد ! ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التي ظفر بها الرافعي من قرّائه ؛ ولكني أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلا لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسرّ أحد فسماه أو عرّف به ؛ وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيري ؛ إلا قليلا من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجرّه إليه بعض الحديث في موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني - وما كان بيني وبينه حجاب أو سرّ - فما عرفت خبرها إلا بعد موته : ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إليّ ؛ فستظل أسرارهم - في يدي - مصونة عن عيون الفضوليين ؛ فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعوني الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ .

وكان له مراسلون دائمون ... يعدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم ، فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شيء من تطورات حياتهم ؛ وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأنس به والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجرّبوه وعايشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإنّ القارئ ليلمح فى هذا النوع من الرسائل الدورية التى كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ، مقدار ما أثر الرافعى فى حياتهم منذ بدأتْ صلتهم به ، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة ؛ وأدّى الرافعى إليهم دَينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر فى أدبه وفى حياته الاجتماعية . وإنى لأضرب مثلا لواحدة من هؤلاء الأصدقاء .

هى فتاة من أسرة كريمة فى دمشق ، نشأت فى بيت عز وغنى وجاه ، وهى كبرى ثلاثٍ نشأن نشأة يفاخرن بها الأتراب ؛ ثم تقلبت بهن الحياة فإذا هنّ بعد الغنى والجاه ناسٌ من الناس ، واضطرت الكبرى أنّ تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول أسرتها ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها مُعينٌ ساعدها دون أختيها فى ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجملَ الثلاث وأولاهنّ بالاستقرار فى بيت الزوج الكريم ، فقد سبقتها أختاها إلى الرفاء والبنين والبنات وظلَّتْ هى ... وما كان ذلك لعيب فيها ، ولكنه سر لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت هى وحدها ـ من دون أختيها ـ التى تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة ... وتألمتْ حين عرفت السرَّ ، ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت الأيام متتابعة والأمانىّ تخلف موعدها ؛ وتحرّكت فيها غريزة الأمومة ؛ ولكنها قمعتها بإرادة وعنف ، ومضت تصارع الطبيعة وتتحدّى القدر بعزيمة لا تلين ؛ ولكنها لم تلبث أن أحسَّت بوادر الهزيمة بعد طول الكفاح ، فشرعت قلبها

وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعى بإمضاء « الصابرة » .

وقرأ الرافعى رسالتها ، ثم قص علىّ خبرها وتندّت عيناه بالدمع وهو يقول : يالها من فتاة باسلة !

وأجابها على رسالتها بتذييل صغير فى حاشية إحدى مقالاته فى الرسالة . . .

وعادت تكتب وعاد يجيبها ؛ وتوالت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها عن كل أحد ـ وكانت كتبتْه إليه فى ورقة منفصلة فى إحدى رسائلها ليمزقه وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها ـ وكان الرافعى لها كما أرادت : أبا وصديقا ومرشدا ومشيرا ، ولم يأبَ عليها فى بعض رسائله أن يتبسط فى الحديث إليها عن قصة « القلب المسكين » لعلها تجد فيما يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية ... وتعزَّت المسكينة عن شىء بشىء ، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا ، وبدا فى رسائلها لون جديد لم يكن فى رسالتها الأولى ، وأخذت تكتب إليه عن كل شىء تحس به أو تراه حولها ، وتستشيره فيما جلَّ وما هان من شئونها : فى سفرها ، وفى إقامتها ، وفى رياضتها ، وفى عملها ، وفى يقظتها ، وفى أحلامها . . . فى كل شىء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ؛ حتى فى صلاتها مع صديقاتها وأصدقائها ؛ وفى الخُطَّاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها . . . ولم يكن يضنّ عليها بشىء من الرأى أو المشورة . . .

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ، وتحققت أمانيها على أكمل ما تتحقق أمانى فتاة ، وجاءها العروس الذى لم تكن أحلامها تتطاول إليه فى منامها ، وبرق فى إصبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون ! . . . لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها حتى لا أُعرِّف بها وبه ، فليس من حقى أن أكشف ما تريد هى أن

يظلَّ مستورا . لو قلت إن خطيبها وزيرٌ من وزراء ذلك البلد لما بعدْتُ !

واستمرت تكتب للرافعى والرافعى يجيبها . . . حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبعث بها إلى الرافعى ليشير عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعى ورأيه . . .

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة فى ٣-٤-١٩٣٧ (نعى الرافعى فى ١٠-٥-١٩٣٧) تقول فيها :

« الصديق الكريم . . .

« ما أحلى دعوتك ياصديق وما كان أشدها تأثيرا على نفسى ! لقد شعرت وأنا أقرؤها بسرور عميق ، وتركز فى ذهنى أن هذه الدعوة مقبولة . . . ما أسعدنى إذا صرت فى المستقبل أمًّا .

« أعتقد أنك تعرف تماما أن حنينى للزواج فيما مضى ، وتمردى وثورتى على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنى رأيته وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنبهت فى غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذى . . صرت أكره الأطفال لأنى ليس لى بينهم ولد ، وكنت إذ أرى أُمًّا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير يحز بقلبى ويكاد يقطعه ؛ وكثيرا ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهى حتى لا تقع عينى على هذا المنظر ، لست حسودة والله ؛ ولكن شدّة إحساسى كانت تجعلُنى بهذا الوضع . . . أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ؛ وأتمنى لو أنثر الخير والسعادة على الجميع . . .

« . . . والله يعلم أن ليس لى أى غاية مادية من وراء هذا الزواج ؛ وليس قصدى منه إلا الحماية والستر ، لأنى مللت ومرض قلبى من فضول الناس . . . »

وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعى مع زوجها ، اعترافا بحقه عليها ، ولكن القدر لم يمهله حتى يحين الموعد ، وحان أجله ولم ينظر بعينيه الفتاة التى تبنَّاها على بعد الدار وشغلتْه أحزانُها زمانا ، فلما ابتسم لها القدر وتحققت أحلامها ، ناداه أجله قبل أن يشاركها فى ابتسامة الفرح وتهانى المسرة . . !

تقول له فى رسالتها المؤرخة ١٥ - ١ - ١٩٣٧ :

« الصديق الكريم . . .

« . . . ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة..! على كل حال إذا وجدت ما يرعبنى فسأختبئ « وراء فلان [1]» ولابد أنه يحسن الدفاع عنى . لا ، لا ، سألبس درعا متينة تقينى (شرَّ) هذه المغناطيسية القوية ، ولكنى أخاف يا أستاذى أن يكونَ الحديد أكثر انجذابا ، وأكون حينئذ أسأت من حيث أردت الإحسان . . . صحيح أنى معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى دائما ، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و . . . قد يتفقان أحيانا وقد يختلفان ؟ ثم أليس لـ ... معانى كثيرة وأساليب عديدة . . . ؟

« تريد رأيى فى صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيدا فلماذا تريد إحراجى . . . ؟ »

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو كثر ، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . اسمع ، سأبدى رأيى . لا لا ، ما بدّى أقول ، أستحى ... ! »

وكانت تعرف من أمره مع « فلانة » ما قصَّ عليها فى رسائله . وفى رسائلها حديث كثير عنها ؛ وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها . . .

---

(١) خطيبها .

وأعتقد أن فى رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض فى قصة الرافعى و « فلانة » ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ، فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها فى هذه الرسائل فتهديها إلينا لتتم لنا بهذه الحلقة المفقودةِ سلسلةُ التاريخ !

إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها فى هذه الرسائل ؛ ولها علينا ما تشترط فنُوفيه ؛ فلعل صوتى أن يبلغ إليها فى مأمنها . ضمن الله لها سعادتها وحقق لها ما بقى !

☆ ☆ ☆

هذه قصة فتاة يجد القارئ بين أولها وآخرها أشتاتا من تاريخ الرافعى ؛ وفيها مثال يبين معنى ما سميته (النقلة الاجتماعية) فى حياة الرافعى بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل ؛ على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعى حظ أىُّ حظ ؛ وقد كان على أن يكتب ـ بما اجتمع له من فصول هذه القصة ـ مقالة بعنوان « الصابرة » جمع لها فيما جمع من نثار الأفكار قدرا غير قليل ؛ وما أخّره عن كتابتها ـ إلى أن وافاه الأجل ـ إلا انتظارُ الخاتمة فيما أظن ، وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع ؛ وهكذا نجد شدة احتفال الرافعى بموضوع ما تكون سببا فى تعويقه عن كتابته أو عن تمامه .

كان يحتفل بكتابه « أسرار الإعجاز » فلم يتم ؛ وبمقالتى « الزبال الفيلسوف » و « الصابرة » فلم يكتبهما ؛ ولكن التاريخ لم ينس له .

مقالات منحولة

كثيرا ماتدعو الدواعى كاتبا من الكتاب إلى إنشاء مقال لايذيله باسمه ؛ ويكاد يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالا فى صحيفة من الصحف غير معزو إلى قائله أو مرموزا إليه رمزا ما ؛ ولكن من غير المألوف أن ينشئ كاتب من الكتاب مقالة أو فصلا من كتاب ، أو كتابا بتمامه ، ثم ينسب ماينشئه إلى كاتب غيره وللرافعى فى تاريخه الأدبى حوادث من مثل ذلك ، فثمة مقالات ورسائل ، وكتب متداولة مشهورة ، يعرفها القراء لغير الرافعى ، وهى هى من إنشائه وكدّ فكره وعصارة قلمه ، ولكنه آثر بها غيره زهدا عنها أو التماسا للنفع من ورائها ، ولو أنى أردت أن أستقصى ما عرف من ذلك لأغضبت كثيرا من الأحياء أحرص على رضاهم وأخشى غضبهم ؛ ولقد كنت على أن أطوى هذا الفصل حرصا على مودتهم ، ولكنى وقد وضعت نفسى بهذا الموضع لأكون مؤرخا بعيدا عن التهمة — لم تطب نفسى بكتمان الشهادة ، فإذا لم يكن بوسعى أن أذكر كل ما أعرف فحسبى اللمحة الدالة والإشارة الموجزة ، ومعذرة إلى أصدقائى ...

* * *

فى سنة ١٩١١ أصدر الرافعى كتاب تاريخ آداب العرب فتقبله الأدباء بقبول حسن ؛ وكتبت عنه المقالات الضافية فى كبريات الصحف ، ولكن ذلك لم يكف الرافعى ؛ ففى ذات يوم قصد إلى جريدة « المؤيد » ؛ فلقى هناك صديقه المرحوم أحمد زكى باشا ، فأهدى إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلا عنه ؛ فقال زكى باشا :

« وماذا تريدنى أن أكتب ؟ » قال الرافعى : « تقول وتقول ... » قال زكى باشا : « فاكتب ماتشاء وهذا إمضائى ... ! » وجلس الرافعى إلى مكتب فى دار الجريدة فكتب ماشاء أن ينسب إلى صديقه فى تقريظ كتابه ؛ ثم دفعه إليه فذيله باسمه ودفعه إلى عامل المطبعة ...

وقرأ الناس فى اليوم التالى مقالا ضافيا بإمضاء « أحمد زكى باشا » فى تقريظ « تاريخ آداب العرب » شَغَل الصفحةَ الأولى كلها من الجريدة . ولكن أحدا من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الرافعى نفسه ؛ يثنى على كتابه ويطرى نفسه !

ولهذه الحادثة أخوات مع زكى باشا نفسه : فإنه لما أنشأ نشيده « اسلمى يا مصر ...» قرأ القراء مقالا فى الأخبار بإمضاء أحمد زكى باشا ؛ يثنى على النشيد ويطرى مؤلفه ؛ ولم يكن كاتب هذا المقال أحدا غير الرافعى ؛ بل إن أكثر المقالات التى يراها القارئ فى الكتيب الصغير الذى نشره الرافعى عن نشيده هذا [1] هو من إنشائه أو من إملائه !

وقد ظل هذا (التعاون) وثيقا بين المرحومين زكى باشا والرافعى إلى أخريات أيامهما ؛ ومنه أن زكى باشا كان على نية إعداد معجم لغوى كبير قبيل وفاته ؛ وكان للرافعى فى إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال : وفيه فصول ألفها الرافعى بتمامها وأعدها للإمضاء ... ولكن المنية أعجلت المرحوم أحمد زكى باشا عن إصدار هذا المعجم ؛ وأحسبه مايزال محفوظا بين مخلفاته المخطوطة .

* * *

ويمتّ بسبب إلى هذه المقالات التى كان ينحلها الرافعى صديقَه زكى باشا ،

(١) نشيد سعد باشا ـ المطبعة السلفية .

ما نحل أخاه المرحوم محمد كامل الرافعى من شرح ديوانه الذى أصدر منه ثلاثة أجزاء سنة ١٩٠٣ — ١٩٠٥ ؛ فإن شارحها هو الرافعى نفسه ؛ وفيها عليه ثناء وإطراء (١) .

* * *

فى الحادثتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التى كانت تحمل الرافعى على أن ينحل أصدقاءه بعض ما يكتبه ؛ وهنالك أسباب أخرى :

فى سنة ١٩١٧ وقعت فى طنطا جريمة قتل مروعة ، وكانت القتيل امرأة عجوزا مسموعة بالغنى والشح والكزازة ، تزوجها قبيل مقتلها شاب من الشباب العابثين طمعاً فى مالها ، فلم يلبث معها إلا قليلا ثم وقعت الجريمة !

وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب ؛ ثم انصرفت عنه إلى أختها وزوج أختها فسيقا إلى قفص الاتهام ؛ وكانا شيخين عجوزين ، فيهما بلاهة وغفلة ؛ فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما وهيَّآ بغفلتهما وبلاهتهما الفرصة للمجرم الحقيق أن يحوك حولهما الشبكة وأن يصوب عليهما أدلة الاتهام لينجو هو من العقوبة ...

كان المجرم الحقيق معروفا للجميع ، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البريئين المغفلين ، فألقت بهما إلى السجن المؤبد ؛ وقضيا فى السجن بضع سنين !

شيخان على أبواب الأبدية ، يساقان إلى ظلام السجن ليس من ورائه إلا ظلام القبر ، ولم يقترفا جريمة أو يرتكبا إثما ... ولكن القانون قد قال كلمته ، والقانون حق واجب الاحترام ؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية شفيعا من قسوة القانون .

---

(١) انظر ص ٤٣ من هذا الكتاب .

وسعت أسرة السجينين إلى المحامى الأديب المرحوم حافظ عامر تطلب إليه أن يكتب استرحاما فى أمرهما إلى أمير البلاد ، لعل فى عطفه ما يأسو الجرح ويخفف وقع المصاب ؛ وجعلت له أجرا على ذلك مائة جنيه !

وماذا يقول المحامى فى قضية فرغت المحكمة من أمرها وقال القضاء كلمته ؟

ليس هذا سبيل المحامى الذى يرتّب القضايا ويستنبط النتائج ويستنطق الصامت ويستوضح الغامض ؛ لقد فات أوان ذلك كله فلم تبق إلا كلمة الشاعر الذى يخاطب النفس الإنسانية فيجتلب الرحمة ويستدرّ العبرة ويحسن الاعتذار عن النفس البشرية من أخطائها فيذكى العاطفة الخابية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنسانى حديث الوجدان والشعر والعاطفة .

وقصد المرحوم حافظ عامر إلى صديقه الرافعى ، ليضع القضية بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحام إلى أمير البلاد ، وسمى له أجرة إن توفق فى مسعاه .

وقرأ الرافعى القضية وأحاط بها من كافة نواحيها ، ثم شرع قلمه وكتب ..

وبلغت صيحتُه حيث أراد فأُفرج عن السجينين فى مايو سنة ١٩٢١

وتناول الرافعى أجرته على ذلك من المحامى سبعة عشر جنيها ، واستبق المحامى لنفسه ثلاثا وثمانين(١) . . .

فى هذا الاسترحام الذى كتبه الرافعى فى بضع وأربعين صفحة ونحله صديقه المحامى ليطبعه باسمه . لونٌ من أدب الرافعى غير معروف لقرائه ؛ وفيه تحليل نفسى بديع ؛ وفيه شعر إنسانى يبلغ الغاية من السمو ؛ وفيه منطق واستنباط وملاحظة دقيقة لا تجد مثلها فى أساليب الأدباء .

وقد ظل هذا (التعاون) الأدبى متصلا بين الرافعى وصديقه الأستاذ حافظ عامر

---

(١) حدثنى حديث هذه القضية الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ، صديق الرافعى وملازمه من لدن نشأته .

إلى ما قبل موت الرافعى ؛ ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكمات إلى نطاق أدبى آخر ليس من حق أن أتحدث عنه اليوم . . . وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر ، تحدث به الرافعى إليه فى مجلس ضمنا نحن الثلاثة ...

* * *

أشرنا فى بعض ماسبق من هذه الطبعة إلى ما أجملنا ذكره فى الطبعة الأولى من خبر « رسالة الحج » المنسوبة للمرحوم حافظ عامر قنصل مصر فى جدة سابقا[1] على أن ماذكرناه إجمالا فى الطبعة السابقة لم تخف حقيقته عن كثير من القراء ، ففهموا ماقصدنا إليه ، وإن كنا لم نقطع برأى أو خبر فى نسبة تلك الرسالة ؛ وقد كتب إلينا صديقنا الأديب السيد حسين نصيف من جدة فى سنة ١٩٤٣ يقول : إن هذه الرسالة ليست من تأليف حافظ عامر ، ولا من إنشاء الرافعى ، وإنما نقلها أولهما عن ترجمة انجليزية مخطوطة لكتاب بالأردية عن «أسرار الحج» ولم يكن يعلم أن النسخة الأردية قد نشرت على قرائها فى الهند قبل ذلك بسنين ، وأن ترجمتها الانجليزية قد سبقت النسخة العربية التى نشرها حافظ عامر فى القاهرة بمعونة صديقه الرافعى ، ولكى يبرهن صديقنا الأستاذ نصيف على دعواه بعث إلينا بالنسخة الأردية لنوازن بينها وبين رسالة حافظ عامر ، فدفعناها إلى صديقنا الأستاذ محمد حسن الزيات ـ ردّ الله غربته ـ ليقارن بين الأصل و « الصورة » ففعل ؛ ولاتزال تلك النسخة الأردية عنده حتى اليوم . وقد نشرت مجلة « الرسالة » فى ذلك الحين دعوى السيد حسين نصيف والرد عليها ، وتناولنا موضوعها بالتعليق فى بعض ماكنا نكتبه وقتئذ فى مجلة « الثقافة » بتوقيع « قاف » تحت عنوان « الصحافة والأدب فى أسبوع »

---

(١) انظر ص ٣٢٠ من هذا الكتاب .

فإذا صح هذا الذى رويناه ـ ونحن نميل إلى تصحيحه ـ فإن عمل الرافعى فى تلك الرسالة التى نشرها المرحوم حافظ عامر منسوبة إليه ، لا يعدو عمل المنشئ وصاحب البيان لفكرة زعم له صديقه أنها فكرته !

* * *

ونعود إلى حديث المقالات المنحولة فنقول :

فى شهر ديسمبر من سنة ما ، قصد الأستاذ جورج إبراهيم صديقه الرافعى ، يطلب إليه أن يُعد كلمة عن المسيح لتلقيها فتاة مسيحية فى حفلة مدرسية فى ليلة عيد الميلاد ...

وكتب الرافعى المسلم كلمة مسلمة فى تمجيد المسيح فدفعها إلى صديقه ؛ وألقتها الفتاة فى حفل حاشد من المسيحيين المثقفين نخلبت ألبابهم واستحقت منهم أبلغ الإعجاب .

وفى الشهر التالى كانت هذه الخطبة المسيحية الرافعية منشورة فى « المقتطف » منسوبة إلى الفتاة ؛ وكانت عند أكثر القراء المسيحيين إنجيلا من الإنجيل .

تحت يدى الآن النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بخط الرافعى : وهى النسخة التى بعث بها إلى صديقه الأستاذ جورج ليدفعها إلى الفتاة ، وفى صدرها بخطه إلى صديقه : « هذا ما تيسر لى على شرط الفتاة ؛ فنقح فيه ما شئت ، واضبط لها الكلام . والسلام »

وفى آخرها يتفكه مع صديقه « وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة ، والمضرة ، والمعرة ياعم جورجى » .

* * *

وكان المرحوم الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى ـ صهر الرافعى ـ من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المقربين ، وكان أدنى إليه منزلةً من كثير من

تلاميذه ، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب ، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مخصوصا بالرواية عنه فى الناحية الدينية ، فكلاهما من تلامذة الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشرعته .

فلما هم البرقوقى أن يصدر مجلة البيان[1] ـ وكان السيد رشيد رضا قد سبقه بإصدار مجلة المنار ـ قصد البرقوقى إلى الرافعى يقول له : «إننى لا أتصور كيف يصدر العدد الأول من «البيان» وليس فيه كلمة أو حديث أو مجلس من مجالس المرحوم الأستاذ الإمام أصفه لقرائى ، وأنا كنت أدنى إليه مجلسا من رشيد رضا الذى لا يكاد يصدر عدد من مجلته ـ المنار ـ إلا وفيه حديث أو خبر أو مجلس من مجالس الشيخ !»

قال الرافعى : « فابدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو مجالس درسه ! »

قال البرقوقى : «ولكنى لا أجد عندى ما أرويه عن الإمام ؛ لقد ترك الشيخ فى نفسى أثره ولكنه لم يترك فى ذاكرتى من حديثه ومجالسه شيئا يستحق الرواية»

قال الرافعى : « ... ولا بد من ذكر شىء عنه فى البيان ؟ »

قال : « بلى ، وإلا غلبنى رشيد رضا واستطال علىَّ عند قرائه بأنه هو وحده تلميذ الإمام وراويه ! »

وضحك الرافعى وأطرق هنيهة ، ثم تناول قلما وورقة وكتب ...

وصدر العدد الأول من مجلة البيان ؛ وفيه حديث يرويه البرقوقى عن الشيخ محمد عبده فى مجلس من مجالس درسه ؛ بأسلوب من أسلوبه وروح من روحه وبيان فى مثل بيانه ؛ وما قال المرحوم الإمام شيئا من ذلك ولا تحدث به ، ولكنه حديث مصنوع وضعه الرافعى على لسان الأستاذ الإمام ونشره

---

(١) مجلة البيان : هى مجلة أدبية كان لها فى حلبة الأدب صولة وسلطان ، وهى غير «البيان» التى كان يصدرها المرحوم إبراهيم اليازجى .

البرقوق ليقضى لبانة فى نفسه ...

... ألقى إلىَّ الرافعى هـذا الحديث ساخرا ، ثم دفع إلىَّ العدد الأول من مجلة البيان وهو يقول : « اقرأ ؛ أترى هذا الحديث من مهارة السبك بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام ؟ »

وضحكتُ وضحك الرافعى ، وعاد يقول : «ولـكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لمـا قرأ هذا الحديث المصنوع ، التفت إلى جلسائه قائلا . وأى حديث هذا الذى يبدأ به البرقوقى مجلته ؟ لقد كنت حاضرا مجلس الشيخ ، وسمعت منه هذا الحديث ، ولـكنى لم أجد له من القيمة الأدبيةما يحملنى على روايته(١)... ! »

... واستمرّ هذا (التعاون) أيضا بين الرافعى والبرقوقى طول المدة التى كانت تصدر فيها مجلة البيان ، فأىّ مقال قرأت من أعداد هذه المجلة فشككت فى نسبته إلى مُذيله باسمه ، فاحمله على أنه ممـا كتب الرافعى من الأدب المنحول ...

ومن ذلك مقدمة شرح ديوان المتنبى الذى نشره البرقوقى

ويدخل فى هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعى يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتأدبين : ليدفع عن نفسه فى معركة ، أو يدعو إلى نفسه لمغنم ، أو ليعين صاحبا على العيش ، أوليوحى إلى (صاحب الإمضاء) إيحاء يدفعه إلىالاستمرار فى الأدب والأمل فى أن يكون غدا من الـكتّاب المشهورين ... وليس يعنينى فى هذه الناحية أن أسمّى أحدا أو أشير إليه ، إذ كان الذى كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية مايدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه ، وأكثره لغو ممـا ينشر فى بعض الصحف لملء الفراغ .

---

(١) أروى هذا الخبر عن الرافعى على علاته ، على أن صديقنا الأستاذ محمود أبو رية ينـكره ، وقد نفى المرحوم السيد رشيد رضا نسبة هذا الحديث إلى الأستاذ الإمام فى بعض كتبه ، أفتراه تنبه لها من بعد ؟

من شذوذه الاجتماعية

لم يكن الرافعى عضوا فى جماعة من الجماعات ، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف ؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال فى الرأى . وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأى يراه مجاملة لصديق أو خضوعا لرأى جماعة ينتسب إليها ؛ وكان له من علته سبب آخر نبّهتُ إليه عند الحديث عن نشأته . ثم إنّ الرافعى لم يكن رجلا اجتماعيا يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ النـاس فيما يليق وما لا يليق ، فهو لا يعتبر إلا رأيَه ، أو حاجتَه ، أو مصلحتَه ، فيما يكون بينه وبين الناس مِن صِلات ، ولم يكن يعرف هذا النفاق الاجتماعى الذى يسميه الناس التقاليدَ ، أو الأدب اللائق ... ، فهو بذلك كان عالمـًا منفردا يسير فى نهجه إلى الهـدف المؤمّل على وحى الفطرة أو هدْى الإيمـان . سمّ هـذا شذوذا فى الخُـلق ، أو سَمّه استقلالا فى الرأى وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها ؛ فمـا يعنينى هنا إلا إثبات هذه الحقيقة فى التاريخ كما شهدتها فى معاملاته وفى صِلاته بالناس ، وكما لمحتها فى جملة من أحاديثه .

... هذه الأسباب هى أهمّ ما كان يباعد بين الرافعى والاشتراك فى الجماعات ، أو يباعد بينها وبينه !

على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب فى وقت مّا لسبب مّا ، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضوا فى بعض الجماعات .

وأول أمره فى ذلك ـ على ما أعرف ـ أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين

فى تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الدينى : وكان معه على هـذا الرأى صديقان من أترابه ، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح المرقى المحامى بطنطا : وقد اتخذوا « مسجد البهى » فى طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ دعوتهم ، وطنطا كما قد يعرف كثير من القرّاء ، مركز هام من مراكز الثقافة فى مصر ، وفى أهلها حفاظ وتحرج ، ولها صبغة دينية نشأت من أنّ فيها معهداً دينيا كبيراً فى « الجامع الأحمدى » كان فى وقت ما يشتد عدْواً فى مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة . والأزهريون فى طنطا ، كالأزهريين فى القاهرة ، إلى عهد قريب ، أكثرُ أهل العلم فى مصر حفاظاً على القديم ، وأسرعُهم إلى سوء الظنّ بكل إصلاح جديد ؛ من ذلك لقى الرافعى وصاحباه فى دعوتهم ما لقوا من عِداء طلبة الجامع الأحمدى وعلمائه ، حتى همّ الطلبة مرة أن ينالوهم بالأذى فى أبدانهم ... فلم يجد الرافعى وصاحباه فى النهاية بدًّا من التسليم . وانحلت الجمعية الرافعية الصغيرة .

حدّثنى الرافعى حديث هذه الجمعية فى خريف سنة ١٩٣٢ بعد ثلث قرن مما كان ؛ وكنت ذهبت إليه يومئذ فى وفدٍ ثلاثةٍ ندعوه إلى الاشتراك معنا فى جماعة أنشأناها بطنطا فى ذلك الوقت باسم « جماعة الثقافة الإسلامية » تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية ، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجا ؛ وكانت تضم فيمن تضم طائفة ممتازة من أهل الرأى والعلم والأدب لكل منهم صوت ورأى وجاه فى قومه ...

ولبى الرافعى دعوتنا بعد تمنع ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد ، فلما استكملنا الأهبة ، دعونا الشباب المثقفين فى طنطا إلى اجتماع عام فى نادٍ كبير ، وكان الرافعى من خطباء الاجتماع .

صعد الرافعى إلى المنصة ، فوقف برهة يجيل نظره فى ذلك الجمع الحاشد ، ثم انطلق فى خطبته .

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة ، وعلى أن موضوعه هو الثقافة الإسلامية ، فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ « الجامع الأحمدى » ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ ؛ ولم يفت الرافعى أن يلاحظ ذلك ؛ فقال فى خطبته إلى هذه الناحية ، ينعى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبهم فى مثل هذه الدعوة ، وأن يؤثروا القعود على الجهاد ! وكان فيما قاله : « إن أديبا كبيرا من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى فى الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالما ! وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد فى كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا ... ! »

قالها الرافعى فى حماسة وانفعال وفى لهجة خطابية ثائرة ، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله ، أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافعى ، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ فى الأزهر قد خافوا أن تؤول كلمة الرافعى تأويلا ينالهم بالشر من إخوانهم الأزهريين ...

وعلى أن الرافعى كان برىء الصدر فيما قال ، وعلى أن الأزهريين كانوا يعلمون قبل غيرهم أن هواه معهم ، وعلى أن صدر كلامه وخاتمته لم يكن ينبئ عن قصد الإساءة ؛ فإن هذه الكلمة التى قالها قد أحدثت دويا بين الأزهريين تهدّد الجماعة فى نشأتها .

وسعى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدى (المرحوم الأستاذ محمود الدينارى) فأنبأه أن الرافعى قد قال فى خطبته : « لو قعد حمارى فى الأزهر بضع سنين لخرج

أعلم من شيخ الأزهر ... ! »

وكتبها كاتب فى رسالة خاصة إلى المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر .. !

وتسامع بها الشيوخ على ماحكاها الراوى فراحوا يتناولون الرافعى وجماعته بما وسعهم من التجريح فى أعراضهم ودينهم ومقاصدهم ، وقال قائل منهم : « وماحاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه ؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله فى العالم على حد السيف ، فما يغنى غناءه فى هذه الدعوى كاتب يكتب أو خطيب يخطب ! » وامتدت هذه القالة الطائشة على لسان طائفة ...

وعرف الطلاب من الأمر ماعرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب ، وسعت طائفة أخرى فى وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يقمع هذه الفتنة بسلطانه ، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية ؛ إذ كان للأزهريين يومئذ فى السياسة دولة وسلطان.

وإذا اتصل الأمر بالسياسة ، فإن طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة قد فزعوا فآثروا البراءة منها على الدفاع عنها ، وأشفقت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفدا إلى الأستاذ الدينارى شيخ الجامع يحقق له الرواية ويمحو سوء الظن ويعتذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد ردّا غير جميل وقال عن الرافعى ما قال ...

وجاء الخبر إلى الرافعى بما أحدثت كلمته ، فما أفزعه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نُقل إليه منسوبا إلى الرافعى وإنهما لصديقان من زمان ... فكتب إليه :

« ... وإن شيخا من علماء الجامع الأحمدى يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف ! وهذا كلام ، وسيبقى كلاما مادمت ساكتا عنه ، فإذا عرضتُ له

بالمناقشة فقد تغيَّر وجهُـه ، لو كان وجهَ النهار لاسودّ ! »

وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التى ادعاها خصوم الرافعى عليه بما زادوا فيها ونقصوا ، فكتب يعتذر إليه ، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدى . . .

وكان الرافعى جالسا إلى مكتبه فى المحكمة حين جاءه الرسول يدعوه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدى ، فرده ؛ وعاد يدعوه ثانية ويلح فى الرجاء ، فحدد الرافعى موعدا .

وذهب إلى لقاء الشيخ ، فاستقبله العلماء بالباب فى حفاوة بليغة ، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ ؛ قال الرافعى : « ووجدت الشيخ فى انتظارى وبين يديه « إعجاز القرآن » ؛ فما لقينى حتى قال : أتعرف ياسيدى أنى مدين لك ؟ هذا كتابك لا أجد لى رفيقا خيرا منه ، إنه زادى وعمادى . ثم عبَّث فى درج مكتبه قليلاً فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب ، فدفعها إلىَّ وهو يقول : وهذه قصيدة أعددتها لأنشدها بين يدى المليك فى طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه ؛ لا أجد من يصلحها خيراً منك ، فأنت أنت للشعر وللبيان ! »

قال لى الرافعى : « وبدون هذا كانت تقنع نفسى وترضى ، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائى ؛ طاعةً لأمر شيخ الأزهر بعد الذى قال عنى منذ أيام . . . »

تم الصلح بين الرافعى والأزهر ، ولكن الأزمة التى كانت ، لم تُبْقِ على الجماعة ، فانحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة . وكان للسياسة يومئذ حديث طويل . . .

ولم يشترك الرافعى على ما أعلم فى غير هاتين الجماعتين ،

* * *

ولم تتهيأ للرافعي رحلة من الرحلات يفيد منها علما أو تجربة طول حياته، غير رحلة أو رحلتين - لا أذكر - إلى الشام، لم يفارق مصر إلى غير الشام من بلاد الله؛ فزار طرابلس حيث ماتزال أسرة الرافعي لها ذكر وجاه، وزار لبنان حيث عرف صاحبة حديث القمر في سنة ١٩١٢.

على أن الرافعي كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتيحت له: ولكن موارده المحدودة كانت تقعد به: ولما كان في بطانة المغفور له الملك فؤاد، كان له جواز سفر مجاني في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية؛ فكان يعد حصوله على هذا الجواز ظفرا بأمنية عزيزة، لأنه أتاح له أن يتنقل ماشاء بين البلاد من غير غرم، حتى ما يكاد يستقر في بلد، فيوما في القاهرة، ويوما في الإسكندرية، ويوما في بور سعيد: يفيد من هذه الرحلات مايفيد لأدبه أو لبدنه وأعصابه، حدثني مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية، فأحس شيئا من التعب والملال، فقصد إلى المحطة فاتخذ مقعده في قطار كان على أهبة السفر إلى بور سعيد، فأتم قصيدته هناك ثم عاد...

وقد كان هذا الجواز هو سبب مابينه وبين الإبراشي مما فصّلت مجمله في فصل سابق، وكان الرافعي قد قصد إليه يطلب إليه مدَّ أجل هذا الجواز بعد انتهائه!

وكان يغبط الذين يجدون في طاقتهم أن يقضوا الصيف من كل عام في أوربا ويتمنى لو أتيح له، ليفيد من ذلك شيئا يجدى على أدبه. على أنه مع ذلك كان يرحل إلى أوربا أيان يريد، ولكن في السيما...

كان يسمى السيما: خارج القطر! ويزعم أن في ذهابه لمشاهدتها كلما سنحت له الفرصة غناءً عن السفر، فسواء عنده أن يرحل إلى أوربا في قطار أو باخرة،

وأن ترحل إليه أوربا بحالها فى رواية يشاهدها على ستار السيما ؛ فلكليهما أثر متشابه فى نفسه ؛ وذلك بعض مذهبه فى فلسفة الرضا والسعادة !

وكم كان ظريفا أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلا : « هل لك أن تصحبنى الليلة إلى خارج القطر ؟ » يلقى هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة ، لأن كلمة « خارج القطر » كانت عنده عَلَمًا عرفيا على السيما لا يحتاج إلى تعليق !

* * *

وكان عجيبا فى إيمانه بالغيب ، وتناجى الأرواح ، وتنادِى الموتى والأحياء : وكان يؤمن بالسحر والعرافة ؛ وكثيرا ما كنت تسمع منه : « حدثتنى نفسى . . . أُلقِىَ إلى . . . هتف بى هاتف » وكان يعنى ما يقول على حقيقته ، جلست إليه مرة فى منزله ، فأخذنا فى حديث طويل . . . وعلى حين غفلة سكت ، ثم قال : « كيف صديقنا مخلوف » ؟ قلت : « لم أره من زمان ! » قال : « إنه قادم الساعة ... لقد أُلقِىَ إلىّ . . . أحسبه الآن يصعد فى السلم . . . ! » فما كاد يتم حتى دق الجرس . وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم ، وسألت الأستاذ مخلوفا : أ كان على موعد مع الرافعى ؟ فنفى لى كل ظنة !

وسألنى مرة أخرى : « ماذا تعرف عن صديقنا م » قلت . « لا جديد من أخباره ! » قال : « يهتف بى الساعة هاتف أنه فى شر ! » وفى صباح اليوم التالى كان نبأ شروعه فى الانتحار منشورا فى الصحف ! وفى الرسائل التى تبادلاها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعى كان يعلم شيئا !

وكان بينه وبين رجلٍ قضية ، فغاظه ، وجاءنى الرافعى يوما محنقا وهو يقول : « سينتقم الله منه ! سينتقم الله منه ! قلبى يحدثنى بأن القصاص قريب ! » وفى الغد

جاءنا نعى الرجل ، وكنت مع الرافعى وقتئذ ، فندت عيناه بالدمع ، وتناول سبحته وأخذ يتمتم فى صوت خافت وشفته تختلج من شدة الانفعال !

هذه حوادث ثلاث رأيتها بعينى ، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض القراء ، وأحسبنى قد رأيت له غير ذلك ولكنى لا أتذكره الآن . . .

وحدثنى أن أباه كان مسافرا مرة إلى بلد ما ، وكان عليه صلاة ، فافترش مصلى وأخذ يصلى على رصيف المحطة ، وإنه لكذلك إذ جاء القطار . قال الرافعى : « وكان أبى حريصا على ميعاد هذه السفرة ، يخشى شيئا لو تأخر عن موعدها ، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ ؛ ولكن الشيخ استمر فى صلاته على وَنى واطمئنان ؛ وما تحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته واطمأن فى كرسيه وحيَّا مودّعيه ووصّى ؛ وكان سبب تأخير القطار شيئا غير مألوف يتصل بشأن من شئون المحطة ! »

وأحسبه ذكر مرة فى بعض ما كتب ، كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خفّ ! وأخبرنى أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعى استحضر روحه فلبت نداءه ، وكان بينهما حديث لا أذكره . وحاول مرة أن يعلمنى وسيلة لتحضير الأرواح ولكنى لم أتعلم !

وكان يحفظ كثيرا من الأدعية والدعوات لأسبابها !

ولما وقع فى حب « فلانة » ونال منه الوجد بها ، لجأ إلى العرافين فى أمل يأمله ، فكتب تميمة فعلقها فى خيط فربطها فى سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح .. [1] قال : « ولكن أمورا عجيبة مفزعة وقعت لى ولأهلى ولسكان الدار جميعا فى خلال اليومين اللذين كانت التميمة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك ؛

---

(١) انظر ص ١٠٢ من هذا الكتاب .

فإن لكل تميمة غايتين : إحداهما مما تأمل وثانيتهما مما تخاف ، وكان ماوقع لى ومايتهددنى من شر ، أكبرَ عندى من الأمل الذى كنت أرجو ؛ فندمت على ما كان ، وتسللت إلى السطح فحللت رباط التميمة وفضضت خاتمها ... قال : فما فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها فى رفق وأناة ؛ وزال ما كنت أحذر وهدأتْ نفسى من ناحيته : فما كان شأنى فى الحالتين إلا كراكب سفينة هبتْ عليها عاصفة ثم قرت ! .. قال : وما كان الذى وقع لى فى هذين اليومين مما يقع فى العادة ، ولا كانت نهايته وقد فضضت خاتم التميمة بالنهاية التى تنتظر ...! »

وكان يؤمن إيمانا لا شك فيه بأن يوما ما سيأتى فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة ، لأن بشيرا من الغيب هتف بهذه البشرى فى نفسه ؛ فهى لا بد واقعة ! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه المرحوم فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذى فقده منذ ثلاثين سنة أويزيد ، ورسالة أخرى من صديقه المرحوم حافظ عامر فيها شىء يشبه ذلك !

وأحسبه قال لى مرة أو مرات وكنت جالسا أتحدث إليه : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول ! »

ولو أننى ذهبت أستقصى ما أعرف من مثل هذه الأخبار ماوسعنى الوقت ، وفى بعض ما قدمت الكفاية لمن يلتمس أسباب العلم .

⁂

وكان الرافعى ولوعا بالرياضة البدنيـة من لدن نشأته ، يعالج أسبابها فى أوقات رتيبة ، وكان المشى الطويل أحبَّ رياضة إليه .

خرجت مرة فى جماعة من صحبى يوم « شم النسيم » للرياضة بعيدَ الفجر ، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضى اليومَ كله فى الخلاء ، فلما صرنا

على بعد ميل من المدينة والشمس لمـا تشرق ، لمحت الرافعى على بعد يخب فى مشيته على حافة قناة بين زرعين : فلمـا دنوت منه رأيته يميل فيبلل كفه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط مبسوط : وأقبلت عليه أسأله ، قال : « هذه رياضة تحلو لى كثيرا ، فما أتركها إلا لعارض ، بل إنى ليطيب لى أحيانا أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هـذه الجولة ، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان . . . » قلت : وهذا الندى الذى تغسل به وجهك ؟ قال : « إنه ينضّر الوجه ويردّ الشباب ! » ثم سأل : « وأنتم أين تقصدون ؟ » قلت : هذه رياضة لانقوم بها فى العام إلا مرة ، وإن معنا لطعاما وماء وحلوى ؛ فهل تصحبنا ؟

قال : « وددت ولكن فى غير هذا اليوم ... أسأل الله لكم العافية ! »

ونالنا فى هذا اليوم شر لم نتوقعه ، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين!...

وسمع الرافعى بمـا نالنا فقال : « هو ذلك ! إن الشر ليتربص بالمسلم الذى يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم ! هذه وصية أب ! » (١) .

وكان يعالج كثيرا من وسائل الرياضة غير المشى ، وقد أتقن تمرينات « صاندو » الرياضى الفرنسى المشهور . . .

ولو أن أحدا دخل منذ سنوات الغرفة التى كان فيها مكتب الرافعى ، لرأى (عُقـْلَةً) تتدلى من السقف ، وكُراتٍ وأساطين من الحديد ملقاة إلى جانب ، وأثقالا من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط .

وقد كان إلى قريب يملك عودا طويلا من الحديد الغليظ يعلق فى طَرَفيه

---

(١) وصفت هذا الحادث فى مقال نشرته بمجلة الرسالة المصرية منذ أعوام ، بعنوان « يوم لا أنساه ! » .

ولديه الشابين سامى ومحمد ، ثم يرفعهما بيده كما يفعل أبطال الحمل حين يحملون من أثقال الحديد ... !

وكان ولعه بالرياضة يحمله على السعى إلى أبطالها يلتمس صداقتهم ؛ ومن أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبدالحليم المصرى ، والبطل المصرى المشهور السيد نصير !

ومن عجائب الازدواج فى شخصية الرافعى أنك كنت تنظر على مكتبه ثلاث صور لاتجتمع فى مكان ؛ هى صورة المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وصورة الرياضى الفرنسى المشهور صاندو ، وصورة ... كريمان هانم خالص ، ملكة الجمال التركية فى وقت ما ؛ واسترعى اجتماع هؤلاء الثلاثة ملاحظتى ذات يوم ؛ فقال وأشار إلى صورتى صاندو والشيخ محمد عبده :

« هاتان قوتان تعملان فى نفسى : قوة فى روحى ، وقوة فى جسدى ! »

قلت : « وهذه ... ؟ »

قال : « وهذه . . . ! ما أجملها ! انظر ! ألا تقرأ شعراً مسطوراً على هذه الجبين ؟ »

وكان سباحا ماهرا ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه ، وكان يمزح ويسميه « بلاج الرافعى » ، إذ قل أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطافين فى سيدى بشر غير الرافعى وأسرته .

ولا يطعن فى قدرة الرافعى على السباحة أنه أوشك أن يغرق مرة ؛ كان ذلك قبل منعاه بأشهر ، وكاد يغرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس الشط لنجدتهم .

وللرافعى صورة طريفة تصوّرها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله فى زى أبطال الرياضة المشهورين : عارى الجسد ، بارز العضلات !

وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها مسلسلة فى مجلة « المضمار » الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة .

وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوّته البدنية ، ومن أسباب قوته العصبية أيضا : ومن هاتين كان اصطبار الرافعى على العمل الشاق فيما يعالج من شئون الأدب .

ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأنّ القدر أقوى من احتيال البشر !

* * *

قلت فى أوّل هذا الفصل : إنّ الرافعى لم يكن رجلا اجتماعيا يلتزم ماتعرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوبَ الناس فيما يليق وما لا يليق ...

فلعل قرّاء الصحف المصرية مايزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذى كان يطالعهم فى كل جريدة وكل مجلة « عن الفسفورين » وفى رأسه صورةُ الرافعى وشهادةٌ بخطه عن مزايا الفسفورين الذى « شربه فكأنما شرب فيه الكهربا ... »

ولعل كثيراً من الذين قرءوا هذا الإعلان ورأوا فى رأسه صورة الرافعى وشهادته بخطه ـ قد عجبوا وسألوا أنفسهم : كيف يرضى رجل كالرافعى أن يضع نفسه هذا الموضع ؟

ولعل كثيرا منهم كذلك كانوا يعتقدون أنّ الرافعى لم يكتب هذا الإعلان إلا مأجورا كما يؤجر «نجوم» السيما وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف العطر والصابون وأدوات الزينة ... ... !

. . . ولكن هذا الذى كان يدور فى خَلَد جميع القراء ، أو أكثر القراء ،

لم يكن يخطر للرافعى أو يدور بخلده ؛ بل لعله كان يراها مفخرة له على أدباء الجيل أن يؤخذ بشهادته من دونهم جميعا ، وأن تُنشر صورته كلَّ يوم فى كل جريدة مع لقب « إمام الأدب وحجة العرب ... » الذى نحله إياه الأمير شكيب أرسلان فى بعض ما كتب عنه ! وأحسبه قال لى مرة : « إن الأديب فلانا ليأكله الغيظ كلما رأى هذه الصورة مقترنة إلى هذا اللقب الذى لا يتطاول إليه أديب من أدباء الجيل ! »

أتُراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين ؛ أم شهادة من الفسفورين بإمامته ... ؟

ولكنه - يرحمه الله - لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليرى أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان عمل لا يليق !

والسبب الذى دعاه لكتابة هذا الإعلان ، أنه ذهب مرة ليشترى دواء من صيدلية ؛ فأهدَى إليه من أهدى شيئا من الفسفورين زعم أنه يعينه على المجهود العصبي الذى يبذله فى معاناة الأدب ؛ ثم دعاه بعدُ إلى كتابة هذا الكتاب ؛ فلما أجابه الرافعى إلى ما طلب ، بعث إليه فى منزله بهدية من مركبات الفسفور فى صندوق ... ثم كان كتاب الرافعى - كما رآه القراء - إعلانا بأبخس الأثمان ، وهو راضٍ مسرور !

وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان ؛ نشره منذ سنين فى مجلة المقتطف [1] ، يُشيد بفنِّ مهندسٍ مشهور ؛ لأنه وضع له رسما لمنزله الذى مات قبل أن يبنيه ؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذى وضعه !

وإلى القراء هذا الإعلان ؛ أثبته هنا طرفةً أدبية لا يقع القراء على كثير من أمثالها ..!

(١) سنة ١٩٢٨

إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس ...

عزيزى الأستاذ رمسيس

تأملتُ رسمك الجميل الذى وضعتَه لمنزلى ، وتتبعتُ مواضعَ الاتصال فيه بين قريحتك المبدِعة وبين شكل الطبيعة ورُوحها ؛ فأشهدُ لكأن هذا الرسم بما فيه من القوة يُحاولُ أن يحيا فى نظر من يَتأمله .

إنك بهذا الذوق السليم الحىّ لتعطينا السرورَ فى شكل من الفن ؛ حتى لو مَلَكَ المالكُ رُقعة من الأرض كالبقعة من الظلمة لوضعتَ لها من هندستك غُرّةَ فجر يضىء عليها .

وأراك بهذه الدقة وهذا العلم كأنما ترغِمُ الطبيعة أن تقدم لك حسابا عن كل مكان تتناوله منها ؛ وأحسبها لو هى صنعت بناءً كما تصنع ثمارَها وأزهارَها لجاءت به فى موضعه على الرسم الذى تتخيَّله أنت لموضعه ، كأنك أُعْطيتَ بالعلم سرَّ إظهار الجمال فى أشكاله كما أُعْطيتْ هى بالقُدرة سرَّ تكوين الأشكال فى جمالها ...

ما أبدعَ ماتمزجُ أيها الساحرُ بين القريحة والمادة ، وما أدقَّ ماتصلُ بين الجمال والمنفعة ، وما أكمل ما تحققُ بين المخيِّلة والواقع ! إن هذه الخطوط التى رسمتها لتكون مِيلادَ بيت جميلٍ ، هى نفسها ميلادُ فنٍ بليغ يقيمُ لك بناءً فخما من إعجاب محبك ؟

ديسمبر سنة ١٩٢٨ مصطفى صادق الرافعى

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلانا عن فنه بشهادة الرافعى ؛ وحسْبك بها من شهادة !

° ° °

ولئن كان فى هذين الإعلانين الكفاية لإثبات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية ، إن فى الحادثة التالية لشاهداً حقيقاً بالنظر :

عادالأستاذ حافظ عامر من الحجاز ذات سنة فى إجازته ، فأهدى إلى الرافعى سُبْحة نادرة لمناسبة عودته ، زعم له أنها تساوى بضعة جنيهات .

وعرض الرافعى السبحة علىَّ وقال : « كم تساوى ؟ » قلت : « لا أدرى ! » قال : « فهل لك أن تقومها فى السوق ؟ » فذهبت بها ـ ولم أكن أعرف أنها مهداة إليه ـ فلم أجد لها شبيهاً فى السوق ، ولكن تاجرا أنبأنى أنها لا تساوى أكثر من جنيه !

وأنبأت الرافعى بما سمعت ، فما لبث أن تناول قلمه وكتب رسالة إلى صديقه يعتب عليه أن يغالى بقيمة الهدية إلى خمسة أمثالها ! !

وعلمتُ بعدُ بما كتب الرافعى فتألمت لذلك ولم أكتم عليه رأيى ؛ فنظر إلىّ مدهوشاً وهو يقول : « أتراه خطأ أن أكتب إليه بهذا ... ؟ »

قلت : « نعم ! » فسكت هنيهة ثم قال : « وهل تراه يغضب لهذا ؟ »

قلت : « أظنّ ! »

فعاد إلى سكوته وفى وجهه الأسف !

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد ، فيه عذْل ، وفيه عتاب ، وفيه ورقة بجنيه يطلب إليه أن يشترى به سبحة مثلها إن وَجَد ... !

وقرأ الرافعى رسالة صديقه ؛ وكان حريا أن يشتدّ به الأسف لجواب صديقه ، لولا أنّ هذا الجنيه قد محا ما كان فى نفسه ... فاستبقاه لنفسه ... !

فى يومه الأخير

فى الساعة الثانية بعد ظهر الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧ ، نهض الرافعى عن مكتبه فى المحكمة منطلقاً إلى داره ، يرافقه صديقه الأديب أمين حافظ شرف - وهو كان رفيق أوْبته كل يوم - وتحت إبطه عديدٌ من الكتب والصحف والمجلات . تعوّد ألا يسير إلا ومعه مثلها ، وفى يمناه عصا لا يعتمد عليها ولكنه تعوّد ألا يمشى إلا بها .

وافترق الصديقان وبينهما ميعاد على اللقاء مساءً فى مكان ما ، ليذهبا معاً لمشاهدة فرقة راقصة هبطت المدينة منذ قريب . وتغدّى الرافعى وصلى الظهر ونام ، ثم نهض بعد ساعتين ، فصلى العصر وجلس إلى أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسّط لهم ، على عادة تعوّدها : ثم ذهب إلى عيادة ولده الدكتور محمد ، حيث لقى هناك أخاه الدكتور محمد النبوى ، وصهره الأستاذ مغازى البرقوقى : فجلس يمزح ويضحك ويتندّر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندّر فى يوم من الأيام : ثم صلى المغرب والعشاء فى العيادة ، وصحب أخاه إلى مأتم جار من العامة ليعزيا أهله . والمعروف عن الرافعى أنه كان يكره حضور المآتم وتقديم التعازى كراهة ظاهرة : وقلما كان يُشاهَد فى مأتم ، حتى إنه لما توفيت زوج ابنه سامى ، لم يجلس فى المأتم إلا لحظات ، ثم انفرد فى خلوته يستوحى الحادثة مقاله المعروف « عروس تزف إلى قبرها ! » ، وجاء المعزّون يلتمسون الرافعى

ثم يحدوا إذا وسد وصهره .. (١) .

أفكان الرافعي بحضور هذا المأتم في يومه الأخير يريد أن يصل نسبه ويعقد آصرة بالعالم الثاني ، أم كان ذلك ميعادا إلى لقاء قريب . . . !

ثم ذهب الرافعي بعد التعزية إلى موعد صديقه ماشيا . واتخذا طريقهما راجلين إلى حيث أرادا : فتفرجا ، وشاهدا ما شاهدا في الحفلة الراقصة . وأخذ الرافعي ما أخذ من وحي الراقصات لفنه وأدبه ، وأخذ صديقه ما أخذ . . .

أفكان الرافعي يريد من هذه السهرة أن يصل ما انقطع من قصة (الجمال البائس) أو (القلب المسكين) و(في اللهب ولا تحترق) . . . ؟

. . . وفي منتصف الساعة الثانية عشرة ، كان الرافعي في طريقه إلى بيته ، بعد ما ودع صديقه في منتصف الطريق ؛ فلما بلغ الدار ، خلع ثيابه ، وتناول عشاءه حفنة من الخبز والبطارخ ؛ والبطارخ كان طعام الرافعي الذي يحبه ويؤثره على كل طعام في المساء ؛ لأنه كان يؤمن بفائدته لأعصابه ؛ وكان يستورده من بور سعيد جملة .

واستيقظ مع الفجر على عادته كل يوم ، فتوضأ وصلى ، وجلس في مُصلاه يسبح ويدعو ويتلو قرآن الفجر . وأحسّ بعد لحظة حُرَاقا في معدته ، فتناول دواءه وعاد إلى مصلاه ؛ وصحا ولده الدكتور محمد لموعده ، فشكا إليه ما يجد في معدته ، ولم يكن إلا شيئا مما يعتاده ويعتاده الناس كثيرا من حموضة في المعدة ، فأعطاه ولده شيئا من دواء وأشار عليه أن ينام ، ثم لبس محمد ثيابه ومضى ليدرك القطار الأول إلى القاهرة كعادته كل يوم ، ومضت ساعة ثم نهض الرافعي من

---

(١) انظر ص ٢٧٥ - ٢٧٧ من هذا الكتاب .

فراشه لا يحس ألما ولا يشكو وجعا وما به علة : فأخذ طريقه إلى الحمّام . فلما كان فى البهو سمع أهل الدار سقطة عنيفة أحدثت صوتا شديدا : فهبّوا مذعورين ليجدوا الرافعى جسدا بلا روح !

قال الدكتور محمد : « ولما وجدت البرقية تنتظرنى فى محطة القاهرة وليس فيها سبب ما يدعوننى إليه ، تحيرت حيرة شديدة : بلى ، قد أيقنت أن شيئا حدث وأن كارثة وقعت ، ولكن لم يخطر فى بالى قط أنه أبى . لقد تركته منذ ساعتين سليما معافى قوىّ القلب أقوى ما يكون قلبُ رجلٍ فى سنه . . . كل المفاجآت المروِّعة قد خطرت فى بالى إلا هذا الخاطر ، ولكن . . . ولكن الذى مات كان أبى . . ! »

يا صديق ، لك العزاء ولى : أحسبت أن الرافعى سيموت فى فراشه وهو قد نذر أن يموت فى الجهاد وفى يده الراية ينافح بها الشرك والضلال ويدعو إلى الله « ويواصل حملة التطهير[1] . . . ؟ »

طبتَ نفْسا يا مصطفى ! لكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش وثقلَ الأيام التى تُعَدّ من الحياة وماهى من الحياة ! فأىَّ كرامة نلت ؟ وأى مجاز جزت ؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد ؟ وهل كانت إلا خَفْقة نَفَس نَقلتْك من ملأ إلى ملأ أرحبَ فى كنف الخلد وفى ظلال الجنة ؟

يرحمك الله يا صديق ويرحمنا !

* * *

وحُمِل جثمانُه بعد ظهر الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ، إلى حيث رقد رقدة

---

(١) ما بين القوسين « » نص عبارة الرافعى فى رسالة بعث بها إلى صديقه الأستاذ صاحب الرسالة قبل موته بأيام ، يحدد نهجه فى العمل ! .

الأبدِ فى جوار أبويه من مقبرة الرافعى بطنطا ، لم يشيّعه إلا بضع عشرات من زملائه فى المحكمة ، أو من جيرانه فى الدار !

وبلغ نعيَه أقطارَ العرب وأدباء العربية : فسكت القارئ وتلفت السامع ، وتغشى السامرين من أهل الأدب سكون ووحشة وانقباض .

وطالت فترة الصمت ، والسامرون فى غشيتهم لا ينطقون ، إلا نظرات شاردة ، وخواطر تصطرع وتموج ، وذكريات تنبعث محرقة لاذعة ، تذكّر بما كان وتنبه إلى ما ينبغى أن يكون ...

وهمس هامس : « يرحمه الله ! لقد كان رجلا للدين وللعربية هيهات أن تجد بديلا منه أو ينقضى زمان من عمر التاريخ ! »

ثم عاد الصمت ، وعاد السكون ، إلا النظرات الشاردة ، والخواطر المائجة ، والذكريات والأمانى ...

وهتف هاتف فى جلال الصمت وفى وحشة السكون : « إن للفقيد حقا على اللغة ، وحقا على المسلمين ، لا يجزئ فيهما أن نقول : يرحمه الله ! »

وتدانت الرءوس ، وتجاوبت النظرات ، وانثالت الأفكار ، وتزاحمت الأمانى : ثم لم يلبث أن عاد الصمت وعم السكون !

ثم عاد القارئ يقرأ ، وأنصت السامع يسمع ، وانتحى اثنان يداولان الرأى فى شأن من شئون الأدب ، وتماسك اثنان يفاضلان بين الجديد والقديم ؛ وغامت فى سماء النّدىّ غائمة ، وانعقدت على رءوس السامرين عجاجة ، وضج المكان كسالف عهده ، واختلطت الأصوات فما يبين صوت من صوت ، واشتغل كل بما هو فيه ...

وصاح صائح فى نبرة اليائس المحزون : « ويحكم يا بنى يعرب ! لقد شغلتكم

دنياكم عن الوفاء ، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت ! لقد كان هنا إنسان منكم ، وإنه لأرفعكم صوتا ، وأبلغكم بيانا ، وأبعدكم غاية ومدى : فهلا ذكره منكم إنسان ! »

وبرقت العيون ، واختلجت الشفاه ، واهتزت الرءوس ، وانبعث صوت السامرين يحوقل ويسترجع فى همس خافت ، وقال قائلهم : « يرحمه الله ! لقد كان . . . ! »

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائها : يتهاوَوْن من الذروة إلى بطن الودى فردا فردا ، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم فى بلادة وصمت ، لا تشيّعهم منهم قدم ، ولا تتبعهم عين باكية ، ولا يذكرهم منهم إنسان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هـذا كل تراث الأديب فى العربية لبنيه وأهله ، هو حسْبهم من الطعام والشراب والثياب وتكاليف الحياة ، وفيه العِوَض كلُّ العِوض من عائلهم الذى طواه الموت بين الصفائح والتراب !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا هو الخلود الذى ضمنتْه العربية لمن يموت من أدبائها وهو فى ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض وشئون العيال ، ويبذل نفسه لينشئ أدبا يسمو بضمير الأمة ، ويشرع لها طريقا تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزاء ، وكل مايملكه أدباء العربية من أساليب المواساة ، وكل ما يقدر عليه ناطق يبين ، وصديق يتحبّب ، وحبيب

يشعر أنّ عليه حقا لمن يموت من أهل البيان !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

صوت ماله صدى ، وتراث ليس فيه غَناء ، وطعام لايهنأ ولايمرأ ، وخلود لايدوم إلى غد ، وعزاء لايجفف دمعة ولا يخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه وسعادة دنياه !

يرحمه الله ! يرحمه الله !

... خلّوا عنكم أيها الأدباء الكبار ، وأيها الشعراء العظام ، وأيها الخطباء المصاقع : خلّوا عنكم عناءها ، سيرحمه الله وإن لم تقولوها : سيرحمه بما جاهد ، وبما بذل ، وبما عانى ، وبما تحمّل من جهد التضحية ومشقة الحرمان : وسيرحمه ثانية بما لقى من العقوق وكان برًّا ، وبما لقى من الغدر وكان وفيًّا ، وبما قوبل من إنكار الجميل وكان من أهل الجميل : وسيرحمه بدموع اليتامى ، وبأنات الأيامى ، وبدعوات كثيرٍ من أهل الإيمان وفَوا له ما وسعهم الوفاء !

مضى عام وأوشك عام ثانٍ منذ مات الرافعى [1] ، فهل سأل أحدٌ : كم خلف وكم ترك ؟ .

سأقول وإن لم يطلبها أحدٌ إلىّ ...

أما المال فلا سبد ولا لبد ، وأما الأدب فثروة للرواة ومحزنة للولد ، وأما العيال ... فواحَزَناً لوكان يجدى الحزن !

هذا « سامى » كبيرُهم فى بعثة الجامعة بأمريكا مايزال بينه وبين الغاية خطوة ؛

---

(١) كتب هذا الفصل فى الذكرى الاولى لوفاته ، فى ١٠ مايو سنة ١٩٣٨ .

وهذه « سعدية » الصغيرة تلثغ فى الراء وتضم شفتيها على الباء ؛ وبينهما ثمانية يقوم على شئونهم « محمد » ! الله لهذا الشاب العائل ! لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين ، حتى كان عليه عبء الأسرة كله ، فكأنما كان هو فى تلك الغربة وديعةً إلى أجل ، وذخيرةً إلى ميعاد : وعاجلته تبعاتُ الحياة ولم يزل فى باكر الشباب !

والحكومة . . . ؟ خلّى عنك يا وزارة الحقانية ، خلّى عنك يا وزارة المعارف ، خلِّ عنك يا وزير المالية ... الله أكرم !

لقد تصرّم من عمر الرافعى فى خدمة الحكومة ثمان وثلاثون سنة ، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين ؛ فأى مكافأة نالها وأى جزاء ؟ بضعة عشر جنيهاً فى كل شهر تأبى الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث ... !

إنه الرافعى ، إنه الرجل الذى كان اسمه فى مقدّمة الأسماء المصرية التى تؤكد زعامة مصر للأمم العربية ، وترفع اسمها ، وتبنى مجدها الممتاز ، وتسنّ طرائقها التى يحتذيها الأدباء فى العالم العربى . إنه هو ... ولكنها هى مصر !

وكتب رئيس الرافعى فى وزارة العدل كتاباً غداة منعاه إلى وزارة المالية ؛ يصف لها من حال الرافعى ومن خبره ، ويقترح أن تنزل الحكومة عن نصيبها من الميراث فى (معاش) الرافعى لأولاده ... ولكن وزير المالية يأبى [1] . . ولكن الله أكرم ... !

« يرحمه الله ! يرحمه الله ! » .

ذلك كان جواب الحكومة المصرية ... !

لقد مضى عام وأوشك عام . فهل تذاكر أدباء العربية فيما عليهم للرافعى ؟

---

(١) كان وزير المالية لذلك العهد هو مكرم عبيد ! .

وهل ذكرت الأمة والحكومة ما عليهما من واجب الوفاء للرافعى ؟

لقد تداعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتأبين الرافعى ، وجاء الميعاد وتخلف المدعوّ والداعى ؛ وترادف ميعاد وميعاد وميعاد : ومضى عام ، وعلى مكتب كل أديب دعوةٌ لتأبين الرافعى ، وفى ذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو بلسانه : « يرحمه الله : يرحمه الله ! »

وعند دكاكين الوراقين أسئلة عن كتب الرافعى ، ولكن السوق ليس فيه كتاب من كتب الرافعى (١) : وقال قائل : « أعيدوا طبع الديوان ، أعيدوا طبع إعجاز القرآن ، أعيدوا ... أعيدوا ... »

وقال الطابع والناشر والوراق : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وعلى مكتب الرافعى كتبٌ لم تطبع ، وقصاصات لم ترتب ، وثمرة عقل خلاق كان يجهد جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكرا جديدا . وقلنا : « ياوزارة المعارف ، هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العث والفيران فيضيع على العربية كنز ماله منه عوض ! ولكن وزارة المعارف فى أحلامها الهنيئة لا تسمع ولا تجيب ، إلا همسا فى أمثال أنفاس النائم تُردد قول الناس : « يرحمه الله ! يرحمه الله ! »

وفى الأمة مع ذلك أدباء ، وفى الأمة كتاب وشعراء ، وفى الأمة ناشئة غافية ما تزال ترجو الخلود فى الأدب ...

وفى الأمة عقول ناضجة فى أجسام مهزولة من الفقر والجوع : وفى الأمة

---

(١) لم يكن فى السوق من كتب الرافعى إلا « وحى القلم » فى مكتبة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى طبعته قبل نعى مؤلفه بأشهر ؛ ثم تزاحمت مكتبات القاهرة على نشر مخطوطاته ، وإعادة طبع ما نفد من مؤلفاته . وتكاد كتبه جميعاً أن تكون اليوم متداولة فى أيدى الوراقين بمختلف العواصم العربية .

رءوس ممتلئة على أناسيَّ تضطرب كل مضطرَب للبحث عن القوت .

وفى الأمة رءوس فارغة على أجسام تكاد تتمزق شبعا وريا ؛ وفى الأمة قلوب خاوية فى أناسيَّ تتمرغ بين وسائد الدمقس وحشايا الحرير ...

وفى الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشا : « لماذا ... لماذا لانجد فى الأمة العربية شعراء وكتابا ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ... ؟ »

يرحمك الله يامصطفى ... بل يرحمك الله أيتها الأمة !

الخاتمة

مات الرافعي فانطوت صفحة من تاريخ الأدب في مصر ، وانقرض جيل من أدباء العربية كان له مذهب ومنهاج ، ولكن الرافعي الذي مات وغيّبته الصفائح قد خلّف وراءه تراثا من الذكريات والآثار الفنية ستتعاقب أجيال قبل أن يفرغ الأدباء من دراستها والحديث عنها : وإنها لذكريات تثير في كل نفس ما تثير من عوامل الكره أو المحبة . وإنها لآثار ...

أما هذه الذكريات ، على ما تبعث في نفوس من معاني الغضب أو معاني الرضا ، فقد أثبتّ منها في هذه الفصول ما قدرت عليه : وليس يعنيني ما تترك من أثر في نفس قارئها ، إذ كانت غايتي التي أحرص عليها هي جلاء هذا التاريخ لقراء العربية كما أجد صورته في نفسي وأثره في وجداني ، متجردا ما استطعت من غلبة الهوى وسلطان العاطفة وتحكم الرأي : لأضع بين يدي كل قارئ - اليوم أو غدا - المادة التي تعينه على الدرس والحكم والموازنة .

وأما آثاره الأدبية فقد فصّلت الحديث عن بعضها في بعض ما سبق من هذه الفصول ، وإلى القارئ جملتها مرتبةً على تاريخ إنشائها :

١ - ديوان الرافعي : ثلاثة أجزاء ، صدرت بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩٠٦ . وقدم لكل جزء منها بمقدمة في معاني الشعر تدل على مذهبه ونهجه ، وهي مذيلة بشرح يُنسب إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي وهو من إنشاء المترجم نفسه .

٢ - ديوان النظرات : أنشأه بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٨ .

٣ ـ ملكة الإنشاء : كتاب مدرسي يحتوي على نماذج أدبية من إنشائه ، أعد أكثر موضوعاته وتهيأ لإصداره في سنة ١٩٠٧ ، ونشر منه بعض نماذج في ديوان النظرات ، ثم صرفته شئون ما عن تنفيذ فكرته فأغفله ، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق إلا النماذج المنشورة منه في ديوان النظرات .

٤ ـ تاريخ آداب العرب : صدر في سنة ١٩١١ بسبب من إنشاء الجامعة المصرية ، ويراه أكثر الأدباء كتابَ الرافعي الذي لا يعرفونه إلا به .

٥ ـ إعجاز القرآن : وهو الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ، طبع ثلاث مرات ، أخراها في سنة ١٩٢٦ على نفقة المغفور له الملك فؤاد [١]

٦ ـ حديث القمر : أول ما أصدر الرافعي في أدب الإنشاء ، وهو أسلوب رمزي في الحب تغلب عليه الصنعة ، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة ١٩١٢ حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأديبة (م . ى) فكان بينهما ما كان مما أجملت الحديث عنه في بعض الفصول من قصة حبه .

٧ ـ المساكين : فصول في بعض المعاني الإنسانية ألهمه إياه بعض ما كان في مصر من أثر الحرب العامة ، أنشأه في سنة ١٩١٧

٨ ـ نشيد سعد باشا زغلول : كتيِّب صغير عن نشيده : « اسلمي يا مصر ! » الذي أهداه إلى المرحوم سعد زغلول في سنة ١٩٢٣ ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ؛ وأكثر ما في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه .

٩ ـ النشيد الوطني المصري : « إلى العلا . . . . » ضبط ألحانه الموسيقية ، الموسيقار منصور عوض .

---

(١) طبع بعد ذلك عدة طبعات في القاهرة .

١٠ — رسائل الأحزان : كتاب أنشأه فى سنة ١٩٢٤ يتحدث فيه عن شىء مما كان بينه وبين فلانة ، على شكل رسائل يزعم أنها من صديق يبثه ذات صدره

١١ — السحاب الأحمر : هو الجزء الثانى من قصة حب فلانة ، أو الطور الثانى من أطواره بعد القطيعة ، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر

١٢ — المعركة تحت راية القرآن : هو كتاب « الجديد والقديم » وفيه قصة ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين لمناسبة كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، صدر فى سنة ١٩٢٦

١٣ — على السفود : قصة الرافعى والعقاد ، نشرته مجلة العصور فى عهد منشئها الأول الأستاذ إسماعيل مظهر ، ولم تذكر اسم مؤلفه ورمزت إليه بكلمة : « إمام من أئمة الأدب العربى » .

١٤ — أوراق الورد : الجزء الأخير من قصة حبه ، يقوم على رسائل فى فلسفة الجمال والحب أنشأها ليصور حالاً من حاله فيما كان بينه وبين فلانة ، ومما كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبة حديث القمر .

وتعتبر كتبه الأربعة : حديث القمر ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ـ وحدةً يتمم بعضها بعضا ، لأنها جميعا تنبع من معين واحد وترمى إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها .

١٥ — رسالة الحج : أنشأه فى صيف سنة ١٩٣٥ ، استجابة لرأى صديقه المرحوم حافظ عامر وإليه ينسب !

١٦ — وحى القلم : مجموع مقالاته فى الرسالة بين سنتى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ إلى مقالات أخرى ، طبع منه جزءان فى حياته ، ثم أعيد طبعه مع الجزء الثالث أكثر من مرة بعد موته .

* * *

وله عدا ذلك كتب لم تطبع ، أهمها ما يأتى :

١ — الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب : تام التأليف والتصنيف تقريبا(١)

٢ — أسرار الإعجاز : فيه فصول تامة التأليف ، وفصول أخرى أجمل فكرتها فى كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها ، وكان الرافعى يعتد بهذا الكتاب اعتدادا كبيرا ، وهو جدير بذلك حقًّا : وقد أطلعنى ـ رحمه الله ـ على فصول منه ، كما تحدث إلىّ عن نهجه فى تأليفه ، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتى :

(ا) ـ يتحدث فى صدر الكتاب عن البلاغة العربية ، فيردها إلى أصول غير الأصول التى اصطلح عليها علماؤها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولا أخرى

(ب) ـ ويتحدث فى الفصل الثانى عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه ، مسترشدا فى ذلك بما قدم فى الفصل السابق من قواعد .

(ج) ـ ويتناول فى الفصل الأخير من الكتاب ، آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها فى اللفظ والمعنى والفكرة العامة : ويعتبر هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه : وقد أتم الكتابة ـ إلى آخر يوم كنت معه فيه ـ عن بضع وثمانين آية على هذا النسق : وقد نشر منها فى الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج ، وجعلها فى بعض أقاصيصه .

٣ — ديوان أغانى الشعب : وهو ديوان من الشعر جعل فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها : وقد أنجز الرافعى طائفة كبيرة من هذه الأغانى نشر بعضها

---

(١) طبع فى سنه ١٩٤٠

وما يزال سائرها بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التى لم تنشر . وأكثر الأغانى فى هذا الديوان مأنوس اللفظ رشيق المعنى مما يحمل وقعه فى النفس ويخف جرسه على الأذن .

٤ ـ الجزء الثالث من وحى القلم . وفيه سائر المقالات التى كتبها ، سواء منها ما نشر فى الرسالة وغيرها من المجلات والصحف ، وما لم ينشر من قبل(١) .

٥ ـ الجزء الأخير من الديوان : وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنتى ١٩٠٨ و ١٩٣٧ ، بما فيه من شعر الحب ، والمدائح الملكية التى أنشأها للمغفور له الملك فؤاد .

هذا إلى شتيت من المقالات والرسائل الأدبية أنشأها لمناسباتها ومنها كثير من مقدمات الكتب المطبوعة ، بعضها منسوب إليه وبعضها منحول مجهول النسب :

أما المطبوع من هذه الكتب فقد أعيد طبع أكثره ، وأما غير المطبوع فما يزال ورقات وقصاصات على مكتبه ، وإنى لأخشى أن يمضى وقت طويل قبل أن نتنبه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التى خلفها الرافعى ورقات مخطوطة يكاد يبليها الإهمال والنسيان !

ولدَى الدكتور محمد الرافعى مشروع لإحياء تراث أبيه ، لست أدرى أتجد الوسائل لتنفيذه أم تحول دونه الحوائل وتمنع منه الضرورات ؟

على أنى أكاد أومن بأن هذه ليست هى الوسيلةَ للمحافظة على تراث الرافعى : فليس من الوفاء له وحسن الرعية لأولاده أن نحمل عليهم هذا العبء وما انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انتفع كل أديب وكل مسلم وكل عربى فى مصر وغيرها من بلاد العربية .

(١) طبع سنة ١٩٤٢ .

لقد كان الرافعى صاحب دعوة فى العربية والإسلام يدعو إليها ؛ فحقه على العربية ، وحق العربية على أدبائها ، وحق الإسلام على أهله ، أن نجدّد دعوته ، وأن نبقى ذكره ، وأن ننشر رسالته ، وأن نُعنى بآثاره ؛ فإذا نحن قد وُفّقنا إلى كل أولئك فقد وفّينا له بعض الوفاء !

والآن فلننظر لنرى مقدار ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوة من النجاح ؛ وأمامنا إلى ذلك وسيلتان :

أولاهما : أن نعرف مدى تأثر الناشئة من المتأدبين اليوم بأدب الرافعى ومذهبه ؛ والثانية : هى البحث عن آثار الرافعى ومنشآته الأدبية وتراثه الفكرى لنحرص عليه من الضياع .

فأمّا الأولى : فإن بين الرافعى والأكثرين من ناشئة المتأدبين فى هذا الجيل حجابا كثيفا يمنعهم أن ينفذوا إليه أو يتأثروا به ، لعوامل عدّة :

فالرافعى أديب الخاصة ، كان ينشئ إنشاءه فى أى فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلوبها وتَعِزُّ مكانا بين اللغات ؛ وشبابنا أصلحهم الله لا يعرفون الأدب إلا ملهاةً وتسلية : لا ينشدونه للذه العقلية وسمو النفس ، ولكن ينشدونه لمقاومة المَلل وإزجاء الفراغ ؛ فهذا سبب .

والثانى أن الرافعى ـ رحمه الله ـ لم يكن يكتب الكتابة الصحافية التى ينشئها أكثر كتابنا ليتملقوا غرائز القراء بالعبارة المتهافتة والقول المكشوف . وعند المتأدبين من ناشئة اليوم أن قيمة الأدب هى بمقدار انطباقه على أهواء النفس وارتياحها إليه وقدرتها على أن تسيغه بلا تكلف ولا عناء !

وثمة سبب آخر ، هو طغيان السياسة على الأدب فى هذا الجيل طغيانا أقحم

على الأدب ما ليس فيه وعلى الأدباء من ليس منهم ؛ بحيث يتحرج أكثر الأدباء أن يقولوا قالة أو رأياً أدبيا فى أديب أو شاعر إلا متأثرين بما كان له من مذهب سياسى أو رأى فى السياسة المصرية .

والرافعى رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ، ولم يكن يعتبر له مذهباً فى النقد إلا المذهب الأدبى الذى لزمه منذ نشأ فى الأدب . فمن ذلك كانت خصوماته الأدبية تنتهى نهاياتها إلى اتهامه فى وطنيته وفى مذهبه السياسى ؛ ورآها أكثر خصومه من كتاب الشعب فرصة سانحة لينالوا منه عند القراء ، فانتهزوها ، وبالغوا فى اتهامه . وأغرقوا فى الطعن على وطنيته وتأولوا مذهبه ، حتى صار عند بعض القراء رجلا لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص فى عقيدته . وما تزال السياسة عند أكثر شبابنا ذات سلطان . وما زال الأدب يجرى فى غبار السياسة وهو أعلى مكاناً وأرفع منزلة ...

ولقد يضاف إلى كل أولئك سبب أخير ، هو أن أكثر ما كان يتداوله الرافعى من شئون الأدب هو ما يتصل بحقيقة الإسلام أو معنى من معانيه . على أن الكثرة من ناشئة المتأدبين اليوم يريدون أن يفرقوا بين الأدب والدين ، فلا يرون ما ينشأ فى هذا الغرض لوناً من ألوان الأدب أو مذهباً من مذاهبه .

تلك جملة الأسباب ، أو مجمل الأسباب ، التى باعدت بين أدب الرافعى وبين الجمهور من ناشئة المتأدبين ، مابدّ من النظر فيها والبحث عن علاجها حين نهم بأن نجدد دعوة الرافعى وننشر رسالته إن كان ثمة يقين بأن أدب الرافعى حقيق بالخلود ؛ وأن اليقين به ليعمر قلب كل أديب يؤمن بأن الدين واللغة هما أول المقومات لقوميتنا العربية المسلمة .

... ذلك شيء ... أما آثار الرافعى فإن كل مافى يد العربية منها هو صدى كلمات وعنوانات كتب ، أما حقيقتها ومعناها فقد انفرط الجيل الذى درسها أو كاد فلم يبق للجيل الناشئ منها غير عنوان ؛ فليسأل كل أديب نفسه : ماذا قرأ من كتب الرافعى وماذا حصّل وماذا أفاد ؟

إنها لمكتبةٌ حافلة جديرة بأن تنشئ مدرسة جامعة لمن يريد أن يتزود من العربية زاداً مريئاً وغذاء شهيا ، ليكون أديباً له لسان وله بيان وله منزلته الأدبية فى غد ...

إنى لأكاد أوقن أنّ تسعين من كل مائة من القرّاء لايعرفون من هذه الكتب إلا أسماءها ؛ وإنّ منهم لـمن يتوهم أنّ من حقه أن يتحدّث عن الأدب ويؤرّخ لأدباء الجيل .

وما عيبٌ على مَن لم يقرأها أنه لم يقرأها ؛ ولكن العيب كل العيب علينا عامّة نحن المشتغلين بالأدب أن يكون كل وفائنا لمن يموت من أدباء العربية أن نقول : كان وكان ويرحمه الله .

لقد أدّى الرجل واجبه ما استطاع وبقى علينا فرض واجب الوفاء .

* * *

لقد أورثنى الرافعى بعض تبعاته ، وإنى لأحس بثقلها على عاتقى أكثر مما أحس بحاجتى إلى التحدّث عن ماضيه .

لقد عاش الرافعى حياته يجاهد لأمته مالم يجاهده أديب فى العربية منذ قرون ، وقضى حياته يلقى من العقوق ونكران الجميل مالم يلق أديب فى العربية منذ كانت العربية ، ومات فما كان حظه منا فى أخراه أحسن منه فى دنياه . فهل لى أن أؤمّل

أن تتنبه الأمة والحكومة إلى ما ينبغى أن يكون ؛ وفاءً لهذا الراحل الكريم ؟

ليس يكفى أن يكون كل وفائنا للرافعى ؛ حفلة لتأبينه وبضع كلمات برثائه ، ولكن الوفاء حق الوفاء أن نعمل على تخليد ذكراه : بتخليد أدبه ، وتجديد دعوته ، وإبقاء ذكره ، ونشر رسالته ؛ فليكن هذا الذى أنشأته عن « حياة الرافعى » أولا له ما بعده ، لنفكر فى الوسائل النافعة التى تجدى على الأدب والعربية أكثر مما تجدى رسائل التأبين وكلمات الترحم والاسترجاع !

أما هو فقد انطوى تاريخه على هذه الأرض ، فلن يجدى عليه شيئا مانفعل وما نقول ؛ ولكن ما نفعله ومانفكر فيه إنما هو لخيرنا وجدواه علينا، فلنفكر فى أنفسنا وفى ذواتنا وفيما يعود علينا وعلى العربية من تجديد ذكرى الرافعى ، إن كان يعز علينا أن نعمل أو أن نفكر إلا فيما تكون منفعته إلينا ولنا من ثمراته نصيب !

* * *

أما بعد ، فهذه « حياة الرافعى » مبسوطة لمن يريد أن يدرس ؛ وأنا لم أجهد جهدى فى جمعها وترتيبها لكى أقول ويقول الناس : كان وكان من أمره ؛ وحسب ؛ فما فى ذلك كبير فائدة ؛ ولكنى أنشأت هذه الفصول لتكون تمهيدا لدراسة الرافعى فى أدبه وفنه ومذهبه ؛ فما أسميها كتابا ؛ ولكنها مقدمة تتلوها فصولٌ وكتب إن شاء الله ؛ وهذا كتاب « حياة الرافعى » اليوم فى سوق الأدب ؛ فما يكون عنوان الكتاب التالى عن الرافعى ومتى يطالع القراء ؟

أترانى أحسن الظن بأهل العربية فى هذا التساؤل ؟

لقد مات الرافعى ؛ ولكن اسمه سيبقى مابقيت العربية : وليس بعيدا ذلك

اليوم الذى يتداعى فيه أدباء العربية من كافة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعى موسما من مواسم الأدب وحلبة يتسابق فيها أهل البيان .

ألا إنه إذا كان أكثر الأدباء المعاصرين قد عقُّوا الرافعى وأغفلوا شأنه وتناسوه ، فإن جيلا جديدا يوشك أن يبسط سلطانه زاحفا متقحِّما لا يثبت أمامه شىء ؛ ويومئذ . . . ويومئذ تذهب العداوات بأصحابها ؛ وتنطفئ هذه الفقَّاعات العائمة ؛ ويخبو الرماد ؛ ويخلص وجه الحق للحق !

. . . ويومئذ . . . ويومئذ تعلو كلمة الله !

فهرست

ا ــ الموضوعات

صفحة

ب ـ الاعلام

جـ ـ الصحف والمجلات

د ــ الكتب

تمت الفهارس

المكتبة التجارية الكبرى - بالقاهرة - الشركة الشرقية للنشر والتوزيع - ببيروت